أين ابني ؟
رواية
محمد زقزوق

أين ابني؟

مليحة ولدت ابنها للتوّ. ثم أفاقت.. لتجد أنّ عليها أنْ تنسى أنّ لها ابنا!
لم تره قط.. وتُجْبَر على أن تمضي في حياتها كالمعتاد.. وكأن شيئًا لم يكنْ!
أين ابني؟!
تمرّ السنوات.. يتقاطع سعيها الدؤوب في رحلة البحث عن ابنها مع استقالة آدم أحمد من عمله.
آدم هو المكلف بالبحث عن الإجابة.
و خلال رحلة بحثه الصعبة.. يكتشف جوانبَ من نفسه.. لم يَخبُرْها من قبل.
و يكشف للآخرين جوانبهم أيضا.

أين ابني؟

محمد زقزوق

الطبعة الإلكترونية الأولى (إبريل 2013)

رسم و تصميم الغلاف: محمد الجلاد

©2013 محمد زقزوق

أين ابني؟

محمد زقزوق

إهداء

إلى أبي..

لن نستطيع أن نوفّيك حقك جزاء تعبك معنا

الفهرس

الفصل الأول 9
الفصل الثاني 15
الفصل الثالث 22
الفصل الرابع 31
الفصل الخامس 47
الفصل السادس 58
الفصل السابع 68
الفصل الثامن 81
الفصل التاسع 92
الفصل العاشر 98
الفصل الحادي عشر 105
الفصل الثاني عشر 112
الفصل الثالث عشر 117
الفصل الرابع عشر 122
الفصل الخامس عشر 132
الفصل السادس عشر 137
الفصل السابع عشر 144
الفصل الثامن عشر 148
الفصل التاسع عشر 155
الفصل العشرون 164
الفصل الحادي والعشرون 170
الفصل الثاني والعشرون 176
الفصل الثالث والعشرون 184
الفصل الرابع والعشرون 189
الفصل الخامس والعشرون 194
الفصل السادس والعشرون 202
الفصل السابع و العشرون 212
الفصل الثامن والعشرون 219
الفصل التاسع والعشرون 226
الفصل الثلاثون 231
الفصل الحادي والثلاثون 237
الفصل الثاني والثلاثون 243
الفصل الثالث والثلاثون 249
الفصل الرابع والثلاثون 255
الفصل الخامس والثلاثون 258
الفصل السادس والثلاثون 261
الفصل السابع والثلاثون 267
الفصل الثامن والثلاثون 272
الفصل التاسع والثلاثون 278

www.muhammadzakzook.com

الفصل الأول

لم يكن يعلم و هو ينظر إلى الأطفال مع ذويهم في حديقة المدرسة أن أمه التي لم يرها في حياته تسعى لإيجاده الآن بكل ما أوتيت من قوة.

كان الصغير حسام ذو الست سنوات واقفا في الطابق الأول في مبنى بمدرسته الداخلية ينظر إلى الحديقة أسفل منه.

عصر يوم جميل، لطيف الجو، في نهاية أول أسبوع له في هذه المدرسة. و يا له من أسبوع!

كانت تصل إلى مسامعه الضحكات و الصياح من أطفال في مثل سنه أو أكبر قليلا و هم يتقافزون هنا و هناك حول آبائهم أو أمهاتهم. يجرون بعيدا عنهم ثم يعودون إليهم ليأكلوا أو يشربوا أو يركنوا إليهم في تلامس أسري يعوض غيابهم عنهم طوال أسبوع.

كانت ملامحه حزينة و هو يتطلع إلى أم مع ابنها في مثل سنه تحتضنه و تلاعبه. كان يفكر. ترى هل كانت أمه ستكون مثلها؟ في حنانها و عطفها؟ أخذ يسرح و يتخيل أنها تأتي إليه كل زيارة تجلس معه و تسأله: ماذا فعل؟ ماذا أكل؟ من أصدقاؤه و كيف يلعبون معا؟ هل يعمل واجباته أم لا؟

لاحظت تلك المرأة نظرته الثابتة بعينين تنظران و عقل بعيد غائب في أحلامه. نادته. لم يجب.

كررت النداء.

"يا صغيري. أنت. ما لك تقف وحدك؟ أتريد أن تأتي؟ تعال."

انتبه عند آخر كلمة. تعال. لم يتردد كثيرا. نزل فورا و هو يجري. تعثر في منتصف الطريق؛ فسقط على يديه و ركبتيه. تأوهت المرأة في وجل. نهضت من مكانها سريعا و أمسكت بيديه تنتشله من التراب. شعر بامتنان و حب عميقين.

"ألا تحترس؟! فيم العجلة؟!"

نفضت له ملابسه و أخذت بيده مخاطبة ابنها:

"انتظرني يا أحمد. سأغسل لهذا الحلو يديه."

نظر الصغير إلى حسام نظرة غريبة. سأل أمه و هو قادم نحوها:

"و أنا ماذا ؟"

"و أنت سيد الحلوين يا حبيبي."

قالتها أمه و هي تقبله في رأسه ثم تمضي بالصغير.

أول مرة تمسك بيده امرأة هكذا مثل كل الأمهات و هي تقتاده. شعور رائع.

دعكت له يديه تحت الصنبور ثم جففتهما بمنديل ورقي.

عندما عادا كان يسير معها و يود لو يطير من الفرح.

أجلسته على المقعد بجوارها. جلس بكل أدب متطلعا إلى وجهها الصافي. ابتسمت له و هي تسرح شعره بيدها.

"هكذا أفضل."

جاء أحمد و استند إلى أمه.

"تعال اجلس بجانبنا يا أحمد. اجلس بجوار صاحبك."

نظر الصغير إلى حسام في ريبة و قال وهو يهز رأسه بشدة:

"لا."

قطبت مستعجبة.

"لماذا ؟!"

"ليس بصاحبي."

"ما المشكلة! أليس بزميلك في الصف؟"

هز كتفيه و لم يعقب

سألت الصغير:

"ما اسمك يا حبيبي؟"

قبل أن يرد أجاب أحمد بسرعة:

"اسمه حسام و هو لا يحب أحدا منا."

اندهشت الأم أكثر .

"لا يحب أحدا منكم؟! لماذا؟! كيف عرفت؟!"

أجاب الطفل و كأنه يلومه:

"يجلس في آخر الصف وحيدا. عندما يأتي أحد ليكلمه لا يتحدث معه. حتى الأساتذة لا يرد على أسئلتهم. أحدهم قال لي: إن المديرة أمه و لذلك لا أحد من الأساتذة يغضب منه. يتركونه يفعل ما يريد."

"أمي ماتت."

قالها الصغير و قد عبس وجهه البريء بشدة.

"أمي ماتت و هي تلدني.. من قال لكم أن المديرة هي أمي؟!"

"بهدوء بهدوء..لا بأس..لا تغضب."

كانت تحاول تهدئته مربتة ظهره.. لحظات من الغضب استمرت ثم استجاب لحنو طرقاتها و لانت ملامحه رويدا رويدا.

أخرجت من حقيبتها شطيرة و ناولته إياها مغرية.

"كل..إنها لذيذة."

مد يده بسرعة و أخذها و كأنه يتلقى هدية عظيمة. أخذ منها قضمة صغيرة و أخذ يلوكها ببطء.

"تعال يا أحمد و اجلس بجوار حسام. هيا.. إنه صاحبكم. إنه طيب."

تردد لحظة ثم انصاع لحث أمه و جلس بجواره.

"أين بابا يا حسام؟ ألم يأت ليزورك؟"

كف عن المضغ. شعرت بأنه لن يرد لكنه قال:

"أبي مسافر. لم أجلس معه منذ عام. أنا كنت معه ، لكنه بعثني هنا و ظل هو مسافرا."

تذكرت زوجها. بخل في المشاعر و بخل في الأموال. حتى مع ابنه! فأتى الطلاق. بعدها كان يجب عليها أن تعمل و بجهد مضاعف. وقتها مستنفد تماما. لن تستطيع الاعتناء بأحمد كما يجب. اضطرت لإلحاقه بهذه المدرسة الداخلية. مصاريفها غالية حقا لكنها استعلمت عنها جيدا و تأكدت بنفسها و رأتها ممتازة.

انتظرت أن يتحدث عن أبيه أكثر من ذلك لكنه ظل ناظرا إلى الأرض يقضم من الشطيرة القليل ليلوكه.

"من المؤكد أن بابا يحبك كثيرا يا حسام. اشترى لك ملابس جميلة و أدخلك مدرسة حلوة."

لم يرد.

"أليس كذلك؟"

رفع رأسه حينها متعجبا!

"إذا كان يحبني لماذا لا يأتي ليلعب معي؟! كل الأولاد يأتي أهلهم إلا أنا. و حتى عندما كنت مسافرا معه كان يذهب إلى الشغل قبل أن أستيقظ و يرجع بعد أن أنام!"

كاد يبكي و هو يسأل:

"هل هكذا يحبني؟!"

"يا حبيبي!"

قالتها مُتَصعّبة و هي تأخذ رأسه عابرة به فوق ولدها في حضنها ، و تربُت على ظهره.

تعاطف أحمد معه ؛ بعد أن كان يرفضه أخذ يربت هو الآخر على ظهره. هو أيضا يشعر ببعض مشاعره ؛ فأبوه كأبيه.

هدأ حسام أخيرا.

اعتدل في الجلسة و أعطاها باقي الشطيرة. لم يكمل حتى ثلثها.

"أكملها."

"شكرا حضرتك."

مد أحمد يده في الحقيبة و أخرج شطيرة أخرى.

"جبن.. أتحب الجبن؟"

ابتسم حسام لأول مرة و قال:

"شبعت يا أحمد شكرا. مامتك طيبة جدا."

ابتسمت الأم قائلة:

"هذا من ذوقك يا جميل."

استطردت :

"طيب. ألم يكن يأتي لك بمربيات يعتنين بك عوضا عن ماما يرحمها الله؟"

"و لا واحدة فيهن كانت جيدة. لم يكن يعرف كيف يأتي بواحدة طيبة. واحدة مثلك."

ابتسمت مرة أخرى .صبي يجيد المجاملة ؟! لا يمكن لمن في سنه المجاملة. قطعا يتحدث الصدق.

"متى سيرجع يا حسام؟"

"قال لي في آخر اتصال أنه سيعود قريبا جدا. لكنني لا أصدقه. عندما كنت هناك معه كان يقول لي كثيرا أنه سينتهي من الشغل سريعا ؛ حتى يرجع مبكرا و يأكل و يلعب معي

لكنه كان يخلف وعده كل مرة. كل مرة. كان يعمل في وقت إجازته أحيانا. تصوري!"

أصبت يا صغيري هكذا فكرت. هناك أيضا من وعد أكثر من ألف مرة بالكف عن ذلك الشح البغيض لكنه لم يف أبدا. حاولت و حاولت و صبرت و جاهدت لكن الفشل كان هو المحصلة في النهاية. و لذلك لم يكن هناك بد مما لا بد منه. كان يجب أن تنتهي علاقتهما.

"ألم يكن لك أخ أو أخت أكبر منك ليلعبوا معك يا حسام؟"

أشار برأسه في حزن أن لا.

نظرت إلى ابنها. أستبقى هي هكذا بلا زواج؟ إن الحياة يجب أن تستمر. الأسرة هي شيء عظيم يجب إعادة تكوينه مرة أخرى بعد أن انكسر.

و لكن عندما تجد الرجل المناسب. أو يجدها هو لا فرق. استغرقتها خواطرها تماما عندما أفاقها نداء قوى هتف بكلمة واحدة:

"حسام!"

و حول صاحب الشأن رأسه ناحية مصدر الصوت بحدة.

***

الفصل الثاني

قبل ساعات من ذلك المشهد في مدرسة أخرى مدرسة إعدادية كان آدم أحمد المنشاوي الأخصائي الاجتماعي جالسا إلى مكتبه وقت الفسحة، منهمكا في إنهاء أعمال ورقية عندما سمع الطرق على الباب. تنهد بحرارة.

"تفضل."

دخل طالب يعرفه آدم جيدا. شادي طالب ثانية إعدادي، هزيل البنية يبتسم بخجل.

ابتسم آدم.

"أهلا يا شادي. كيف حالك ؟"

"الحمد لله يا أستاذ. آسف على إزعاجك."

"لا بأس. كيف تسير الأمور؟"

هز رأسه متأسفا. نفس الهزة التي يعرفها آدم عندما يأتي ليشكو...

"عادل شاهين يا أستاذ!"

"مرة أخرى ؟!"

قالها آدم و هو يعلم أنها لن تكون الأخيرة إذا سارت الأمور على نفس منوالها الذي تسير عليه منذ أن أتى إلى هنا.

"فجأة قفز بجانبي و خطف شطيرتي التي كنت آكلها و جرى."

سكت ثم أردف:

"لقد كدت أقع يا أستاذ. لكنني أخذت خبرة."

ابتسم آدم رغما عنه.

فابتسم شادي لحظيا و قال:

"يبدو أنه لا يرى أحدا غيري ليشاكسه!"

رجع آدم بظهره إلى مسند مقعده ثم قال و كأنه يكمل كلامه:

"و جريت وراءه."

"نعم، لكنه كان سريعا جدا. تعبت جدا لكي ألحق به لكنني لم أستطع. اختفى في زحام الفسحة."

نفخ آدم في غيظ. ذلك الولد أفقده عقله من كثرة أفعاله تلك. لا يدري ماذا يفعل معه أكثر مما فعل! يبدأ بالنصح و الود. ثم التأنيب.. ثم التقريع.. و لا فائدة! الولد يفتعل المشاكل و يتصرف كما يحلو له بلا أدنى خوف. و لم لا يفعل و أبوه هو شاهين وجدي؟! رجل الأعمال البارز و صاحب هذه المدرسة العظيمة!

يقولون من حكم في ماله فما ظلم.

غمغم آدم لنفسه ؛ يرد عليها:

"لا ليس هنا. هنا مدرسة. تربية، و تعليم، و احترام، و نظام."

ثم عاد يقول بنفس الخفوت مهموما:

"أو هكذا أظن."

"أتقول شيئا يا أستاذ ؟"

انتبه من تأملاته فقال:

"لا لا. حسنا."

تفرس آدم في وجهه متفكرا؛ و كأنه يطلب منه المشورة.

"لا أعرف ماذا أفعل يا أستاذ. أصحابي يخافون منه و من الأولاد الذين يتزعمهم. لا نستطيع أن نفعل لهم شيئا."

صمت لحظة ثم قال بتردد:

"حتى إننا نحس أن... إحم. يعني..."

ثم ألقاها سريعا كأنه يتخلص من حمل:

"أن الناظر يخاف منه."

لم يتمالك آدم نفسه و انفجر ضاحكا.

"بجد يا أستاذ. كلنا متأكدون من ذلك."

إن آدم يعلم جيدا الجد من الهزل. و لذلك ضحك. فكثير مما يحدث هنا لهو هزل يحاولون أن يلبسوه ثوب الجد.

حقيقة.. لقد تعب.

"لا بأس يا شادي. لقد آن الأوان لنقف مع أبيه وقفة جادة حاسمة. سأنهي ما بيدي و أصعد إلى الناظر و..."

لم يكد يكمل جملته حتى قطعها الساعي مقتحما المكتب:

"الناظر يريدك فورا يا أستاذ آدم."

"ألا تطرق الباب يا رجل؟!"

"معذرة يا أستاذ آدم.. لكنه يريدك الآن فورا. يقول أنه أمر هام."

"لقد كنت سأصعد إليه بعد قليل. فقط دقائق. اذهب أنت."

هز الساعي الخمسيني رأسه نفيا:

"لا. قال لي أحضره معك."

تجهم وجه آدم. أحضره معك؟! ما هذا؟! أهو طفل صغير ليأتي به أحد؟!

نهض من أمام مكتبه غاضبا. التقط ملفا من عليه و خرجوا جميعا. أخذ يفكر في الطريق ، و الساعي يتقدمه مستحثا إياه بمزيد من العجلة بكلمات لا يتبينها؛ من استغراقه في التفكير. لا بد أن يحسم الأمر هذه المرة.

أول من أبصره في حجرة الناظر قبل أن يدخلها كان هو. الطالب عادل شاهين. ممددا على أريكة إسفنجية مريحة، يطوح ساقه للأعلى و للأسفل على مسند الأريكة. هكذا بكل بساطة! نظر آدم إلى داخل الحجرة فوجد الناظر جالسا إلى مكتبه ينتظره، فلما أبصره عبس ثم ناداه و في صوته نبرة حزم:

"تعال يا أستاذ آدم."

كان نظر آدم ما زال عالقا بالولد و هو غير مبال كأنه يجلس في بيته. مرة أخرى هذه مدرسة أبيه فلم لا يعتبرها بيته؟!

ضربني و بكي و سبقني و اشتكى.

ضغط آدم على نفسه بشدة حتى لا ينفجر، و اتجه بهدوء إلى مكتب الناظر المواجه للأريكة الإسفنجية.

بادره قبل أن يجلس تماما:

"ما هذا الذي يحدث في مدرستنا يا أستاذ آدم؟!"

"ماذا تقصد يا حضرة الناظر؟"

أشار الناظر بيده في حدة.

"أما آن الأوان لذلك الولد... ما اسمه؟ شادي؟ أما آن الأوان له ليكف عن الادعاء على عادل شاهين أفضل طالب في المدرسة؟ مرة إنه يضربني، و الأخرى إنه يسرق شطائري. ما هذا؟! ابن السيد شاهين يفعل ذلك؟! رد أنت عليّ."

أخذ آدم نفسه و قال ببرود:

"نعم إنه يفعل ذلك. ثم قل لي أنت يا حضرة الناظر..."

و أشار بيده إلى الولد خلفه على الأريكة:

"ما هذا ؟!"

بادله الناظر نظرة صامتة.

نادى آدم على الولد:

"قم يا بني و اعتدل ، و تعال اجلس أمامي"

نظر الولد بكل صفاقة إلى الناظر و لسان حاله يقول:

"رد عليه."

اضطرب وجه الناظر و قال:

"لا شأن لك به. لا تسع إلى التهرب من إجابتي و..."

لم يتمالك آدم نفسه فصاح:

"هذا فوق المحتمل. ماذا يتعلم الطلاب في هذه المدرسة عندما يخرج و يقول بكل بساطة أمام زملائه بأنه كان ممددا أمام الناظر يلعب بقدميه؟! متى يحترمونك بعد ذلك؟! هذا شيء عجيب!"

كان وجه الناظر يغلى بالغضب، لكن الحجة بالغة.

زفر بشدة و قال آمرا:

"هات ذلك الولد شادي ليعتذر ، و لننه الأمر بسرعة."

ارتسم الذهول على وجه آدم. انطلق بصوت عال:

"من يعتذر لمن؟! أي أمر تريد إنهاءه يا حضرة الناظر ؟! إنه لشيء عجيب حقا!"

ضرب الناظر بيده على مكتبه بعنف و هو يميل إلى الأمام كأنه سيهجم على آدم.

"كيف تكلمني هكذا يا أستاذ؟! أنسيت نفسك؟! إن لحم كتفيك من خير السيد شاهين . من يدفع مرتبات مثل ما يدفع؟ اسمع.."

و رفع سبابته أمام وجهه منذرا.

"إذا كنت تعتقد أنك من ستدير المدرسة على هواك فأنت واهم. كل عيش و اسمع الكلام . هات الولد."

كانت هذه هي الحافة بالنسبة لآدم. لا أرض بعدها يمكن السير عليها. أخذ يهز رأسه و كأنه يقول: "نعم نعم. إذن هكذا تسير الأمور هنا."

أخرج من الملف الذي أحضره ورقة خالية ، و أخرج قلمه و أخذ يكتب.

تراجع الناظر إلى مسند مقعده في بطء و هو ينظر إلى حركة القلم على الورقة.

لان صوته و هو يقول:

"نعم.. نعم. جيد أن تكتب اعتذارا للسيد شاهين. عين العقل. لماذا كل ذلك التعب؟!"

أخذ آدم يهز رأسه لأعلى و أسفل بقوة.

أنهى كتابته ثم وضع الورقة أمام الناظر الذي ابتسم في حبور و هو يتصفح ما كتب. لم يلبث لحظة حتى زال كل الحبور من على وجهه ، ثم رفع رأسه إلى آدم فجأة و قال:

"ما هذا ؟!"

قام آدم من على مقعده و قال

" أهي عصية على الفهم؟ استقالتي يا حضرة الناظر . أنا لحم كتفيَّ من خير الله. لم آخذ صدقة منكم.. بل عملت و بكل جد."

نظر ناحية الولد مكملا:

"و أكون شحاذا فعلا لو بقيت. لقد خربت و يجب إصلاحها."

أخذ طريقه ناحية الباب، و قبل أن يخرج نظر إلى الناظر و أشار نحوه مهددا قائلا:

" أنت مسؤول عن ضياعه، و غيره الكثير."

خرج و هو يظن أن الرجل خلفه يقول في سره أو حتى علنه:

"المركب التي تأخذ."

تخيله و هو يقف احتراما و تبجيلا للسيد الصغير، و هو يعتذر له عن قلة أدب هؤلاء الحثالة و عدم تقديرهم لمكانته السامية، و إلى آخر ذلك الهراء.

وجد شادي منتظرا، و قد بان القلق على ملامحه.

"ماذا حدث يا أستاذ؟ هل سترحل حقا؟!"

وضع آدم يده على كتفه مقتادا إياه في سيره.

"نعم يا شادي. لم يكن هناك حل آخر."

"أنا آسف يا أستاذ."

ابتسم آدم في استهانة قائلا:

"على ماذا؟ ليس خطأك. بل كانت القشة التي قصمت ظهر البعير. لقد تعبت حقا."

"سنفتقدك جدا يا أستاذ."

ابتسم آدم و توقف. نظر إلى عيني شادي و قال:

"لا بأس. ربما تزورني أو أزورك. أسمعني صوتك كل فترة في الهاتف. نصيحة يا بني.. اترك هذه المدرسة. إنها ستضرك أكثر مما تنفعك. قل ذلك لأبيك. قل له الأستاذ آدم نصحني بأن أنتقل إلى مدرسة حقيقية."

قالها و ربت على كتفه، و ذهب تشيعه نظرات الفتى.

عندما خرج من باب المدرسة هبت نسمة هواء منعشة؛ ففتح ذراعيه لها، و أغمض عينيه و استنشق الهواء بقوة و أخرجه بنفس القوة أيضا. ابتسم و أخرج هاتفه و اتصل بزوجته ليلى.

"كيف حالك يا عزيزتي؟ اسمعي. لقد طردت نفسي من المدرسة. نعم. حقيقة لا مزاح. باركي لي."

***

الفصل الثالث

أولج مفتاحه في باب البيت و دخل. أول مرة منذ زمن بعيد يدخل بيته نهارا و لا يجد فيه أحدا. كان معتادا أن يأتي آخرهم. بدا له الأمر غريبا. دخل الحمام و غسل وجهه و خرج إلى حجرة الجلوس. جلس على مقعد و وضع قدما على الأخرى ، و أخذ يفكر.

ما العمل الآن؟ أيأخذ إجازة قصيرة؟ أسبوع أو اثنين ثم يبدأ في البحث عن عمل جديد؟ إنهم لن يموتوا جوعا بالتأكيد؛ فليلى زوجته تعمل مدرسة في رياض أطفال، كما أنهم ليسوا مبذرين. ادخروا مبلغا معقولا. فليذهبوا في رحلة أو ما شابه. نعم و لم لا؟ سيسعد خالد ابنه ذو التسع سنوات بهذا جدا. كان يلح عليه مؤخرا و يقول:

"بابا بابا.. هيا بنا نسافر و نرى الدنيا. نسافر إلى الخارج."

فكان يرد عليه:

"ليست معى نقود كافية يا جدع. عندما يصبح معي."

فكان يسأله بكل براءة:

"و لماذا ليس معك ما يكفي؟!"

فيرد و هو مبتسم:

"أرزاق يا بني. ادع الله أن يجعلني غنيا."

فيرفع الصغير يديه إلى السماء و يقول:

"يا رب ، اجعل بابا غنيا و أنا أيضا عندما أكبر. غنيا جدا جدا."

فيلكزه آدم برفق في كتفه و يقول مبتسما:

"قل بالحلال."

فيكمل الصغير:

"بالحلال يا رب."

أطلق آدم ضحكة خافتة، و أراح رأسه على المسند و أغمض عينيه.

أخذ يتذكر كيف كوَّن أسرته الحبيبة. كانت بداية تعارفه مع ليلى عندما أنقذته من موقف محرج في الحافلة الصغيرة جدا التي كان يستقلها للذهاب إلى جامعته. كثيرا ما كان يراها في الموقف. أحيانا كانت تركب في نفس الحافلة. لم يكن يلتفت إليها أكثر من ملاحظته لتكرار رؤيتها. لكن في يوم ما عندما تحركت الحافلة، اكتشف أنه نسى أن يأخذ نقودا. كانت أول مرة يحدث له فيها مثل هذا الموقف.أخذ يفلي جيوبه. خاوية على عروشها. ما العمل الآن؟! غضب من نفسه بشدة. نادى السائق:

"من لم يبعث بالأجرة فليبعثها."

رد عليه :

"لحظة لو سمحت."

ماذا يفعل؟! أخذ يحاول مرة أخرى و يفتش جيوبه بعنف. لم تطل محاولاته عندما وجد يدا تمتد من خلفه بالأجرة. سمع صاحبتها تقول:

"تفضل."

التفت إلى الخلف فرآها خلفه بالضبط. قالت:

"لا بأس. أحيانا يحصل لكل منا ذلك."

تجمد لحظة و لم يدر ما يفعل. إلا أنه بعدها مد يده و أخذ النقود و قال بامتنان عميق:

"شكرا. شكرا جزيلا."

دفع النقود و هو يفكر كيف سيردها إلى هذه الفتاة صاحبة الشهامة.

كانت تنزل قبله دائما، و كانت تتبقى له مسافة ليست بالقليلة حتى يصل إلى جامعته. لكنه عندما نزلت نزل فورا.

"لحظة من فضلك."

فتوقفت و هي تنظر متسائلة.

"يجب أن أرد النقود."

قالت:

"لا بأس. ليست بشيء."

"لا من فضلك. هذا الأمر هام بالنسبة لي جدا."

ربما كانت تقول في نفسها:

"الأمر لا يستأهل."

"لا بأس. كثيرا ما أراك في الموقف. ستأتي فرصة و ترد لي النقود. عن إذنك."

و ذهبت بهدوء.

وقف ينظر إليها و هي تبتعد. الموقف بسيط و قد يمر. لكنه أحس بشعور غريب . ثابتا في مكانه نظر إليها و هي تدخل جامعتها من على بعد . وجد نفسه يجري لكي يلحق بها. دخل و تابعها حتى وجدها تدخل كلية رياض الأطفال. دخلت أحد المدرجات و هو يتبعها.بدأت المحاضرة الأولى. نظر إلى ساعته. لقد تأخر. ألقى نظرة من الباب المفتوح فوجدها تتابع المحاضر بكل اهتمام. كان يحذر بشدة أن تلحظه. تعمد في الأيام التالية ألا يذهب إلى الموقف و أن يستقل وسيلة مواصلات أخرى. لم يرد أن ينهي معرفته بها عندما يعطيها النقود. شيء ما جذبه إليها. صوتها، ملامحها، بساطتها، شهامتها. لا يعلم بالتحديد. ربما كل ذلك مجتمعا. لكنه يعلم جيدا أنه يريد أن يعرفها أكثر.

أصبح كل يوم يخرج من بيته في موعد أبكر و يسبقها إلى كليتها. دون أن تلمحه و لو لمرة كان يتبع تحركاتها. على مدار أسبوع لم يذهب فيه لكليته مطلقا كان قد عرف أماكن جميع محاضراتها. كان ينظر إليها و هي تسأل و تجيب و تتحدث مع زميلاتها. بساطة و تلقائية، و ذكاء، و تعاون.

و روح.

روح أحس أنها تتماس مع روحه. و أن طريقهما حتما مشترك.

ماذا يفعل الآن؟ لقد تحرك قلبه و عضده عقله، و لا سبيل إلا سبيلٌ واحد.

مع ذلك كان مترددا. كيف يفتح الحديث معها؟ هل تصده؟

لكن أمره افتضح أخيرا عندما كان يجلس في استراحة الطعام في ركن بعيد يراقبها و هي تجلس مع زميلة لها. تلك الزميلة هي التي كشفته عندما رآها تنظر إليه بإمعان ثم تلفت انتباه الفتاة فتنظر إليه. التساؤل واضح جدا على محياها. أحس بحرج شديد لحظتها. أخذ يسعل. ثم لم يجد مفرا.

مضى نحوهما و هو يقدم رجلا و يؤخر الأخرى حتى وصل.

"سلامو عليكو."

فردت الفتاة بعد لحظة صمت:

"و عليكم السلام."

مد آدم يده في جيبه و أخرج النقود و قال:

"شكرا جزيلا."

نظرت إلى يده الممدودة و قالت:

"هل أنت مصر؟ لا بأس. و مدت يدها و أخذت الورقة المالية."

سألته بعدها:

"كيف عرفت أنني أجلس هنا ؟!"

فتطوعت زميلتها بالإجابة:

"لقد لاحظتك عدة مرات في عدة أيام و أنت تنظر إليها. ماذا تريد؟"

ظهرت الدهشة على وجه الفتاة. عدة أيام؟!

أصبح تحت الأمطار تماما بلا مظلة. لا مفر من الإقدام.

نظر بتركيز في عينيها. قال:

" أريد أن أحدثك في موضوع خاص."

لحظات من الصمت بينهم وسط الضجيج حولهم. ثم نظرت إليها زميلتها، و عندما لم تتكلم الفتاة بشيء؛ قامت الزميلة الفاهمة و انسحبت، قائلة بلهجة ذات مغزي:

"أراكِ في المحاضرة."

سحب آدم كرسيا و جلس و قلبه يدق بقوة. التساؤل الحذر الممزوج بالدهشة على وجهها. مرت ثوان أخرى من الصمت. ابتلع ريقه و تكلم.

لأن أقصر الطرق بين نقطتين هو الطريق المستقيم؛ فقد أخذ يحكي بإيجاز عن دراسته، و ظروفه، و أهله، و هي تستمع.

كان التردد يزول تدريجيا عنه كلما غاص أكثر و أكثر في الحديث. و هي لم تقاطعه مرة لتسأله عن قصده. استمعت و هي تكتشف روحه بدورها. و هي تفهم المغزى بكل تأكيد. في نهاية حديثه أحس براحة كبيرة، ثم قال و هو يركز نظرته على عينيها:

"ما رأيك ؟"

خفضت بصرها إلى المنضدة و شبه ابتسامة قد افتر عنها ثغرها.

لكنها سألت دون إجابة:

"في ماذا؟"

قال:

" آنسة ..."

يا للغرابة. حتى الآن و طوال الأسبوع لم يعرف بعد اسمها.

فأجابته و ابتسامتها تتسع أكثر:

"ليلى."

فرح لما استشفه من قبول بدأت بشائره تهل منها. فهو يفهم أيضا.

اندفع و كله تصميم:

" آنسة ليلى. هل تتزوجينني ؟"

و شملت الابتسامة كل وجهها كاشفة عن أسنانها.

و كانت الخطبة بعدها بأسابيع قليلة.

***

دخل في النوم. رأى نفسه يتمشى في شارع واسع رصيفاه مزدحمان بالبشر. السيارات تعدو فيه بسرعة البرق. كان يسير و يعلم أن له هدفا، لكن لا يعلم ما هو بالضبط. فقط يشعر أنه مجبر على السير. كان يصطدم أحيانا بالمارة فيعتذر. وجد يدا تمسك بذراعه. يد ضعيفة.

" هل تعبر بي الطريق يا بني ؟"

قالتها عجوز و هي تنظر إليه بأمل.

"الكل مشغول و لا يرغب في مساعدتي."

"بالتأكيد."

و أمسك بيدها و أخذ يتفادى السيارات المسرعة، و هو يحاول مجاراة حركتها البطيئة.

قالت و هما في عرض الطريق:

"لا أعلم لماذا لا يضعون أماكن لعبور المشاة؟! ليست صعبة!"

عبر بها بعد جهد. سحب يده و قال بابتسامة خفيفة:

"مع السلامة."

إلا أنها نادته.

"ربنا يبارك فيك. لحظة. خذ يا بني."

نظر إلى النقود في يدها.

"ما هذا؟!"

"حقك."

"على ماذا ؟!"

"على تعبك في عبورك بي."

"لم أفعل ذلك من أجل المال."

"لكنك ستأخذها."

و وضعت له النقود في جيب قميصه عنوة بقوة تعجب لها.

مد يده في جيبه و أخرج النقود.

"خذي يا أمي. الأمر لا..."

قطع كلامه عندما رآها أمامه و هي العجوز الضعيفة تجري بسرعة متفادية الناس وسط الزحام بمهارة عجيبة، حتى اختفت عن ناظريه.

ظل فاتحا فمه ذهولا عندما أيقظته من حلمه يد أخرى.

كانت زوجته ليلى واضعة كفها على كتفه من خلفه. فتح عينيه و حول رأسه إليها.

" أكنت نائما؟ معذرة."

قالتها بحنو. ابتسم و انحنى برأسه و طبع قبلة على أصابعها و قال:

"لا بأس."

ثم أخذ بيدها و أجلسها بجواره و قال:

"قبل أن تسألي عن التفاصيل، لقد وجدت عملا."

تغيرت ملامحها دهشة سألت:

"بهذه السرعة؟! متى و أين ؟"

"وجدته في الحلم."

"نعم ؟!"

بعدما قالها نهض مبتسما بسرعة، متوجها نحو حجرة النوم دون أن يدع لها فرصة للتعقيب. كثيرا ما يمازحها كهذا. يعلم أنها ستأتي مهرولة وراءه كما تفعل دائما؛ لتظل تستنقط منه المعلومة نقطة نقطة. و قد فعلت. لكنهما عندما جلسا على الفراش قالت:

"لا يا عزيزي. ليس هذه المرة."

قطبت و قالت بحزم:

"اسكب كل المعلومات دفعة واحدة."

"السمع و الطاعة."

أخذ نفسا عميقا و أخرجه وقال:

" سأعمل حلالا للمشاكل."

ارتفع مستوى الدهشة.

"لا تتعجبي. نعم. و بمقابل."

"اشرح يا آدم. لا داعي لتلك الألغاز!"

"سيقصدني الناس لأساعدهم في حل مشاكلهم، ثم أتقاضى أجري في نهاية الأمر."

"أهذه مهنة ؟!"

"ربما. ما المانع من التجربة؟ هل ينتظرني الديوان؟ أنا حر الآن."

نظرة الشك لم تفارق عينيها.

"ما الـ..."

أمسك بذراعها و مضي بها نحو المطبخ.

"لا أسئلة الآن. وقت الطعام. أنا جائع. جائع يا ناس."

ثم تركها في حيرة.

فكرت. هل يحاول تخفيف وقع الأمر بهذا المرح المصطنع؟ و هذه المهنة المصطنعة؟ إنها لم تسأله بعد عن ملابسات طرده لنفسه كما قالها.

مضى و هو يسأل نفسه بصوت مرتفع:

"أين تركتها ؟ أين ؟"

بعدها بنصف ساعة كان في الشرفة منكبا على جدارها الخارجي يثبت تلك اللوحة. لمحه صغير بالأسفل يلبس زيا مدرسيا.

" بابا! هل جئت مبكرا؟ هيييه."

ثم أردف متسائلا و هو يشير إلى الأعلى:

"ما هذا ؟"

ابتسم آدم و هو يشير له بالصعود.

"اطلع فتعرف."

و عندما انتهى وقف معجبا بعمله. كان ابنه قد صعد و حضر إلى الشرفة. أمسك بحاجزها و هو يسأل:

"أساعد في حل مشاكلكم بأجر معقول؟! ما هذه اللافتة يا أبي؟!"

"إنه عملي الجديد يا خالد. ما رأيك؟"

"عمل جديد في البيت؟! و المدرسة التي تذهب إليها؟"

"من البيت. هناك فرق يا جدع. تعال لنأكل أولا و ستعرف أنت و ماما كل شيء بالتفصيل. لقد اختمر الأمر في ذهني تماما."

كان خالد يأكل و هو يستمع لأبيه و كأنه يترافع كمحام أمام أمه، يشرح فكرته محاولا إقناعها بجدواها و هي ما زالت متشككة متعجبة، و انتهى الأمر على نفس الحالة التي بدأ عليها.

لكن آدم عندما فتح عينيه و وجد ليلى و هي توقظه من قيلولته و في صوتها حماس تعجب هو له و تقول بابتسامة:

" آدم آدم. لقد جاء عميلك الأول."

صمتت لحظة و قالت:

"بالأحرى عميلتك الأولى."

عندها ابتسم بشدة و النوم يتبخر من عينيه.

قال:

" أرأيتِ؟"

نهض في نشاط قائلا:

"الآن نبدأ العمل."

***

الفصل الرابع

عندما دخل حجرة الجلوس كان يتوقع أن يجد آنسة صغيرة في العشرينيات مثلا. لكنه رأى امرأة قدَّرها في الأربعين أو الخامسة و الأربعين. ملابسها رخيصة على جسد نحيف. سمراء البشرة و تجلس في استكانة وهي تنظر إلى الأرض. كانت تنشج و تمسك بمنديل تمرره على أنفها.

"أهلا و سهلا."

رفعت إليه عينين محمرتين.

و هبت واقفة و تكلفت ابتسامة بصعوبة و هي ترد علي تحيته:

"أهلا بك يا أستاذ أدهم."

أشار لها بالجلوس مبتسما:

"آدم .. آدم أحمد. تفضلي. تفضلي و اجلسي."

جلست في تردد و جلس قبالتها. دخلت ليلى بصينية الشاي و الماء، و خرجت وهي تنظر لآدم بإعجاب كأنها تقول له:

"حقيقة.. شاطر."

ظل الصمت مخيما و المرأة تنظر في الأرض. تنحنح آدم و هو يسأل:

"لم أتشرف بالاسم."

رفعت رأسها و هي تبتسم ابتسامة خفيفة حزينة. قالت:

"مديحة. مديحة حسين."

و صمتت ناظرة إلى الأرض مرة أخرى. كان آدم ينتظر أن تبدأ هي بالكلام. بدا له و هو ينظر إلى وجهها أن صراعا يدور بداخلها. كانت كلما همت بالكلام و فتحت فمها

أمسكت. توهم أنها خجلة من قول ما أتت لأجله. أراد أن ييسر الأمر عليها. قال:

"يمكنك أن تحكي لزوجتي."

إلا أنها رفعت رأسها و قالت في تصميم:

"لا لا. سأبدأ."

ثم نظرت نظرة جانبية و قالت كأنها تكلم نفسها:

"لن أضيع الفرصة."

تنهدت من القلب و أخذت تروي:

"الحقيقة يا أستاذ آدم، لقد كنت أسير بقربكم و قد تفجر مخي بهم عظيم و حيرة أعظم. لكنني عندما رأيت تلك اللافتة على شرفتك وجدت قدميّ مسحوبتين إلى هنا و كأنني وجدت الهواء بعد طول اختناق. أنا عاملة تصنيع أعمل في مصنع جبن. وحيدة. أعيش مع بعض زميلات العمل. منذ عدة سنوات.. سبع سنوات بالتحديد..كنت أعمل في مصنع آخر للجبن أيضا."

ضيقت عينيها و هي تسترجع ذكريات بدا أنها مؤلمة. أكملت:

"كان العمل يسير على منواله الرتيب. عندما قام يوما بزيارتنا."

سكتت و كأنها تمقت ذكر اسمه.

قال آدم يستحثها:

"نعم."

أكملت:

"شريك من أصحاب المصنع. الشريك الأكبر."

كأنها تريد أن تبصق. ثم تابعت و هي توشك أن تبدأ في البكاء:

"ذلك الرجل اسمه شاكر جاد. كانت أول مرة يتفقد فيها المصنع منذ أن عملت به. أخذوا يحثوننا على العمل و عدم الإهمال تحسبا لزيارته؛ فقد كان شديدا كما يقولون لكنه مبتسم دائما. لمحته و هو آت من بعيد. واضعا يدا في جيب و الأخرى يشير بها هنا أو

هناك. يدلي بتعليماته لمساعده الذي لا يفارقه إلا فيما ندر. اسمه نديم محمود."

هزت رأسها في أسف. أكملت:

"كانت زميلاتي يتكلمن عن ثرائه و وسامته و تتحسر كل منهن و هي تلعن حظها."

وضعت يدها على خدها، و أسندت كوعها على رجلها، ناظرة إلى الأرض مرة أخرى ثم قالت بسخرية مريرة:

"أنا التي فازت بالحظ كله."

رجعت مستندة إلى الخلف فجأة و أكملت:

"عندما رآني نسى ما حوله. نعم يمكنني أن أقولها بثقة. ما تراه الآن حضرتك هو نتيجة الهموم و الآلام. بسببه. لقد كان جمالي مضرب المثل. حتى مع ظروف العمل و العرق و التعب. وقف بجواري بالضبط تاركا فسحة صغيرة أتحرك فيها بينه و بين الآلة التي كنت أعمل عليها. الوغد.

ثابتا بابتسامة من يوقن أنه ينال ما يريده دائما. شعرت بأنني مخنوقة، لكن ماذا كان يمكن أن أفعل؟ أكل العيش. المهم أنه كان ينظر إليّ و أنا أعمل صامتا، و عندما هممت بالتوقف سأل: لماذا؟ أكملي أكملي.أنت جيدة. عاملة ماهرة. أليس كذلك؟ جاء المدير الغبي و أخذ يتزلف و يقول: طبعا طبعا. إنها تعمل بقوة مائة رجل حقا. فنظر إليه شاكر نظرة مستهينة ثم قال: أعطها مكافأة، و نظر إليّ بابتسامته قائلا: هكذا يعامل الأذكياء. هه؟ و مضى. لم أشعر حينها بالفرح للمكافأة. لست ساذجة إلى تلك الدرجة. فهمت الأمر جيدا. فهذه الطريقة لا تعني أمورا كثيرة. لكنني طردت الفكرة من ذهني و أخذت أستمع إلى تعليقات الغبطة و الحسد أيضا."

صمتت لتأخذ نفسها.

"في نفس الليلة أتى. ذلك المساعد نديم. كنت أسكن مع أعز صاحباتي في غرفة لا يعلم بحالها غير الله. بينما كنا نأكل عشاءنا المعتاد سمعنا طرقا على الباب. خفنا. لا أحد يأتي لزيارتنا أبدا. سألت صاحبتي عن الطارق فأجابها: افتحي. نديم مساعد شاكر بيه.

فتحت و الدهشة لم تفارقها. لكنني كنت مهيأة و إن لم أتوقع تلك السرعة."

عادت لتنظر إلى الأرض من جديد و تكمل:

"دخل وهو ينظر بقرف إلى محيط الغرفة، و له الحق. حاول أن يجلس في مكان ما لكن لم يكن يرى ما يصلح. قالت صديقتي بوضوح: من الأفضل لو كان مجيؤك في الصباح في المصنع. نحن نسكن بمفردنا. نظر إليها و ركز نظراته، ثم قال بهدوء: أنا أتمنى ذلك أكثر منك يا شاطرة. نظر لي و قال: سيارتي على الطريق الرئيسي.. بجوار تلك الساحة الشعبية. البسي و الحقي بي. إنه أمر هام. يتعلق بمكافأتك. هيا. و خرج متأففا. لم أدر ماذا أفعل. سألت صديقتي متشككة: ما هذا؟! شغل مجانين أم ماذا؟! لم أرد أن أخبرها بما أتوقعه. لكنها أيضا ليست ساذجة. خمنت. قالت بعزم: لا تذهبي. إنه يريدك جارية.

صدمتني الكلمة. و كأنها لا تعبر حقا عن مآلي إذا وافقت. قالت: سفلة. أما أنا فأخذت أقلب الأمر في ذهني. قلت لها: سأُطرد. قالت: نبحث عن عمل في مكان آخر.. هل ضاقت الأرض؟ لا تخسري نفسك. وددت لو سمعت كلامها. نهضت و أنا أرتدي ثيابي. قلت لها: سأذهب لأعلم ماذا يريد. فقط. أمسكت بذراعي و قالت: يا مجنونة. لا تبرري لنفسك. لكنني لبست الغشاوة على عقلي كما لبست ثيابي. سحبت يدي منها بالقوة و جريت مسرعة. كانت أعز صديقاتي و ما زالت. كانت تنظر إليّ من على الباب غاضبة مذهولة. لكنني مضيت و قلبي يضطرب.. مدفوعة بأمل مبهم عن إمكانية أن يكون عرضا نبيلا. عرضا شرعيا."

رفعت رأسها ضاحكة في سخرية و قالت:

"زواج يعني."

كان آدم مقطبا . مركزا.

هزت رأسها في أسف. أكملت:

"وجدت سيارة نديم كما أخبرني بالضبط. ركبت و انطلق بدون أن ينبس بكلمة. لم أعترض .لم أسأله. ظللت صامتة طوال الطريق. مرت حوالي الساعة حتى وصلنا. حي

متوسط الحال. نظر إليّ نديم قائلا: الأستاذ شاكر ينتظرك في شقته في الدور الرابع. بالطبع لن تقولي لأحد من كان على أي شيء. تفضلي. قال الكلمة الأخيرة ببعض الاحترام."

تنهدت و تابعت :

"و تفضلت في هواء الليل البارد. صعدت في المصعد وَجِلة أقلب المعطيات و النتائج في ذهني. و عندما فتحت باب المصعد في الدور الرابع طالعني وجهه يستقبلني على باب المصعد بابتسامته الواثقة. لابد أن نديم أخبره بالهاتف. اضطربت. فكرت في العدول تماما عن الأمر و العودة، لكنه أشار بيده في حركة مسرحية طالبا مني الدخول إلى الشقة قائلا: لا تخشي شيئا. لا أنوي أي شر. هل تعرفين كيف تتكلمين؟ فقط سنتكلم. فمضيت. كان يشيعني بنظراته.

عندما عبرت عتبة الباب كان ما بالداخل يخطف أنظاري. زخرفة و تحف و أثاث لم أحلم يوما بلمسه فما بالك بالجلوس عليه. دخل ورائي و وارب الباب. لم يغلقه. أشار لي بالجلوس. جلس قبالتي على أريكة واضعا ذراعيه بامتدادهما على مسندها و ركبته على الأخرى. ملابسه غالية الثمن حقا و أنيقة. ركز بصره عليّ و قال: أنت جميلة حقا يا مديحة. بل أجزم بأنك رقيقة المشاعر أيضا. انظري يا مديحة. لن ألف و أدور. أنت تعلمين لماذا أريدك. صمت لحظة وأردف: و كيف أريدك. قلت لنفسي: أخ. لا زواج إذن. إنها الأماني التي تقنع نفسك بها و أنت تعلم أنها سراب. أكمل حديثه: ستحيين حياة لم تكوني لتحلمي بها من قبل. ملابس، و طعام، و سيارة، إلى آخره .ستودعين حياة الشقاء إلى الأبد."

ضحكت مرة أخرى في سخرية و قالت:

"هيهات. المهم. قال و هو يغوص في الأريكة أكثر و أكثر: لقد أحببتك منذ وقعت عيناي عليكِ. ليس جمالك فقط. فيك شيء ما آخر. لكنني رجل حر و سأبقى كذلك. الخيار لك. لا أستطيع إجبارك على شيء. قلت لنفسي: أأنت هكذا لا تجبرني؟! و هل الحب الذي تتكلم عنه حقيقة؟ أخاف أن أشك. قطع علي تفكيري سائلا: هاه.. ما قولك؟

أجبته بهمس: أريد التفكير. هز رأسه. ربما توقع تسليما سريعا. قال: أنت حرة. الفرصة تأتي مرة واحدة. نهض من على الأريكة و اتجه إلى غرفة النوم و قال:

اسمعي. باب الشقة أمامك. إما أن تغلقيه و أنت خارجها، و ساعتها اطلبي من نديم بقية حسابك و لا تأتي إلى المصنع مرة أخرى. أو تغلقيه و أنت بالداخل. أنت مميزة بلا شك يا مديحة. لكنني أجيد البحث و من يوافقن كُثر. صدقيني أنت الرابحة."

صمتت و نم وجهها عن الحنق و الغيظ قالت:

"الوغد."

"و أغلقتِ الباب و أنت بالداخل."

قالها آدم.

أشارت برأسها و كفها ما معناه: أن نعم للأسف. قالت:

"نعم فعلت و الكلمة تتردد في ذهني. جارية."

زفرت و أكملت و صوتها تشوبه نغمة البكاء:

"و رجعت في سيارة نديم الذي لم تتغير فيه أي لمحة، كأنه أمر عادي يؤديه بلا أدنى اهتمام. رجعت و قد تغيرت حالتي جسمانيا و روحيا. رجعت صامتة. حتى عندما دخلت على صديقتي الحجرة و السؤال في عينيها الغاضبتين لم أنبس ببنت شفة. رقدت على سريري معطية ظهري إليها، ناظرة إلى الجدار، و لم أنم . أخذت أفكر إلى الصباح. و في الصباح أفضيت لها بما حدث.

ارتج عليها. سألتني بنغمة عتاب مرير: أهذا هو مجرد السؤال فقط عن مراده؟! لا حول و لا قوة إلا بالله! و عندما يأكلكِ لحما و يرميكِ عظما بعد قليل ماذا ستفعلين؟! لا حول و لا قوة إلا بالله!"

دمعت عيناها و هي تكمل:

"أرعبني قولها. اعترضت بشدة. حاولت طمأنة نفسي و أنا أقول: لا لا إنه يحبني. إنه يرى في شيئا مميزا. لا تنكري ذلك. استشاطت غضبا و هي ترد علي: أتصدقين الكلام

الذي ينثره يمينا و يسارا ؟! يقوله لمن يريد أن يرمي شباكه عليها! أأنت ساذجة أم ماذا؟! استيقظي من تلك الأوهام. عندها استشطت أنا أيضا غضبا و قلت: بل أنت الواهمة. انظري إلى معيشتك البائسة التي ستظلين فيها طوال حياتك، أما أنا فقد ودعتها للأبد. و خرجت لا ألوي على شيء وهي تناديني من خلفي في جزع. ألم أقل لك إنها أعز صديقاتي."

سكتت و هي تقول ببسمة:

"لقد تزوجت من موظف في شركة المياه و لها طفلان الآن"

على ذكر ذلك انتابتها نوبة بكاء حارة. أخذت تقول من بين دموعها:

"يا حبيبي يا بني."

حاول تهدئتها فلم يفلح. كانت تهتز بشدة و كأن زلزالا بداخلها. قام طالبا ليلى لتجلس معها ريثما يحضر عصير ليمون. عندما عاد كانت قد توقفت عن البكاء و هي تنشج، و ليلى بجوارها تحوط كتفيها و تربت على ذراعها.

قدم لها العصير فأخذته شاكرة و هي تعتذر.

ابنها. المشكلة تتكشف. جلس قبالتهما. عندما هدأت تماما قال:

"كلي آذان مصغية."

همت ليلى بالقيام لكن مديحة بادرت:

"لا بأس. يمكن لحضرتك البقاء. أنا ممتنة جدا."

فبقيت ليلى، و التفتت مديحة إلى آدم و أكملت متنهدة:

"سأكمل بالترتيب حتى أضعك يا أستاذ آدم في الصورة جيدا. من ساعتها لم أخرج من تلك الشقة قط إلا فيما ندر. ذهبت مرة إلى المصنع مسلمة على زميلاتي، مدعية أنني وجدت عملا أفضل في مصنع آخر كما أمرني شاكر بالضبط. و كنت له الجارية كما أراد و قبلت.

نعم كانت الحياة رغدة، و لم أكن أطمح لها في أحلامي. كما أنه لم يكن يعاملني بفظاظة قط. حنونا و مبتسما، لكنه حازم و قاطع في الأمور التي لا يقبل أن يناقشه فيها

أحد. عندما لمحت له مرة فقط تلميح بالزواج، كانت ثورة عارمة كادت تعصف بي و ترميني في الشارع. لم يكن عندي غيره. يتيمة الأبوين نشأت في ملجأ، و لا أعلم طريقا لأهلي. أقنعت نفسي أن الكثيرات يتمنين لو كن مكاني. و تأقلمت. كان ما يعكر صفوي تجاهلي التام لصديقتي رغما عني. لم يكن يسمح لي بالخروج إلا في أضيق الحدود. و لم يظهر معي قط."

كانت ليلى تستمع و هي تحاول تجميع الصورة و تركيبها كي تفهم الأمر. لكنها فهمت نصف المسألة.

و أكملت:

"و مضت الأسابيع و الشهور. حتى جاء اليوم الذي تبدل فيه مجرى حياتي. كان يضحك و يهذر و يخبرني عن أحوال العمل و الناس و هو يأكل الفاكهة على السرير، عندما أخبرته بحذر."

و غص حلقها فلم تتكلم، و زاد البريق في عينيها بما يشي بموجة جديدة من الدموع.

سألها آدم بحذر :

"بم؟"

قالت بحشرجة:

"بأنني حامل."

هكذا بانت الأمور.

أو هكذا ظن آدم.

قالت مسترسلة :

"توقفت يده في منتصف الطريق إلى فمه. نظر إلي بصمت و قد تلاشت ابتسامته. نحى الطبق جانبا. كان يبدو عليه أنه يحاول استيعاب ما أقول. كأنه كان غير مصدق. و عندما أدرك أخيرا سألني بصوت جمّد الدم في عروقي: لماذا و كيف؟! لم يسألني منذ متى، بل لماذا. لم أدر كيف أجيبه. أجبت: أنا لا أفهم في هذه الأمور. لقد أصبح القيء متكررا

فاتصلت بزميلة قديمة أعرفها من عمل سابق. أكدت لي أنني بدرجة كبيرة حامل. أنا لا أعلم. كان الصمت يلفنا و هو يمعن النظر إليّ في تفكير عميق. ربما يحسب حسابات لا أدري عنها شيئا.

سألني: هل أنت متأكدة؟ هززت رأسي قائلة: لا أعلم. لقد أخبرتك ما أخبرتني به. قال و هو يرجع برأسه على ظهر السرير ناظرا إلى السقف: نعم. أنت لا تعلمين. لابد أن نتأكد. ثم استدار راقدا و أعطاني ظهره و قال: غدا سنفعل. و لم يتكلم بعدها بكلمة."

ابتلعت ريقها و أكملت و بعض الأمل على وجهها:

"عندما عدنا من العيادة أُكّدَ الأمر. أنا حامل. لم أسعد بقدر سعادتي وقتها. الحياة تتفتح بداخلي. سأكون أما. و سنتزوج بكل تأكيد. لا مفر. هذه هي الحياة المنتظرة. هذا هو الأمان الكامل برباط قوي بيني و بينه. لقد عدت طائرة بين السحب. لكنه عاد و عدم التصديق يغمره. لم أر الحيرة عليه من قبل. و لم يعد معي كما كان قبلا. كنت أراه دائما يجلس و ينظر إلى الأفق في الشرفة. لم يعد يذهب كثيرا إلى عمله. و أنا بطني تكبر و يكبر معها شوقي و توجسي. إنه لا يرضى عن الحمل.. لكن لماذا لا يتكلم معي؟! يثور في وجهي؟! يعنفني؟! لا أفهم! عندما أكلمه لا يستجيب. و يرد أحيانا ردودا مبهمة تشي عن عقله المرهق بالتفكير. أخذت أحاول سبر غوره دون أن يفصح. فعلت كل ما بوسعي

و فشلت فشلا ذريعا. حتى جاء اليوم الذي جلست فيه تحت كرسيه أمسك بيده في رجاء و أنا أبكي. نظر إلي و سحب يده بعد مدة من البكاء و قال:

تريدين أن تعرفي ماذا أصابني. حسنا. لم أكن أتوقع ذلك مطلقا. أنا عقيم يا مديحة. أو هكذا كنت أظن نفسي. ثم تنهد و قال:

علاقات عديدة و مرت كالسحاب و لم تترك أثرا، حتى ظننت أنني لا أنجب. ثم نظر إليّ في سخرية و قال: و لكن البركة فيك أنت. لقد فعلتِ ما لم تسطع غيرك فعله. و ربت على بطني قائلا: ما لم أعمل حسابه قط. نظر إلى الأفق مرة أخرى و قال: و الآن ماذا أفعل؟ ماذا أفعل؟ قلت له: نعيش! نتمتع بنعمة الله! ما الذي يكدِّرك هكذا؟! كم من أحد يرغب

في دفع الملايين و يكون له ما سنجنيه بعد أشهر قلائل! ألم تكن ترغب في أطفال يملؤون حياتك بالفرح؟! هذا لا يحزن أبدا!"

سكتت ثم عادت تقول :

"و لم يتكلم. بقينا أياما على تلك الحال أحاول أن أصرفه عن حزنه بكل قوتي، و هو خامل لا يستجيب. حتى جاء يوم تحقق لي فيه المراد."

نفخت و بحُرقة قالت:

"كم كنت ساذجة!"

ثم عادت:

بدا أكثر قبولا. بل حتى إنه أصبح متفائلا بعض الشيء و أخذ يضحك أخيرا. و كلما اقترب موعد وضعي كان يزداد تفاؤلا و مرحا حتى ظننت أن الشيطان في رأسه قد أقلع عن الوسوسة. أخذ يهتم برعايتي و صحتي و بأكلي و شربي. نذهب إلى العيادة بانتظام لنطمئن على ابننا. عرفنا أنه ذكر، و تهلل وجهه بشرا و فرحت معه كما لم أفرح من قبل، و بقيت أعد الليالي حتى موعد الولادة. حتى حان الوقت. و جدته يقول لي إنني سألد في عيادة خاصة مجهزة. لم أتساءل. و كيف لي أن أفعل بعد كل التغير الذي حدث؟"

ثم أخذتها تنهيدة قوية و قالت و هي تهز رأسها أسفا:

"لم أكن أعلم بما يدبره. أغمضت عينيّ على أمل و هو بجواري يمسك بيدي يشد من أزري، و فتحتهما على كابوس.

بعد العملية بعد أن أفقت لم أر أحدا بجواري. حتى الحجرة كانت مظلمة. حاولت أن أقوم لكني كنت أشعر بدوار فظيع. ناديت. و لما لم يأت أحد صرخت. أتت ممرضة خمسينية تتساءل بقرف عن الصراخ. سألتها و أنا في حالة فزع: أين ابني حسام؟! أين زوجي؟! قالت لي: لا يوجد أحد. لقد أخذ الرجل الطفل و مضى. انقبض قلبي لحظتها. شككت و حزرت لماذا راق باله حينها. أهكذا فكر ؟!"

سكتت ثم قالت:

"كنت أراه زوجي و لو لم تربطني به علاقة شرعية."

عقب آدم:

"لكنها رؤية أحادية لم تكن لتصلح الخطأ الكبير الذي حدث. أليس كذلك؟"

أومأت برأسها في أسى و هي تقول:

"بلى. عندما فرطت في نفسي كان شيئا رهيبا. لكن ما فعله أشد و أفظع."

ترقرقت الدموع في عينيها و هو ترفعهما إليه سائلة باستنكار:

"يختطف ابني يا أستاذ آدم ؟!"

و انخرطت في البكاء.

اعتدل كل من آدم و ليلى و تلاقت نظراتهما. أخذت ليلى تواسيها بكل طاقتها.

تمخضت في المنديل الذي أعطتها ليلى إياه ثم أكملت:

"كانت الممرضة تلوي بوزها. قالت لي: هيا.. لن تبقي كثيرا هنا. من الأفضل لكِ أن تتعافي سريعا. لسنا فندقا. كنت أستمع إليها مذهولة لا أدري بم أجيب. تجمدت نظراتي و أمسك لساني، و لا أدري كيف قضيت الليلة. في الصباح وجدت في نفسي بعض القوة. ارتديت ملابسي. خرجت من الغرفة و لم أجد أحدا. فتحت باب الخروج و ركبت سيارة أجرة إلى شقتنا و أنا أود لو أطير و أحاول أن أكذب قلبي. صعدت مهرولة على السلم و دسست المفتاح في الباب. و قبل أن أفتح كان الباب قد فُتح و وجدت نديم واقفا ينظر لي في ثبات.

سألته: أين ابني؟

أجاب بصوت بارد: ادخلي.

دخلت باحثة بلهفة فلم أجد أحدا. سألته بهستيرية: أين ابني يا نديم؟ أين شاكر؟ قال و هو يجلس بهدوء واضعا قدمه على ركبته: اجلسي. صرخت: لن أجلس. قال بلا مبالاة: إذا كنت تريدين المعرفة فلتجلسي و لتتكلمي بهدوء. غير ذلك فلتخرجي. جلست مرغمة و أنا أسأله بصوت يأتي من قلبي المكلوم: أرجوك يا نديم أخبرني.. ماذا حدث؟ أين حسام؟

قال: انسيه يا مديحة. كأنك لم تلدي.
صرخت بقوة و قد تأكد الأمر تماما: كيف؟! ما الذي حدث لتخطفوا ابني؟! دلني على مكان شاكر و سأتفاهم معه. أرجوك.
لكنه قال بنفس الثبات: أنت تعلمين يا مديحة حقيقة وضعك. شاكر بيه لن يتورط أكثر من ذلك. لقد أعطاكِ ما لم تكن واحدة مثلك تحلم به و أجزل في العطاء . كما سأعطيكِ الآن مبلغا جيدا من المال. فلتذهبي و تواصلي حياتك كما كانت من قبل و لتنسي ما حدث بينكما. كأنه لم يكن.
صرخت: أمجنون أنت؟! أنسى من ؟! ابني؟! أتخرّف؟!
قال: بل أنت التي تخرفين. إنه ليس بابنك. لا يشرفه أن يكون ابنك. من الأفضل أن يربي بعيدا عنك. أن يكبر بدون أن يعرف بك.
قلت له: أنت تمزقني قِطَعا.
فقال: هذا ليس من شأني. أنت التي اخترت.
قلت: لم أختر أن أفقد فلذة كبدي.
رد ببرود و هو ينظر بعيدا: الظروف حكمت.
صرخت: لا.. لا يمكن أن يفعل ما يريد بي ثم يذهب بابني هكذا بعيدا عني. أرجوك يا نديم، أين هو الآن؟ أفي المصنع؟
قال: لا فائدة مما تفعلينه. الحقيقة أن شاكر بيه قد سافر مع ابنه. سافر إلى الخارج و لن يعود.
نزل عليّ الخبر كالصاعقة.
سألته غير مصدقة: سافر؟! أين؟!
قال: يبدو أنه لا فائدة منكِ. هيا اذهبي.
أعدت عليه بلهفة حارقة: أين يا نديم؟ أين؟
لكنه ظل صامتا و هو يشير برأسه أن لا فائدة.

نظرت إليه في صمت و أنا أكاد أنهار. كيف فعل شاكر بي ذلك؟! كيف أصبحت له مثل تلك القسوة؟!

نظرت نظرة رجاء صامتة إلى نديم لكنه رد عليها بمد يده بظرف النقود.

رجوته بانكسار: أخبرني عن مكانه يا نديم و سأفعل لك أي شيء تريده. أي شيء.

ابتسم متهكما. قال:

لا أحتاج منك شيئا و لا فائدة مما تطلبينه. من الأفضل أن تطوي تلك الصفحة كما قلت لكِ. هيا خذي.

قلت :سأكون جاريتك.

ضحك و هو ينظر لي بخبث. قال :لا يا سيدتي. لا.

صمت لحظة ثم قال: حتى مع جميلة مثلك.

ثم نهض و قال يريد إنهاء الأمر: هيا خذي و لا تتعبيني.. أنا مشغول.

رمقته باحتقار و بصقت على وجهه. ابتسم بسماجة و مسح البصقة في هدوء مادّا يده بالنقود.

تجاهلتُ يده و أنا أجر قدميّ بصعوبة. وجدتني أتجه نحو المصنع. أخبروني نفس الخبر. خرجت من هناك و أنا أحس أنني قد هرمت. أحسست بالضياع. أين أذهب؟ و ماذا أفعل؟ ذهبت إلى صديقتي العزيزة. استقبلتني استقبالا يليق بأخلاقها العالية. حكيت لها القصة كلها. أصرت أن نذهب إلى الشرطة. قلت لها: لا فائدة. ماذا يمكن أن يفعلوا. الوغد قد سافر.

و طويت قلبي على جراحي. و أخذت أمر على تلك الشقة و المصنع كل يوم، أسأل عليه. طوال سنوات ست لا أكلّ و لا أملّ. حتى إنهم كانوا ينهرونني من كثرة السؤال. قلبي كان معلقا بهما لعله يكون قد رجع. لم أيأس و لو ليوم."

تهلل وجهها فجأة فصنع فارقا كبيرا. تغير الحال إلى العكس تماما. قالت:

"حتى جاء هذا اليوم. اليوم الذي نحن فيه الآن. لقد رأيته يا أستاذ آدم! رأيته! رأيت

شاكر جادا!"

حركت رأسها فرحا و هو تحاول ابتلاع ريقها، و هي تقول بانتصار و نشوة كأنها تحكي حلما جميلا:

لقد عاد. لمحته في شرفة مكتبه في المصنع. لم أصدق نفسي. هل حسام معه؟ كدت أدخل المصنع لكنني توقفت فجأة. ماذا سيفعل بعد كل تلك السنين؟ هل يكون قد تغير؟ هل رق قلبه أم ما زال على قسوته؟ أأذهب و أحاول معه و أذكره بالأيام التي كانت بيننا فيرضخ و يريني ابني، أم يختفي مرة أخرى به؟ كنت في حيرة شديدة و في نشوة كبرى في نفس الوقت بامكانية رؤية حسام بعد كل تلك السنوات العجاف. لكنني أخذت الحذر و مضيت تاركة جزءا من روحي هناك. مضيت أسير في الشوارع أفكر و أفكر. يكاد عقلي يشل. حتى وصلت أسفل بيتكم يا أستاذ آدم. لا أدري لماذا رفعت رأسي و نظرت إلى تلك اللافتة. و لا كيف استقبلت فحواها في نفسي. أنت أملي يا أستاذ آدم. أرجوك. هل يمكنك أن ترجع لي ابني؟"

أخذ آدم نفسا عميقا و هو يفكر. بعد برهة قال:

"من الأفضل لو اتبعتِ نصيحة صديقتك. يجب إبلاغ الشرطة."

هتفت بسرعة كأن النار لسعتها:

"لا. الشرطة لا. سيلعب ألاعيبه معهم. إنه قادر يا أستاذ آدم. لن أرى ابني بذلك أبدا. أرجوك يا أستاذ آدم أنت الوحيد الذي يمكنه مساعدتي بعد الله."

أخذ يدير الأمر في عقله. نظر إلى ليلى نظرة صامتة فلم تجبه نظرتها بشيء كأنها تركت له القرار. نظرت إليه و كأنها تنتظر مع مديحة في تشوق. بعد دقيقة من النظر في السقف ابتسم و قال:

"على بركة الله."

ابتسمت مديحة بشدة و كذلك فعلت ليلى.

قالت مديحة و هي تميل إلى الأمام نحوه:

"أشكرك.. أشكرك بشدة يا أستاذ آدم. لا تتصور كم أزحت عن كاهلي. آآآ بالنسبة للأجر. أنا... الحقيقة..."

قال آدم على بلاطة و هو يبتسم:

"ليس معك نقود."

فابتسمت بخجل و هي تنظر إلى الأرض:

"الحقيقة أن مصنع الجبن الذي أعمل فيه الآن لم يكن يحتاج إلى عمالة، لكنني توسلت إلى صاحبه فقبل أن أعمل بأجر بالكاد يكفي أقل الضروريات."

زادت ابتسامة آدم و قال:

"لا بأس سأعمل مجانا من أجلك كأول عميلة لي. لا مشكلة."

"لا أعلم كيف أشكرك يا أستاذ آدم لقد رددت الروح إليّ. سأبذل كل جهدي لتدبير أجر مناسب.. أعدك."

قال آدم:

"لا تشغلي بالك."

أعطته عنوان مصنع شاكر، و تلك الشقة، و نادي جولف يمتلكه كان يذهب إليه كثيرا ثم في النهاية عنوانها.

نظر فيه ثم قال:

"أنت قريبة من هنا إذن. جيد."

أومأت مؤَمِّنة ثم نهضت مستأذنة. و هي تخرج من باب الشقة نظرت إلى آدم نظرة أمل مشجعة صامتة. ثم هبطت السلم.

***

جلس غارقا في المقعد و في التفكير على حد سواء.

كان ينظر إلى ليلى و هي تعد العشاء في المطبخ و ينظر إلى خالد جالسا إلى جهاز الحاسب.

أخذ يمتع عينيه بأسرته. و أخذ يمتع قلبه بذكر اجتماعهم للأكل و النزهات التي قاموا بها، و الآمال العريضة لكليهما في مستقبل أفضل لخالد. كل هذا في شقة بسيطة مؤجرة حتى الآن.

بلا سيارة، بلا إجازات للسفر إلى الخارج حتى الآن.

بلا أشياء كثيرة في الحقيقة.

لكنه يملك كل شيء في الحقيقة.

أخذ يتابع حركة ليلى لفترة فالتقت عيناه بعينيها أثناء التفاتة لها؛ فابتسمت و عادت تقطع الجزر.

فابتسم و قام و توجه نحوها.

مد يده نحو الطبق فضربتها في مرح فأمسك يدها و ظل قابضا عليها يستشعر دفئها.

تذكر مديحة.

قال:

" عزيزتي. أنا في نعمة كبيرة."

***

الفصل الخامس

لم يوافق آدم على قبول المهمة فقط تعاطفا مع أم أُخذ منها ولدها قسرا قبل أن تراه أصلا. ذلك قائم. لكنه كان متحمسا أيضا لمعرفة المنطق الذي فكر به ذلك الرجل شاكر جاد و مبرراته. لذلك فقد استيقظ نشيطا، مبكرا ساعة عن ميعاد استيقاظه الطبيعي، و خرج من المنزل بهدوء بينما كانت ليلى و خالد نائمين. أخذ تفاحة ليأكلها كإفطار خفيف.

عندما وصل إلى المصنع كانت الساعة الثامنة. على بوابته وجد حارس أمن شابّا. ابتسم مسلما:

"سلامو عليكو."

"و عليكم السلام. أي خدمة؟"

شجعه ود الرجل فسأله:

"هل هذا مصنع الأستاذ شاكر جاد؟"

"نعم."

"هل هو بالداخل؟"

"لم يصل بعد. لن يأتي اليوم قبل الظهر."

"لماذا ؟"

"يذهب عادة اليوم إلى نادي الجولف أولا. لماذا تريده ؟"

لم يتردد آدم:

"أعرف قريبة له. سمعت أنه عاد من السفر فجئت أسلم عليه."

قال الرجل:

"نعم لكنه لا يستقبل ضيوفا أثناء العمل."

"شكرا جزيلا."

"العفو."

عندما نزل من سيارة الأجرة و تقدم نحو مدخل نادي الجولف أحس بقشعريرة تنتابه و هو يبصر ما خلف الأسوار ذات القضبان الحديدية، حيث تقبع جنات خضراء تكاد تنطق لتسأل القادم:

"هل رأيت أجمل منا من قبل؟"

عالم جديد تماما لم يدخله من قبل. استوقفه الحارس و طلب منه بطاقة العضوية. فبادره آدم سائلا:

"الأستاذ شاكر جاد، أهو بالداخل ؟"

"نعم ماذا تريد منه؟"

"أريده شخصيا."

"بخصوص؟"

"أمر خاص."

"شاكر بيه يرفض مناقشة الأمور الخاصة هنا. يمكنك أن تطلب ميعادا من سكرتيره."

"نديم محمود ؟"

"عليك نور. أي خدمة أخرى؟"

تنحنح آدم و قال:

"لكن أنا أريده في أمر عاجل."

"لا تضيع وقتك يا أستاذ. قلت لك لا يستقبل أحدا هنا للأمور الشخصية. مع السلامة."

لم يشأ آدم أن يرجع بخفي حنين. فقط يريد أن يعرف شكل الرجل و يحدثه في أي موضوع. يطلب منه عملا مثلا ريثما يفكر في كيفية الوصول إلى مكنون صدره. لا بد من خطة محكمة حتى لا يشك شاكر فيه. لكن الحارس لا يريد حتى دخوله. هل يغافله؟ الرجل عجوز و ربما ينشغل في أي أمر يسمح لآدم بالتسلل دون أن يراه. وضع يده في

جيب سترته و أخذ يقول في نفسه:

"هذه الأساليب لم أجربها من قبل. فلأفعل."

أخرج التفاحة و مد يده بها إلى الرجل.

نظر الحارس العجوز إليها ثم رفع رأسه لآدم و قال:

"ما هذا؟"

ابتسم آدم و قال:

"تفاحة. كلها بالهناء و الشفاء ريثما تدخل و تخبره فإذا رفض مقابلتي فلا مشكلة."

تغير وجه الحارس غضبا. أخذ يتكلم بصوت عال:

"لا بد أنك شخص ليس لديك ما تفعله. الأستاذ شاكر ليس لديه وقت لهذا الهراء و إن لم تغرب عن وجهي فسأستدعي من يهين كرامتك و يطردك خارجا. أتفهم؟"

أمسك آدم برباط جأشه أمام ثورة الرجل. قبل أن يفتح فمه ليتكلم مهدئا سمع صوتا يقول:

"اتركه يا بيومي."

نظر آدم ناحية صاحب الصوت. وجد رجلا واضعا يدا في جيب و الأخرى يشير بها إلى الحارس. متأنق في ملابسه. وجهه مستطيل خال من التعابير. صوته مميز لا تنساه بسهولة. يمكنك أن تعرفه من بين مئة.

"يريد الدخول عنوة يا أستاذ نديم."

أخذ آدم نفسا قويا و هو يرى نديم لأول مرة ثم قال بهدوء:

"ليس صحيحا.. فقط أنا أريد الأستاذ شاكر في أمر هام."

ابتسم الرجل ابتسامة لحظية لم تدم أكثر من ثانية عاد بعدها وجهه جامدا و قال بصوته المميز و هو يستدير:

"اتبعني."

كان الذهول مرتسما على وجه العجوز عندما ابتسم آدم ببساطة و وضع التفاحة أمامه

قائلا:

"لا تغضب يا والدي . أحباب؟ أحباب."

و مضى خلف نديم.

***

سار الرجلان دون أن يتبادلا كلمة. كان آدم مأخوذا إلى حد ما بالمساحات الشاسعة التي يراها حوله. أول مرة يدخل ناديا مثل هذا. أخذه نديم إلى سيارة جولف و اتخذ مقعد السائق و قال له:

"اركب."

ظل آدم واقفا للحظات ينظر باستغراب إلى السيارة.

"هل ستفكر كثيرا قبل أن تركب؟"

ما أثار عجب آدم أكثر عندما سمع السؤال هو الهدوء الشديد و الرتابة في صوته. لا تهكم و لا تقريع. نغمة لا طعم لها كأن صاحبها إنسان آلي.

مع ذلك اتخذ آدم مكانه بجوار الرجل الذي قاد السيارة في صمت.

قال آدم:

"ناد جميل. لا بد أنه تكلف لإنشائه كثيرا."

لم يبد الرجل اتفاقا.

"كم تكلف يا ترى ؟"

رد بصوت محايد كوجهه:

"اسأل شاكر بيه عندما تقابله."

نظر آدم إليه نظرة جانبية سريعة. الرجل إما أنه متحفظ في كلامه أو أنه يظن أن الكلام يكلف نقودا. كان يريد سبر غوره فربما يفيده ذلك لكنه لا يتكلم إلا بحساب. صمت آدم

غارقا في تفكيره. أغمض عينيه ثم ما لبث أن فتحهما عندما قال له الرجل:

"انزل."

نظر آدم فرأى رجلا من ظهره ممسكا بمضرب جولف و هو يتهيأ لتسديد ضربة. كان ثابتا تماما كأنه تمثال و هو رافع للمضرب بالأعلى، ثم هوى بضربة خاطفة فجأة على الكرة. تابع آدم الكرة و هي تنطلق في آخر رحلة لها إلى الحفرة التي تبعد عنها مسافة متوسطة. لم يبد أن الرجل قد شعر بقدومه، أو ربما شعر لكن نتيجة لعبته أهم. راقب آدم في اهتمام أيضا الكرة و هي تكاد تصل إلى الحفرة و قد أبطأت سرعتها كثيرا.

"هه هه.. هيا."

قالها الرجل و هو يراقب كرته تتدحرج نحو الحفرة بصورة تستثير النفس في تكهن السقوط من عدمه. لكنها خيبت أمله في النهاية و توقفت على بعد سنتيمترات من الحفرة و أبت الهبوط.

ضرب الرجل بكفه على فخذه و هو يقول:

"كادت.. كادت."

رمى مضربه على الأرض ثم التفت نحو آدم.

تفحصه آدم جيدا. رجل أربعيني يصفف شعره إلى الخلف بعناية و إن كان سواده قد أخذت تلطخه شعرات بيضاء متناثرة.

وجه مستدير متورد ممتلئ صحة و عافية، و عينان حادتان تنظران في ثقة.

فتح يديه أمام آدم مرحبا بابتسامة عريضة:

"أهلا و سهلا أستاذ آدم."

لو أصابت صاعقة آدم من قبل لربما رأى أن تأثيرها أقل من تأثير هذه المفاجأة عليه.

تغيرت ملامح وجهه ذهولا، حتى قال له الرجل و هو يتجه نحوه مادا يده بالسلام :

هون عليك. هل لدغك ثعبان؟"

مد آدم يده في آلية فتسلمتها يد الرجل و ضغطت عليها في قوة.

سأله بصوت واثق كابتسامته:

"كيف حالها ؟"

لوح آدم بهزة من رأسه مستفهما دون أن يتكلم.

" كيف حالهاااااااا؟"

ماطا آخر الكلمة أعاد شاكر سؤاله كأنه يقول له: هيا يا رجل. كف عن التظاهر بالبراءة.

تنحنح آدم ليجد صوته إلا أن البحة لم تفارقه و هو يسأل:

"من ؟!"

"و من غيرها يا رجل؟ مديحة."

يريد آدم أن يفهم ما الذي يعنيه هذا. لكن الرجل لم يترك له فرصة لتدوير الأمر في ذهنه فوضع يده حول كتفه كصديق و هو يقول:

" تعال تعال يا صديقي. يجب تقديم واجب الضيافة أولا. نحن لسنا بخلاء. أليس كذلك يا نديم؟"

بصوته المحايد قال:

"و من يجرؤ أن يصفنا بذلك يا فندم ؟"

ابتسم شاكر أكثر و هو يقتاد آدم نحو مائدة وُضع عليها طعام و شراب مختلفة ألوانهما.

في الطريق إليها أخذ آدم يفكر. كيف عرف الرجل هويته فضلا عن لقائه بمديحة؟! أهي التي تكون قد أخبرته؟! مستحيل.

من إذن؟! كيف عرف؟! من هذا الرجل؟!

جلسا على مقعدين متجاورين بالقرب من المائدة.

" تفاح أم برتقال أم...؟ ما هذا يا نديم؟"

"خروب يا فندم."

"نعم. أم خروب؟ أم تفضل أن أطلب لك شيئا آخر؟ اطلب و لا تخجل."

"أي شيء سيكون جيدا."

"إذن اشرب برتقالا معي."

صب نديم كأسين و قدم أُولاهما إلى آدم و الأخرى إلى شاكر الذي جلس بأريحية في مقعده.

قال شاكر:

"لماذا تجلس متخشبا هكذا يا رجل ؟ استرح و استرخِ. استمتع بالشمس الرائعة و الخضرة النضرة. استنشق الهواء بقوة. هذا هواء نقي ليس كهواء الزحام الملوث بالعوادم. استمتع يا رجل باللحظة و لا تفلتها من يديك."

حاول آدم أن يسترخي فعلا. لكن فكره المتوتر انعكس على جسده ليجعله كالقوس المشدودة لا يتحرك.

"اشرب.. اشرب."

فعل آدم بآلية مثبتا نظره على عيني شاكر و الوجوم ما زال في ملامحه.

رشف شاكر رشفة كبيرة و قال و هو يبتسم ابتسامته الواثقة:

"أنت تريد أن تفهم أليس كذلك؟ الأمر بسيط يا سيدي."

تحفز آدم لسماع ما سيقوله الرجل، الذي نظر إلى السماء و هو يقول:

"آه يا مديحة. ما زلت تأملين!"

ثم أكمل يقول:

"رآها نديم يا صديقي من حيث لم تره و هي تتطلع إليّ في الشرفة بالأمس. و بحرفيته المعهودة دائما تبعها دون أن تشعر و رآها تدخل بيتك، و رأى اللافتة و تحري عنك يا صديقي فهو لا يضيع وقتا، حتى علم بمدرستك السابقة و خسارتك لعملك و و و... الاستنتاج سهل أليس كذلك؟"

أشار إليه بورقة أمامه قائلا:

"لقد أحضرها لي منذ قليل. اقرأها لو أحببت."

نظر آدم إليها فوجد معلومات مفصلة عنه لا تخطئ إحداها.

"نديم مساعد ممتاز. لا يضيع الوقت و يعلم ما أريده قبل أن أطلبه. هه؟ ما رأيك؟"

رد نديم قبل آدم:

"تلميذك يا فندم."

فضحك شاكر و قال:

"و متواضع أيضا. لك عندي زيادة يا نديم."

ابتسم نديم ابتسامته السريعة و هو ينظر لآدم الذي كان ينظر إليه أيضا من أثر حديث شاكر. ظل آدم صامتا.

"ها يا رجل. قل لي.. ما رأيك؟"

ابتلع آدم ريقه و هو ينظر إلى شاكر و قد استعاد بعض رباط جأشه بعدما فهم. وضع الكأس على المنضدة و أخذ نفسا قويا ليسيطر على نفسه ثم أخرجه، و قال بصوت أراده أن يكون ثابتا إلا أنه اعتراه بعض الاهتزاز:

"ماذا تريد يا أستاذ شاكر؟"

"بل ماذا تريد أنت يا رجل؟"

ابتلع آدم ريقه مرة أخرى و هو يقول:

"الأم تريد ابنها."

ضحك شاكر ضحكة استهانة و هو ينظر إلى نديم و الذي جاوبه بابتسامة ظلت على وجهه مدة أطول. مجاملة فقط لا طبع فيه.

" أمٌّ من؟!"

ثم اعتدل في مجلسه و قد اختفت ابتسامته قائلا:

"قل لها أن تطرد الخيال من رأسها."

بدأت بوادر الغضب تلوح في وجه آدم. قال و صوته بدأ يحتد:

" ألا ترى فداحة ما فعلته؟!"

"فداحة ؟! الفداحة هي ما تريدها الآن."

كوّر آدم قبضته رغما عنه.

"حرام عليك!"

"الحرام فعلناه أنا و هي معا و بإرادتها. انظر يا أستاذ آدم. لقد استقمت الآن . بل منذ أن وعى ابني على الحياة لأنني لا أريد له أن يعايره أحد بأفعال أبيه. فكيف تطلب مني الآن بكل سذاجة أن أخبره أن أمه... لا مؤاخذة؟!"

"ألست أنت الذي فعلت بها ذلك؟!"

"لا لا يا صديقي. ألم تخبرك أنه كان بموافقتها؟"

"بلى أخبرتني و لن ندخل في ذلك الآن. النتيجة التي آلت إليها علاقتكما لا تخصك وحدك. أنتما شريكان في الولد. هو ابنها مثل ما هو ابنك."

حرك رأسه معترضا و هو يتأتئ:

"تؤ تؤ تؤ. هو ابني أنا. أنا فقط. ليست أمه."

"بل هي كذلك بالفعل."

"أمه ماتت منذ ولادته. هذا ما يعرفه. و ما سيظل يعرفه طوال عمره."

ماذا كان يتوقع آدم غير ذلك؟ لكنه لم يستسلم.

"الحقيقة لا تموت."

"بل ماتت يا أستاذ آدم. لقد فوّتَّ جنازتها. أنا أعلم مصلحة ابني أكثر من أي شخص على وجه الأرض. و إن كانت هي تريد مصلحته فلتكف عما تفعله و لتنسه تماما . أفضل له و لها."

هم آدم أن يرد لكن هاتف شاكر رن فنظر فيه نظرة سريعة. إلا أنه تحول فورا ناحيته بعد أن عرف اسم المتصل.

لمح آدم بضعة حروف أثناء التقاط الرجل لهاتفه أمامه لكنها لم تكن كافية لتكون له اسما. أخذ شاكر الهاتف و قام يتكلم.

"يا مرحبا. كيف تسير الأمور؟"

كلما كان يمضي بعيدا لم يعد يتبين آدم كلامه.

بدا أن الرجل يهتم بمحدثه كثيرا. أخذ يضحك أحيانا و بدا أنه يحاول طمأنة من على الطرف الآخر أو إقناعه بشيء ما.

دقيقة مرت ثم مضى نحو المائدة عائدا و سمعه آدم يقول لمحدثه:

"كل شيء على ما يرام يا صديقي العزيز. لقد جئت لأستقر أخيرا. إنها مشكلة تافهة."

و أنهى الحديث ثم اختفى الحبور من على وجهه و هو ينظر إلى الهاتف نظرة غريبة.

ثم جلس على المقعد و هو يفكر بعمق حتى ظن آدم أنه نسى وجوده.

"نديم."

"تحت أمرك."

"اذهب إلى فؤاد في الشركة."

"هل يشك في شيء يا فندم؟"

"نعم . اذهب كأنه عمل معتاد و أت لي بالأخبار."

"تحت أمرك."

نظر شاكر إلى آدم و هو يقوم من مقعده قائلا:

"شرفت يا أستاذ آدم. العمل لا ينتظر."

هكذا؟! ببساطة يريد صرفه؟! لكنه سيحاول ثانية. قال:

"في دقيقة. إن من ضيعت حياتها النقية قبلا من أجلك لا يمكن أن يكون هذا جزائها. لقد وثقتْ فيك فكيف تدمر حياتها هكذا؟! خيانة فظيعة منك."

أمسك نديم بذراع آدم ساحبا إياه:

" شاكر بيه مشغول. تفضل معي."

"اتركه لحظة يا نديم! لا يجب أن يمر كلامه مرور الكرام. إذن أنا من خان؟! همم. لم تخبرك الشقية بكل التفاصيل إذن."

سكت ثم قال و هو يبتسم بتهكم:

"من خان هو من سرق نقودي. سرقتني من تصف نفسها بأم ابني يا أستاذ آدم! سرقت آلافا مؤلفة!"

سكت مرة أخرى و قال:

"اذهب و اسألها من الذي خان."

و أصاب كلامه عقل آدم بالشلل!

***

الفصل السادس

لم يجد زرا للجرس فطرق الباب بيده ثم وضعها كالأخرى في جيبي سترته. جاءه الصوت من الداخل يسأل:

"من؟"

"آدم أحمد."

فتحت مديحة الباب فورا و ووجها ينطق بالبشر و هي تقول:

"مرحبا.. مرحبا."

إلا أنها عندما رأت وجه آدم الجامد و هو يقف واضعا يديه في جيبيه ناظرا لها نظرة ثابتة، تلاشت ابتسامتها و هي تسأل في قلق:

"ما الأمر ؟!"

أخذ آدم نفسا عميقا ثم قال:

"من المفترض ألا تخفي عني شيئا. أليس كذلك ؟"

بان على وجهها مزيج الدهشة و الترقب. سألته:

"ما الأمر ؟!"

"كيف كنت أرد على الرجل عندما اتهمك في الآلاف المؤلفة كما قال؟!"

بدا و كأنها تحاول الفهم، ثم ما لبثت و كأنها قد فهمت دفعة واحدة. سألت بسرعة:

"هل أخبرته عني؟ هل كشفت له هويتك؟"

"هو الذي كشفها."

"كيف؟!"

"أجيبي عن سؤالي أولا."

"لقد أرجعتها إليه.. كاملة. ألم يقل لك ذلك أيضا؟!"

تغير وجه آدم و أخذ وضع المستفهم.

سألت في جزع:

"هل فشلت خطتك؟"

"لا لا. لا تقلقي، الأمر ما زال في أيدينا إن..."

لم يكمل. نظر حوله و هو واقف على الباب و وجد أن المكان غير مناسب لحوار فقال:

"لحظة. سأنتظرك في أول الزقاق على الشارع. ربما يمكننا الحديث ريثما نتمشى قليلا. جيد؟"

ردت بسرعة:

" نعم دقيقة واحدة و سألحق بك. دقيقة واحدة."

نزل آدم الدرجات القليلة التي صعدها و خرج من البيت ذي الثلاثة طوابق المبني بقرميد بلا طلاء، و الذي يبدو من حجمه أن ما بداخله عبارة عن غرف و ليست شققا.

مضي في الزقاق الضيق و قد غربت الشمس توا يتنسم الهواء الذي أتى بروائح طبيخ أحيانا و مجاري طافحة أحيانا أخرى.

منطقة فقيرة أكثر بيوتها متشابهة، كأنها نسخت من بعضها. تتفاوت في العلو. لا يزيد أعلاها عن الطوابق الثلاثة. لا أعمدة للإنارة.

طرق سمعه صوت قريب لامرأة تعنف أحدا. طفل ربما. ثم رأى أمامه نعلا تطير من باب مفتوح ليستقر على مبعدة منه.

سمع نفس الصوت يأمر الولد بأن يأتي بالنعل التي هي خسارة أن يقذف عليه أصلا كما سمعها.

لولا بقية من نور المغرب لمضى يتخبط في طريقه. تساءل في نفسه كيف يسير

ساكنوها فيها.. بكشافات؟!

مرق من أمامه طفلان يجري أحدهما وراء الآخر و هو يصيح. تعثر الذي في المؤخرة في قدم آدم ليسقط على وجهه و استغل الآخر الفرصة في الهرب ضاحكا و هو يقول:

"أحسن.. أحسن."

مال آدم على يد طفل السابعة و هو ينتشله من بين التراب و يقول له:

"ألا تحترس؟!"

كان رد الصغير و هو يُنَفِّض رداءه التحتي ذا الحَمَّالتين الذي لا يرتدي فوقه شيئا على آدم مثيرا لدهشته عندما قال:

"ألا تحترس أنت؟! تمشى في الطريق و كأنك تتبختر؟!"

أُخذ آدم من رد كهذا يأتي من طفل صغير من المفترض أنه في الصف الأول أو الثاني الابتدائي. لكنه راجع افتراضه عندما خطر في ذهنه أنه ربما لم يدخل المدرسة الطبيعية أصلا. لكنه بالتأكيد دخل مدرسة أخرى علمته كيف يتحدث هكذا.

ابتلع آدم الإهانة و ابتسم ثم قال و هو يضغط على الحروف:

"اعذرني. لم آت إلى هنا من قبل. ما اسمك؟"

رد الصغير بسؤال متحفزا:

"ماذا تريد من هنا؟"

كاد آدم يتجاهل سؤاله لكن خطر في ذهنه خاطر جعله يسأله:

"أتعرف الست مديحة التي تسكن في البيت الذي..."

و أدار رأسه و هو يشير بيده إلى الخلف . لم يمهله الصغير فقال:

"نعم أعرفها.. التي تعمل في مصنع الجبن. ماذا تريد منها؟"

"ما رأيك فيها؟ ست جيدة؟"

"هل ستتزوجها؟"

ابتسم آدم بشدة و قال:

"لا لكن..."

"إذن لا تسأل عنها."

عناد لم يملك آدم إزاءه إلا أن يضحك.

"تضحك مثل الأهبل؟ اضحك يا أهبل."

قالها و جرى أمام آدم ليختفي عن بصره في ثنية الزقاق الملتف، و الذي ظل واقفا ينظر إلى أثره بعد أن تلاشت ابتسامته.

مضى في طريقه إلى نهاية الزقاق و هو يقول في نفسه:

"مسكين يا بني."

وصل إلى الشارع الرئيسي و ما لبث حتى رأى مديحة تأتي مهرولة.

"تأخرت عليك؟"

"لا أبدا. هيا نتمشى قليلا."

كان الضوء يخفت تدريجيا و هما يسيران صامتين. كسرت الصمت و قد رفعت رأسها إليه قائلة:

"صدقني يا أستاذ آدم. لقد أعدتها إليه. أنا أصلا أخذتها من أجل حسام. من أجل ابني. لكنني أعدتها."

التفت إليها و سأل:

"ما الذي حدث؟"

بدأت تقول:

"عندما شعرت أنه غير راض عن حملي خفت. خفت على ابني. تصورته سيرمينا معا إلى قارعة الطريق. أو يرميني أولا حتى قبل أن ألد. لم أدر ماذا أفعل. كان كل همي حينها أن أؤمن لابني ما أستطيع تأمينه. حقه. أليس كذلك ؟"

"أكملي من فضلك."

مسحت عينها بكفها ثم أكملت بصوت متهدج:

"كنت أعلم أنه يأتي بأموال كثيرة أحيانا إلى شقتنا. كان يأمن لي و يترك المال في الشقة. لم يجده ناقصا مرة. ترددت كثيرا قبل أن أتخذ القرار. لكنني حسمت أمري في النهاية. ليلة رجع متأخرا و حسبني نائمة فتمدد بجواري لينام. لمحت حقيبته. لما تأكدت أنه قد نام بالفعل قمت من جواره بهدوء و أخذت الحقيبة. فتحتها على المائدة. كانت أموالا كثيرة. أخرجتها لأعدها. كنت أتلفت كثيرا خشية أن يصحو فجأة. مئتي ألف. ارتاح قلبي لحظيا. تخيلت مستقبلا جميلا لابني. كنت أراه ساعتها ابني فقط. الهروب بالمال هو ما تبقى لي."

ابتلعت ريقها لتكمل:

" ثم سمعت صوته يناديني. اضطرب قلبي بشدة. الخوف جعلني أعيد الأموال بسرعة لارتباكي. سقطت رزمة على مقعد المائدة. لم أشعر بنقصها. أغلقت الحقيبة بعجلة و وضعتها تحت المائدة. رأيته على باب حجرة الطعام. مبتسما. سعيدا.

تعجبت بشدة للتغير الذي طرأ عليه. يسألني عن استيقاظي. يسألني عن صحتي و صحة من في بطني. لأول مرة يفعلها!

تحيرت جدا! ما الذي طرأ؟! لكنني سعدت بعدها بشدة. أخيرا قبل الأمر الواقع! أحسست بالسعادة تغمرني وهو يتحدث عن الطفل و عن شوقه لرؤيته. بل و اخترنا ليلتنا اسمه معا. حسام. رقص قلبي فرحا.استغللت فرصة دخوله الحمام و أعدت الحقيبة مكانها. أعدتها و قد ارتاح قلبي أخيرا. بت ليلتها في حلم."

حركت رأسها أسفا قائلة:

"في اليوم التالي و بعد ذهابه اكتشفت الرزمة بينما كنت أنظف. أصابتني صاعقة. لم أدر ما أفعل. جلست أقلِّب الاحتمالات في ذهني. هل أخبره أم لا؟ هل أعترف؟ ماذا سيكون رد فعله؟ سيتفهم أم سيغضب؟ انتظرت و رأسي يدور بالأفكار السوداء. انتظرته.

دخل مرحا ضاحكا . اطمأننت قليلا. تعشينا و هو يلقي بقفشاته. انتظرت نومه و صبري يكاد ينفد و عيني على الحقيبة. ثم قمت من جواره و أخذتها. طمأنني ثقلها إلى حد ما. و عندما فتحتها و وجدت الأموال فرحت أكثر. عددتها. لا ينقصها إلا الرزمة. وضعتها بسرعة و الثقة قد عادت إليّ. أعدتها مكانها و استلقيت هانئة."

أخرجت نفَسها و هو تقول:

"لكن ها هو قد اكتشف أمرها."

كانا قد وصلا إلى نهاية الشارع فتوقف آدم و توقفت أيضا. تعالى صوت كروان يصيح طائرا فوقهم ليحط على شجرة بعيدة.

"هذا كل ما في الأمر."

قالتها مديحة و هي تنتظر تعقيبه و قد بدا مستغرقا في تفكيره.

سألها:

"كيف كنت ترين طبيعة علاقتك المستقبلية به بعد ولادتك؟ ألم يفاتحك في الزواج؟ ألم تفتحي أنت الموضوع؟"

"لم أكن أفكر بعد تغيره و قبوله الأمر في شيء. كما قلت، شعرت أنني في حلم لا أريد أن أفيق منه. سلمت له أمري كله. تركت له قيادتي إلى أي مكان يريد، كيف يريد، و متى يريد."

ثم اختنق صوتها:

"لم يخطر ببالي قط أنه سيفعل ما فعله. ليتني هربت بابني."

"لا فائدة من البكاء على الماضي. لقد انتهى. لكن الأمل لم ينته بعد."

رفعت رأسها في لهفة إليه و قالت:

"نعم نعم."

ثم بدا و كأنها تذكرت:

"هل رأيته؟ هل رأيت حسام؟"

"ليس بعد. لقد قابلت شاكر في ناديه للجولف."

"و أخذ يبهرك بما حولك."

ابتسم آدم قائلا:

" نعم. يبدو أنها طريقته."

"كيف كشفك؟"

"نديم رآك عند المصنع و تبعك."

عبست و بان الغضب على وجهها حتى شعر أنها ستسب نديم.

"ذلك المجرم يقف لي مثل اللقمة في الزَّور."

"لا بأس. لم نخسر الكثير. خسرنا عنصر المفاجأة فقط."

ثم سألها:

"هل تذكرين مكان العيادة التي ولدتِ فيها حسام؟"

قطَّبت جبهتها أكثر. بدا أنها تحاول أن تتذكر ثم بدت خيبة الأمل على وجهها.

"للأسف أعلم اسم المنطقة فقط لكن العنوان مستحيل. كانت أول مرة أذهب فيها إلى هناك. حتى إنني لم أكن أرى الطريق الذي تسير فيه عربة الأجرة التي أوقفتها بعد أن هبطت من العيادة فزعة وسط دموعي و قلقي."

"و لا أي مكان مميز هناك؟"

هزت رأسها بالنفي و قد بدأ الجزع يلم بها.

"كنت أريد الذهاب للحديث مع العاملين هناك. تلك الممرضة قد تكون ما زالت تعمل فيها. قد تكون لديهم معلومات عن حسام. على العموم لا بأس. يبدو أن لا مناص من العودة إلى شاكر جاد. أعطيني رقم هاتفك."

عندما أخبرته إياه و سجله قالت:

"ماذا قال لكَ أيضا عني؟ لا تصدقه يا أستاذ آدم."

"لم يقل شيئا. لا تقلقي."

وضع يده في جيبي سترته و قال بطريقة واثقة مطَمْئنة:
"سأعود إليه."
ارتسم على وجهها شبه ابتسامة آملة.

***

لم يكن منزله يبعد كثيرا. في طريق عودته ماشيا أخذ يقلب الأفكار في رأسه.
الآن الرجل يعرفه و يعرف مقصده. هل يمكنه تحريك قلبه؟ ربما إقناعه بالزواج من مديحة. هل يقبل؟ صعب. إذن حتى لو يسمح لها برؤيته. لكن شاكر لن يخاطر بالتأكيد. هو يرى أنه مسيطر تماما. يبدو أنه دبر أمره جيدا خاصة بعد ما عرف أن مديحة لم تفقد الأمل بعد كل تلك السنين. هل كان أصلا يظن أنها يمكن أن تنسى ابنها؟! لكن على كل حال لا أحد يستطيع إجباره على شيء. إذن فالشرطة هي الحل. لكن من يضمن أنه لن يهرب به مرة أخرى؟ هذا إذا كان الولد أصلا داخل البلد. من يدري؟ ربما جاء في أمر طارئ تاركا ابنه بالخارج و سيعود من حيث جاء.
الولد أصلا لا يعرف آدم شكله و هذه معضلة كبرى. لكنَّ اسمه مرتبط باسم أبيه. حسام شاكر جاد. يمكن الوصول إليه هكذا.
إذا كان قد كتبه باسمه.
ماذا؟! و هل يمكن ألا يفعل؟! ماذا سيقول له حين يكبر؟!
اسمك ليس على اسمي يا بني. لماذا يا أبي؟! ظروف!
كاد عقل آدم أن يطير من تدافع الأفكار و التفافها حول بعضها. وصل إلى منزله و عندما صعد و دخل وجد ليلى جالسة أمام الباب. ابتسم مسلما:
"سلامو عليكو"
"و عليكم السلام و رحمة الله و بركاته. لم التأخير؟"
زادت ابتسامته و هو يقبلها في رأسها.

"أخشيت عليّ أم ماذا ؟"

"لم نعتد عدم رجوعك في ميعادك المعتاد."

"لِمَ لم تتصلي بي؟"

هزت رأسها.

"يعني. لا أريدك أن تشعر أننا نحتجّ من أول يوم. لكن لو كنت تأخرت ربع ساعة زيـادة كنت سأتصل بك فورا."

تنهد و قال:

"مواعيد العمل الجديد. أي لا مواعيد. في كل وقت و في كل مكان هو عملي الآن."

ضحكت ضحكة خافتة و قالت:

"ستقول شعرا. ما الأخبار؟"

" أنا ميت من الجوووووع."

"همك على بطنك."

"لم آكل شيئا من الصبح يا ناس."

"اعتبر نفسك صائما. المغرب ليس ببعيد."

"يا سلام! العشاء ستؤذن الآن. إياك أن تقولي أنكم أكلتم من دوني!"

صمتت في مكر.

لحظة ثم قالت:

"لن أقول لك."

لكن من قال هو خالد قادما من حجرته و هو يفرك عينيه من أثر النوم:

"هيا يا أمي. أنا جائع . أخذت تقولين لي لا يمكن أن نأكل بدون أبي."

نظر آدم إليها و ابتسم ثم اتجه إليه و قال:

"جدع يا خالد. أأيقظناك؟ كيف تنام مبكرا هكذا؟"

ردت ليلى مبتسمة و هي تتجه نحو المطبخ:

"نعس فنام ساعة. طيب يا خالد. ضيعت المفاجأة."

قبله آدم قائلا:

"ابن أبيه."

ثم تذكر قضيته. هذا ما يراه شاكر في حسام. ابن أبيه. فقط.

أمعن النظر في خالد. يااااه. لو أُخذ خالد بعيدا عنه ماذا كان سيفعل؟! كيف كان سيعيش؟! مؤلم جدا ذلك الشعور.

"لماذا تنظر إلي هكذا يا أبي؟!"

ابتسم مجيبا:

"أحبك يا جدع. هيا تعال نساعد ماما."

التفوا حول المائدة. بعد الأكل ذهب خالد ليذاكر قليلا و جلس آدم و زوجته في الشرفة.

حكى لها ما حدث بالتفصيل.

"مسكينة تلك المرأة. لقد تحملت حملا كبيرا. ما العمل؟"

"قولي لي أنت."

"حتى إذا عرفنا شكل الولد ما الذي يمكن عمله بعد ذلك؟"

"فقط نعرفه أولا ثم نرى. ليس أمامي إلا أن أراقبه متخفيا لعله يوصلني إليه. مع أنها ستكون مهمة صعبة جدا. بالتأكيد سيأخذ حرصه جيدا الآن. هو يبدو واثقا لا يخشى شيئا. مسيطرا. لكنني أعتقد أنه من النوع الذي يحسب الأمور جيدا لذلك فلن يستهين بقدرتي."

أضاف و هو ينظر إلى الشارع:

"و لن أستهين بقوته."

***

الفصل السابع

ثلاثة أيام كاملة قضاها آدم يراقب شاكر جاد. من المصنع، إلى البيت، إلى بيوت أصدقائه إلى شركاته. إلى كل مكان يذهب إليه. لم يلمح معه مرة أي طفل. من المفترض من وجهة نظره أن حسام الآن يرتاد المدرسة. انتظر أمام البيت فترة الصباح كلها و لم يجد طفلا يخرج أو يدخل. فقط الرجل. في نهاية اليوم الثالث لم يجد أمامه إلا أن يواجهه مرة أخرى. انتظر أمام الفيلا حتى حل المساء و جاء الرجل في سيارته يقودها سائقه. قبل أن يخطو من باب الفيلا ناداه آدم:

"أستاذ شاكر."

التفت الرجل إليه ثم ابتسم ابتسامته الواثقة.قال:

"أهلا أهلا بالبطل الهمام. كيف حالك؟"

تجاهل آدم رنة السخرية و قال مادا يده:

"الحمد لله. كيف حالك أنت؟"

سلم عليه شاكر بآلية ثم سأله:

"ها؟ هل سألتها من الذي خان؟"

"إنه سوء فهم كبير."

انطلقت ضحكة شاكر و قال:

"أي سوء فهم يا رجل؟! تعال تعال يبدو أنك ستتعبني. لكني سأتحملك لآخر مرة."

وضع يده على كتفه كصديق حميم و أخذ يسير به في حديقة الفيلا. داعبت أنف آدم رائحة أزهار الياسمين العطرة. فيلا كبيرة فعلا. على أحدث طراز. تبدو و كأنها بنيت توا. إما أنها كذلك أو أن الرجل يجددها دوما.

كان آدم يشعر بالضيق من يد الرجل على كتفه. كأن شاكر يأخذه تحت جناحه كما

يقولون. لكن ليس أمامه خيار ليرفض ذلك الآن. لا بد أن يتحدث معه بأقصى درجات العقل و الود لعل و عسى. قال:

"لقد تحدثت معها عن موضوع النقود. لقد أخذتها فعلا."

"أرأيت؟"

ابتسم آدم و قال:

"لكنك لم تقل لي أنها أرجعتها.. كاملة."

ابتسم الرجل أيضا في استهانة و قال:

"المشكلة هي فعل السرقة نفسه لا المال يا صديقي. نقص الرزمة هو الذي فضحها. لم أشأ أن أخبرها بأنني اكتشفت ذلك. تركتها تظن أن الأمور سارت على ما يرام. لم تعد تهمني منذ ذلك الوقت. ابني فقط هو الذي كان يعنيني."

"أنت تظلمها. لقد كانت تظن أنك ستتخلى عنهما معا. أرادت تأمين حياة لحسام. فعلتها من أجله."

"لا لا انس هذا الكلام. كلام فارغ. لن تقول غير ذلك."

"أنت عاشرتها زمنا و أنت أدرى مني بصدقها و كذبها. إنها صادقة و أنت تعلم. هل تدرك كم العذاب الذي تعيشه ببعدها عن ولدها؟!"

خفض الرجل ذراعه من على كتف آدم و واجهه. نظر في عينيه بثبات:

"انظر يا أستاذ آدم.. الموضوع منته. قلت لك لا يشرفه أن تكون أمه. لن أتنازل عن أن يحيا ابني حياة مشرفة لا تشينه."

بان الضيق على وجه آدم. قال و قد أخذت لهجته تحتد:

"لم تخطئ هي وحدها. الخطأ مشترك بينكما و يجب أن تتحملا معا تبعاته."

"ليس خطأي. لم أعتقد أنني أنجب."

"و قد حدث و أنجبت. و أنت أخطأت. و هي أخطأت. لا تجعل ابنك يدفع الثمن."

"بالضبط. من أجل ذلك. من أجل ألا يدفع الثمن فعلتُ ما فعلت. لأحميه."

"كيف يتربى و يشب بدون أمه و هي موجودة على ظهر الأرض؟! كيف بالله عليك ؟! حرام."

"كما قلت لك. لقد استقمت. و من أجل ابني. سأتزوج عما قريب. ستكون زوجتي نعم الأم له. ستعوضه."

زفر آدم بقوة و حاول أن يفتح فمه و يقول شيئا لكن الرجل أسكته بحسم قائلا:

"لو سمحت. انتهي الأمر. شرفت."

أشار إلى حراس الفيلا إشارة ذات مغزى أي أخرجوه إن تلكأ. مضى تاركا آدم خلف ظهره و هو واقف بلا حيلة. ظل واقفا لحظات حتى جاءه أحدهم يقول بكل أدب و بكل حزم أيضا:

"تفضل."

نظر إليه آدم ثم طأطأ رأسه و هو يسير نحو البوابة عابس الوجه.

وقف أمام الفيلا متطلعا إليها لا يدري ما يفعل. ما لبث أن رن هاتفه. أخرجه ببطء. نظر إلى المتصل. رقم غريب.

"سلامو عليكو."

"و عليكم السلام. أتعرفني؟"

بالطبع يعرفه. ذلك الذي تركه منذ دقيقة. انتعش الأمل في قلبه للحظة و هو يبحث بعينيه عن وجهه في الفيلا.

"بالطبع يا أستاذ شاكر."

"فقط نسيت أن أخبرك بأمر واحد. لا تتعب نفسك بالبحث عنه. إنه بالخارج و سيظل بالخارج. سلام."

صوت إنهاء المكالمة الرتيب كان يدوى في أذن آدم كالطبول. بلل شفتيه الجافتين بلسانه. لقد قضى علي فكرة البحث. لو كان يقول الحقيقة. لكن بنسبة كبيرة قد تكون الحقيقة. يرجع شاكر ليقضي بعض المصالح ثم يعود مرة أخرى. منطقي. لا داعي

لاصطحاب ابنه.

وضع يديه في جيبي سترته و مضى سائرا يفكر. سيعود ليخبرها بالنتيجة. لا حل سوى إخبار الشرطة و ليتخذ القضاء مجراه.

طريق طويل يجب أن تسلكه مديحة لتحظى برؤية ابنها. لا مفر.

كان يشعر بالضيق الشديد عندما رن هاتفه مرة أخرى. أخرجه و نظر إليه. هذه المرة رقم غير ظاهر. رقم خاص.

تعجب بشدة. لم يحدث أن اتصل به رقم خاص من قبل! أخذ الهاتف يرن دون أن يجيب. من هذا؟! لكنه ليعرف عليه أن يجيب. و قد فعل. بدون سلام سأل متوجسا:

"من؟"

أتاه صوت و كأنه يأتي من بعيد. صوت مكتوم.

"أستاذ آدم؟"

زاده الصوت توجسا.

"نعم. من معي؟!"

ضحك الرجل ضحكة خافتة. قال:

"لن يهمك أن تعرف اسمي. لكن سيهمك معرفة ما عندي."

"من معي؟!"

"لا تضيع وقتك. اسمعني. هل تريد معرفة مكانه؟"

"مكان من؟!"

ضحك الرجل مرة أخرى ثم قال:

"و من غيره؟ حسام."

صدمه الاسم. لم يدر ما يقول. صمت للحظات.

" آلو. هل أنت معي؟"

"قلت من؟!"

ضحك الرجل مرة ثالثة و قال:

"تمالك نفسك. نعم هو بالضبط. حسام شاكر جاد."

"كيف عرفت أنني أبحث عنه؟!"

"لا أعلم لماذا تسأل أسئلة لا قيمة لها. السؤال المفترض منك هو: أين هو ؟"

"من فضلك قل لي من أنت."

"ما الذي يفيدك؟ هل تبحث عني أنا؟! سأخبرك بكل بساطة عن مكان الولد و عليك أنت باقي المهمة. هل في هذا ضرر ؟"

لم يدر آدم بم يجيبه. رجل غامض يتصل به من رقم غامض ليخبره بأنه يعلم ما يريده و سيخبره به. أليس له الحق في التعجب؟!

"تفكر كثيرا. هل تريد أن تعرف مكانه أم لا؟"

و كيف لا يريد؟! أن تأتيه تلك المعلومة بسهولة شرب كوب من ماء لم يكن يحلم به إطلاقا بعد ما حدث. لكن عقله لا يريد الانصياع ببساطة. لا يمكن.

أم تكون تلك لعبة يلعبها شاكر جاد عليه؟

لم تطل حيرته فقد جاء صوت الرجل إلى أذنه:

"أستاذ آدم. هل تنام مني؟"

"ماذا ؟!"

"هل صوتي يدفعك للنوم؟ مالك لا تجيب؟! هل تريد أن تعرف مكانه؟ نعم أم لا؟"

"نعم نعم."

ابتلع ريقه و أكد:

"بالطبع."

أحس آدم بتنهيدة ارتياح خفيفة للرجل و كأنه قد أتم ما عليه أخيرا.

أردف آدم كلمته بسؤال :

"لكن أليس حسام بالخارج؟"

أطلق الرجل على الطرف الآخر ضحكة استهانة قصيرة. قال:
"اسمعني جيدا."

***

لم يستطع آدم النوم بسهولة تلك الليلة .ما زال و هو على سريره لا ينقطع تفكيره في تلك المحادثة الغريبة. أخذ يسترجعها في ذهنه جملة جملة.

كان الرجل يقول:

"حسام عاد مع أبيه من السفر."

سكت لحظة ثم أكمل:

"لقد أدخله مدرسةً داخلية."

انتبه آدم بقوة.

"سأعطيك العنوان و الباقي عليك."

ألقى إليه بالعنوان ثم قال بهدوء:

"طبعا أنت تفهم أن من الأفضل ألا تذكر كيف عرفت ذلك. على العموم أنا لن أخسر شيئا. بل أنت من سيخسر إذا لم تحتفظ بسري هذا لنفسك. إذا عُرف فلن تستطيع الوصول إلى حسام أبدا. و سأذكرك بهذا. سلامو عليكو."

عجيب! ما هذا الذي يحدث؟! لماذا يخفي الرجل هويته؟! و ما مصلحته فيما فعله؟!

لم يكن أمام آدم معلومات كافية تمكنه من التخمين. فكر في أنه ربما يجب عليه أن يستفسر من مديحة أكثر عن حياة شاكر جاد. عن المقربين منه.

صباحا سيعلم على وجه اليقين صدق ما أخبره به المجهول. يمكنه أن يشكره و تشكره مديحة بعد ذلك على تلك الخدمة الجليلة. لكن هل سيتصل به مرة أخرى؟

ظلت الأفكار تتدافع في رأسه بلا توقف حتى غفل قبل الفجر بساعتين، و أخذت أحلام

تبدأ و تنتهي، و يستيقظ و يغرق مرة أخرى في نوم متقطع.

عندما خرج في الثامنة من بيته كانت صورة واحدة هي التي يتذكرها من أحلامه. صورة طفل وحيد في فصل في مدرسة.

وصل في التاسعة و النصف. مدرسة جميلة حقا. لكن الأجمل هو التعليم بداخلها لو كان جيدا. هكذا فكر. تذكر مدرسته التي فارقها منذ أيام. قال في نفسه:

"يبدو أن المدارس لا تريد أن تتركني. تشدني إليها كمغناطيس."

دخل المدرسة بلا عائق. أخذ يسير متفقدا مبانيها. الحقيقة أن تصميمها جيد جدا و ألوانها ما زالت في كامل بهائها.

سمع صوت أطفال من خلفه يتصايحون. صوتهم يقترب و يبدو أنهم يجرون نحوه. ثم اصطدم شيء ما بقدمه من الخلف و انزلق تحتها حتى كاد أن يسقط بسببه متعثرا. لكنه نجح أن يحافظ على توازنه و الشيء أسفل قدمه.

نظر نحو الكرة بالأسفل ثم التفت إلى القادمين نحوه.

أربعة أطفال يتسابقون على الوصول إليه. أطفال في مثل عمر حسام.

أحدهم قال موبخا بعد أن توقفوا أمامه:

"انظر يا علي! كنت ستسقط عمو."

رد من يبدو أنه علي:

"ما لي أنا؟! ألست أنت الذي دحرجت الكرة على الأرض؟ قلت لك أمسكها بيديك."

"أنت الذي ضربتها بقدمك من أمامي لتصدم العم. أليس كذلك؟"

"لا لا."

غضب الصغير معترضا على نفي عليّ و قال ناظرا إلى آدم:

"لا تصدقه يا عمو! اسألهما. هو الذي فعلها."

ابتسم آدم و هو ينقل بصره بين الأربعة.

قال علي:

"هو يا عمو. اضربه هو. أُشْكُه للمديرة. اسمه حسن. حسن السيد شريف."

الحاء و السين جعلتا آدم متحفزا، و إن كان نطقهما مختلفا عنهما في كلمة حسام. لكنه لا يتوقع ضربة حظ كهذه من أول دقائق يخطو فيها بالداخل. تخيلَ أن يقول الطفل:

"اسمه حسام. حسام شاكر جاد."

فينتهي الأمر ببساطة كما اتصل به المجهول ليخبره عن مكانه ببساطة. لكن لا تسير الأمور هكذا دائما.

قال آدم و ابتسامته ما زالت على وجهه:

"لن أضرب أحدا. لا بأس. حدث خير."

ثم دحرج الكرة نحو حسن و قال لعلي و هو ينظر في وجهه متفرسا:

" لا أعلم لماذا لا أصدقك."

"و الله.. و الله هو."

الآخران صامتان لا يريدان أن ينحازا. لكن واضح لعينيه جدا أن علي يشير إليهما ليتكلما بما يريد و هما يرفضان.

"لا تحلف على شيء هين يا بني. و قلت لا بأس انتهى الأمر. أين تذهبون؟"

رد حسن بحماس و قد أخذ الكرة في حضنه:

"سنلعب مباراة يا عمو في حصة الرياضة. هل تلعب معنا؟"

"لا ينفع."

"لماذا؟"

"لأنني كبير و أنتم صغار."

أمسك على بيده و قال:

"نعم. أنت كبير و سأضمك لفريقي. سنكسبهم."

غضب حسن مرة أخرى و قال:

"ماذا؟! تريد أن تأخذ عمو في فريقك؟! لا بل سيأتي معنا نحن."

و ألقى الكرة من يده و أمسك بيد آدم الأخرى.

"تعال يا عمو معي."

" لا تعال معي أنا."

أخذا يشدان يديه كل في اتجاه و صوتاهما يعلوان بالإقناع لآدم، و يوردان الحجج و يتهم كل منهما الآخر حتى شعر آدم أنه يكاد يقسم نفسه قسمين و يعطي كل واحد قسما لتنتهي هذه الفوضى.

لكن ما أوقفها هو صوت حاد من خلفهم:

"ماذا يحدث هنا؟!"

سكت الأطفال فورا لدى سماعه.

التفت آدم فرأى امرأة أربعينية. شفتاها مزمومتان و هي تنقل بصرها بينه و بينهم في تساؤل. الصمت التام و نظرة الذنب في عيون الصغار تشي بأن لها سلطة كبيرة. كانت تمسك بدفتر في يد و الأخرى تشير بها نحوهم في تساؤل.

وجهها هادئ في أصله لكن تقطيبتها و نظرة الحزم غيراه نوعا ما.

"لا شيء ذا بال. الأطفال يريدونني أن ألعب معهم."

نظرت إليهم و سألت:

"ماذا عندكم؟"

رد حسن:

"حصة رياضة يا أبلة."

"لماذا هذا الصراخ إذن؟ ألا تعلمون أن الفصول تعمل و تحتاج إلى الهدوء؟"

رد حسن:

"آسفين يا أبلة."

"هيا اذهبوا إلى حصتكم."

أخذ حسن الكرة من على الأرض و مضى يلحق بالآخرين الذين مضوا قبله سريعا.

ناداه آدم قبل أن يختفي عن بصره:

"حسن."

التفت الصغير.

قال آدم:

"خذ علي في فريقك."

رد الصغير بعد برهة:

"حاضر."

و مضي يجري ليلحق بهم.

التفت آدم إليها.

"من حضرتك؟"

"آدم أحمد. و حضرتك؟"

"مديرة هذه المدرسة. هل من مساعدة يمكنني تقديمها؟"

قالتها و قد لانت ملامحها.

جيد جدا. ليس عليه إلا أن يسألها.

"نعم. إاا... إنني أبحث عن طالب هنا في المدرسة."

"من؟ و لماذا؟"

"من" سهلة لكن "لماذا" هي المشكلة. لم يكن يدري هل يخبرها بالموضوع لعلها تتفهم أم يخفيه عنها. الحقيقة لو أن أحدا أخبره هو بذلك الأمر العجيب لتردد كثيرا قبل التجاوب معه. بدأ بالأسهل.

"اسمه حسام شاكر جاد."

لكن فكرة الأسهل هذه تبخرت من رأسه تماما عندما رأى وجهها بعد سماعها للاسم.

و كأنه ألقى عليها قنبلة!

اتسع جفنا عينيها بشدة و فغرت فمها و هي تنظر إليه كأنه ارتكب فعلا مشينا.

كل هذا من ذكر اسم فقط؟!

أخذ عقله يضرب أخماسا في أسداس و هو يسألها:

"ما الأمر؟! هل هناك خطأ ما؟!"

تمكنت من ابتلاع ريقها و هي تطرف بسرعة. كان يشعر بأن القدرة على التنفس قد عادت إليها أخيرا.

قالت بصوت فيه غصة:

"لا يوجد عندنا طالب بهذا الاسم. تفضل من فضلك."

أرادت أن تكون حازمة لا تسمح له بمناقشتها لكنها فشلت. ظل آدم ناظرا إليها في تساؤل.

لكنها استعادت جزءا كبيرا من رباط جأشها فقالت بصوت أعلى:

"هل فهمتني حضرتك؟"

لم يكن آدم يجد مبررا لتلك العدائية المفاجئة. فتح فمه ليتكلم لكنها صرخت فيه بقوة و هي تشير إلى باب المدرسة:

"تفضل!"

استرعت صرختها انتباه البعض. أتى الحارس مهرولا من البوابة و هو يسأل:

"ما الأمر يا أستاذة شهيرة؟"

أشارت إلى آدم قائلة:

"أخرجه حالا!"

نظر الحارس إليه في تساؤل لكنها صرخت فيه:

"أخرجه! إياك أن يدخل إلى هنا مرة أخرى."

امتثل الحارس لأمرها و هو يقول لآدم ممسكا بذراعه:

"تفضل يا أستاذ."

لم يجد آدم ما يقوله. ظل ناظرا إليها في عجب و هي بادلته نظرته بنظرة غضب شديدة

لا يدري كيف قدرت عليها.

أخذ الحارس يجره قائلا:

"هيا يا أستاذ. لا تقف كثيرا."

انصاع آدم لجذبه و مضى معه و رأسه تنظر ناحيتها، ثم أدارها و نظر إلى الأرض في وجوم.

عندما اقتربا من الباب سأله الحارس:

"ماذا فعلت لها؟! لم نرها غاضبة هكذا من قبل!"

رد آدم:

"فقط سألتها عن طالب ثم تغيرت إلى النقيض تماما عندما سمعت اسمه. لا أعتقد أن حسام شاكر جاد يصيب بالذهول بهذا الشكل! أم أنا مخطئ؟"

قلب الحارس كفه و لوى شفته بمعنى: لا أدري.

عندما مضى آدم من باب المدرسة و أخذ يبتعد كان يصل إلى مسامعه صوتها و هي تؤكد بقوة على الحارس:

"إياك إياك أن أراه بالداخل مرة أخرى! أتفهم؟!"

كان آدم يسير و عقله يحاول أن يجد فهما لما حدث. كان تأثير الموقف عليه مربكا إلى حد كبير فلم يستطع التفكير جيدا.

ما الأمر؟!

أخذ يتمشى لدقائق يحاول أن يهدأ و يصفي ذهنه.

هل كذب عليه المجهول الذي اتصل به؟

و عاد إلى الشك.

من هو أصلا؟! و لماذا يرغب في جعل هويته سرية ؟!

ثم ما أصاب تلك المديرة؟! أي صاعقة ضربتها عندما ذكر اسم الطفل؟!

اسم الطفل.

توقف فجأة و قد بدأت بوادر التفسير تغزو عقله.
كلم نفسه بصوت عال:
"هل يمكن؟!"

***

الفصل الثامن

واقفا تحت تلك الشجرة أخذ يتطلع إلى السور أمامه بالضبط.

في ظلمة الليل التي تسود الآن يمكنه العمل بصورة أفضل. أخذ آدم يقيم ارتفاع السور.

لم يفعلها مرة واحدة في حياته من قبل فهل يفعلها الآن؟

أخذ يفكر في نفسه. أحداث جديدة تماما على طريقة حياتك مرت بك يا آدم في الأيام القليلة الماضية. لكن ما أنت مقدم عليه الآن هو تخطي لكل الحدود تماما. إذا قبض عليك بالداخل فأنت تعرض نفسك إلى مصير خطير. ستصبح متهما باقتحام مدرسة! ستصبح لديهم لصا أو ما هو أسوأ من تلك التهمة بكثير. لكن لا بد أن أعرف. لا سبيل آخر.

أخذ الجانب المضاد من عقله يرد عليه. تنحى عن الأمر برمته يا رجل. ما هذا الذي تفعله؟! اترك الموضوع للشرطة. هم لديهم سلطة القانون و أنت لا سلطة لك فيما تفعله.

لكن الجانب الأول في رأسه يتكلم أيضا. لا وقت لهذا. لقد ضيعت النهار بالفعل و يجب عليك التحرك فورا قبل أن يتحرك الآخر. هيا لا تضيع وقتك.

رفع آدم ذراعيه فكانت أصابعه تلامس بالكاد حافة السور. اختبار صعب لم يجربه من قبل. شب بقدميه و وضع كفيه على حافة السور و أخذ يسحب نفسه فصعد سنتيمترات قليلة، ثم ترك نفسه يرجع إلى الأرض على قدميه.

وبخ نفسه في رأسه. لم تمارس الرياضة كثيرا و لا حتى قليلا يا آدم. يبدو أن عضلاتك بقوة عضلات طفل رضيع.

استغل الجانب الرافض هذا الفشل الأولي و قال:

"لست لها يا رجل. اعتذر إلى مديحة. أنت فعلت ما بوسعك. يكفي."

لكنه لا يستسلم بسهولة. نظر حوله فوجد حجرا. مضى و حمله. كان ثقيلا بالفعل

لكنه ليس بالثقل الذي يُعجز.

وضعه تحت السور بالضبط و وقف عليه محاولا الحفاظ على توازنه. وضع كفيه مرة أخرى فتمكنتا من الوصول إلى الحافة الداخلية للسور. جيد. و الآن. هيلاهوووب. قفز و أخذت قدماه وضعا متوسطا على جدار السور.

أخذ يستنفر عضلاته و عروقه. قدماه ترتفعان رويدا و هو يحاول استخدامها كمخالب تلتصق بالسور. احمر وجهه و هو يقاوم بشدة و يحاول رفع جسده بكل ما أوتي من قوة.

كتم صياحه بأقصى ما يستطيع.

يحاول و يحاول. مجهود رهيب يبذله. أحس و كأنه عضلاته بدأت تتخلى عنه لكنه صبر، و أخذ يدفع بقدميه على الجدار و يشد بيديه بقوة و هو يُخرج نَفَسه بقوة حينا و يكتمه حينا آخر. هيا هيا يا آدم. بقي ثابتا للحظات كأنه تجمد على وضعه ذلك. كاد يصيبه اليأس فيترك نفسه ليرجع خارجا، لكنه تحامل عليها و شد بأقصى ما يمكنه.

لحظة فاصلة استطاع فيها أن يقذف بنفسه أخيرا على سطح السور، لكنه لم يحفظ توازنه جيدا فتجاوزه مرغما ساقطا من الأعلى...

بالداخل.

أخذ يلهث و هو مكوم على الأرض. كان كل ما يهمه ألا يكون قد سمع أحدهم صوت سقوطه. الأرض رمال. جيد. نظر حوله في قلق مستمعا لصوت أي إنسان. هل يستخدمون الكلاب يا ترى للحراسة؟ أصابه ذلك الخاطر بالفزع الشديد. لكنه أخذ يحاول السيطرة على نفسه ليحتفظ بعقله قادرا على التفكير السليم. من حسن حظه أنه لم يكسر شيئا في جسده. لم يجد في نفسه قوة للنهوض.

بقي رابضا على الأرض دقيقتين أخذ فيهما تنفسه ينتظم و يكتشف ما حوله. الضوء الذي ينير الفناء ليس بالقوي. لكن القمر بدر. عبور ذلك الفناء المكشوف يتطلب مجازفة كبيرة. لكنه لن يتراجع الآن. لقد بدأ و عليه أن يكمل.

أخذ يختبر يديه و رجليه؛ فنهض ببطء. ثم قام أخيرا و جسده يئن. سار ببطء و هو ينظر

إلى المباني السوداء البعيدة في ترقب.

الهدوء يعم المكان. مضى بحذر. لكن المشي ليس الحل الأمثل لاجتياز تلك المسافة. لا بد له أن يركض بسرعة ليختبئ في ظلال المباني.

بدأ الركض. و كلما قطع مسافة أكبر خشى من رؤية أحدهم له أكثر و أكثر. زاد من سرعته. الآن هو يقترب من الغطاء.

هيا هيا يا آدم. تخيل أنك في سباق للعدو. تخيل أنك بطل العدو الأول. أسرع فأسرع . الناس تصفق لك. سيداتي و سادتي ها هو البطل آدم يكاد يقترب من خط النهاية تاركا خلفه باقي المتسابقين بمسافة كبيرة! الرجل سيكسر الرقم القياسي! يااااه! هيا يا بطل. أنت صاروخ. هيا أمتار قليلة و ثوان معدودة. يجب ألا يمر أكثر من ذلك. الآن.. الآن. اعبر خط النهاية.

واااا نعم نعم حققها البطل! كسر الرقم القياسي العالمي. يا سلاااام. أجزاء من الثانية هي الفارق. جدع يا آدم. بطل حقيقي.

التصفيق ليس له مثيل. يجب عليك تحية جمهورك الحبيب. ألا و هو الفضاء الساكن. استند أخيرا إلى جدار المبني و أخذ يعب الهواء بقوة. أخذ يحاول ابتلاع ريقه الجاف. ظل على حاله دقيقة و لم يستمر أكثر. قرر أن يتحرك بسرعة.

لكن إلى أين بالضبط؟

نظر إلى المباني من حوله. ثلاثة مباني. من المفترض أنها دراسة و مبيت و إدارة. عليه أن يجد مبنى المبيت.

ترى هل يكتفون بالحارس على البوابة أم يضعون حراسا بالداخل أيضا؟ لن يعرف إلا بالتجربة. كان يدور حول المبنى محاولا اكتشاف هويته. وصل إلى السلم. نظر إلى الأعلى بترقب ثم أخذ يصعد بحذر. عندما يضع قدما يرهف سمعه لأي صوت ثم يتبعها بالقدم الأخرى. وصل إلى الطابق الأول. الممر. لا يوجد أحد. أرهف سمعه.

منتصف الليل و الكل يجب أن يكونوا نائمين. أخذ يتقدم في الممر بثقة أكبر. حجرات

إدارية. المبنى الخطأ.

عاد من حيث أتى و هبط بهدوء.

نظر حوله. السكون هو السائد. جميل جدا. توجه نحو المبنى المجاور. عندما صعد السلم و أطل بحذر على الممر ارتد فورا إلى الخلف. بدأت ضربات قلبه تتزايد. ملتصقا بالحائط أخذ يحاول تقييم ما رآه. خيل إليه في ضوء الممر الشاحب أن ظل أحد في آخره على الجدار الآخر كان ينزل هابطا. ربما تخيل ذلك. ربما. لكنه ممكن على كل حال.

اختلس نظرة أخرى فلم يجد حركة أو صوتا. ماذا يفعل الآن؟ أيمضي بحذر و يكتشف هوية المبنى؟ نعم سيفعل. سيفعل. أخذ يسير ببطء و توجس منتظرا أن يظهر له أحدهم من الطرف الآخر. فصول كما هو واضح من بطاقات الحجرات. إذن فضالته المبنى الثالث. لم يحول بصره عن نهاية الممر و هو يتراجع ببطء إلى الخلف.

لكن ما لا تجده في الأمام ربما تجده في الخلف.

تجمد تماما في مكانه عندما سمع العبارة المفزعة.

"من أنت؟!"

أخ.

***

في هذه الأثناء كان الصغير مستلقيا على سريره في جناح النوم، لم يزره النعاس بعد. نظر حسام حوله فرأى الكل في الضوء الخافت الآتي من الشباك غارقا في النوم، و ربما يحلم بأشياء سعيدة. النوم عزيز عليه و لا يأتيه إلا قبل ساعة أخرى على الأقل. ظل ربع ساعة راقدا ثم جلس في سريره متربعا. نظر إلى البدر من الشباك القريب منه. قام و مشى ببطء نحو الشباك و نظر إلى الخارج. لا يستطيع التأقلم بعد على هذه المدرسة. كان من قبل يقضى معظم أوقاته في المنزل قبل أن يأتي به مساعد أبيه بالطائرة ثم يودعه هذا المكان المزدحم.

حتى و هو ذو حظوة فيه عن باقي أقرانه فذلك لا يمنحه أدنى شعور بالسعادة. أما حديث أبيه المقتضب إليه في الهاتف كل يوم فلا يبدد الوحشة التي يشعر بها. ربما لو عقد صداقات هنا لهون ذلك عليه الأمر بشدة.

لكنه لا يجيد ذلك. حتى أحمد الطفل الذي كانت أمه تلاعبه و عرضت عليه الشطائر كلما أخذ يكلمه يرد حسام عليه باقتضاب و لا يريد المشاركة في أية أنشطة.

المكان الوحيد الذي يحب الجلوس فيه هو حجرة المديرة. يذهب كل يوم ليجلس معها ساعة واحدة؛ فهي مشغولة جدا.

و هي طيبة جدا أيضا. عندما كانت غائبة كان يشعر بأنه غريب. لكنها أعطته بعض الألفة عندما حضرت و أصبحت تأتي كل يوم بانتظام. ذكرته بأم أحمد في حنانها و عطفها. كان يسأل نفسه لو كانت أمه ما زالت على قيد الحياة أستكون في مثل حنانهما؟ بالتأكيد ستكون أكثر حبا و حنانا منهما؛ فهي أمه. هكذا كان يفكر.

نظر إلى سرير أحمد. كباقي الصغار نائم في سابع نومة. مضى نحو سريره و هو يقدم رجلا و يؤخر الأخرى. وقف عند رأسه.

مد يده بتردد حتى مست كتف أحمد. أخذ يهزه ببطء و هو يهمس:

"أحمد.. أحمد. استيقظ."

الصغير أخذ يتململ في نومه و يصدر أصوات النائم.

"استيقظ يا أحمد."

"مممم."

أخذ يهزه بقوة أكبر.

"مممم. ماذا؟! ماذا؟!"

ثم فتح عينيه الصغيرتين و هو ينظر إلى من فوق رأسه. فتح عينيه بقوة.

"ماذا؟! من؟!"

"أنا حسام. أخفض صوتك."

"حسام؟! ماذا تريد؟!"

جلس على طرف السرير ببطء و قال:

"إ... هذه اللعبة التي كنت تريد أن تعلمها إياي و قلت لك في وقت آخر. أريد أن أتعلمها."

"الآن؟!"

نظر إلى الأرض و قال:

"أنا آسف. لا أستطيع النوم."

جلس أحمد على سريره هو يفرك جفنيه. سأله:

"لماذا؟"

"لأنني أشعر أني غريب."

"لأنك لا تلعب معنا."

قال كأنه يسترضيه:

"سألعب معكم."

ابتسم أحمد ببراءة و قال:

"أخيرا. انتظر عندما أقول لهم في الصباح أنك أيقظتني من النوم لتقول لي أنك ستلعب معنا."

" لا لا. لا أريدهم أن يضحكوا عليّ. خلاص.. لا أريد."

و قام من على السرير لكن أحمد أمسك بيده و قال:

"فقط انتظر. خلاص يا عم. لن أقول لهم شيئا. مبسوط؟"

ابتسم حسام و علم حينها أن أحمد سيكون صديقه الحميم.

"اجلس و احك لي. النوم خلاص.. راح من عيني."

جلس حسام و سأله:

"ماذا أحكي لك؟"

"عن أبلة المديرة. لماذا تذهب إليها كل يوم؟"

***

عندما سمع آدم السؤال هوى قلبه بين قدميه، لكن الصوت الذي ألقى السؤال بعدما استوعب آدم نغمته ألقى بعض الطمأنينة في قلبه.

هذا لأنه صوت ذو نبرة طفولية تماما.

التفت آدم إلى الصغير الذي يقف خلفه بالضبط و جفناه متسعان في خوف. لكن الخوف تحول جزء منه إلى دهشة عندما رآى وجه آدم.

"حسن؟!"

الاثنان مدهوشان بنفس القدر.

استوعب آدم الموقف و مد يده إليه قائلا:

"لا تخف مني يا حسن."

تراجع حسن إلى الوراء غريزيا.

"لا تخف لا تخف."

وجد الصغير صوته أخيرا و سأل:

"عمو؟! ماذا تفعل هنا؟!"

توقف آدم و هو يرى تراجع الصغير. قال:

"هل أنت خائف مني يا حسن؟"

ابتلع الصغير ريقه و قال و هو يتوقف عن التراجع:

"لا. لا يا عمو. لكن ماذا تفعل هنا؟"

ابتسم آدم ابتسامة طمأنينة و قال:

"سأقول لك. لكنك لن تصرخ، أليس كذلك؟"

"بلى لن أصرخ."

ثم تقدم الصغير منه في بطء. ارتاح آدم تماما الآن.

مد يده ليسلم عليه فمد حسن يده و سلم عليه.

"كيف حالك يا حسن؟"

"الحمد لله يا عمو. ماذا تفعل هنا في هذا الوقت؟! لولا أنني أعرف أنك رجل طيب كنت حسبتك لصا."

ضحك آدم بخفوت و قال:

"أنت ولد ذكي يا حسن. و عندك فراسة."

"ما معنى فراسة؟"

"يعني تعرف ما بداخل الناس بسهولة. لأجل ذلك أنا واثق فيك و سأخبرك لماذا أنا هنا. قل لي أولا ماذا تفعل هنا في هذه الساعة؟!"

"المياه مقطوعة عن حمامات المبيت. قلت آتى إلى هنا لأستعمل الحمام."

"أين هو؟"

"في كل طابق حمام."

و أشار إلى آخر الممر.

"إذن تعال و ادخل الحمام أولا."

مضيا يسيران متجاورين. شعر آدم بألفة بوجود الصغير معه. كأنه يحميه. أراد أن يضحك على نفسه. الصغير هو الذي يحميه؟! طبعا. أليست بيئته و هو أدرى بها؟ هو القائد هنا.

دخل الصغير و غاب دقائق ثم عاد و أغلق الباب خلفه و هو يمسح يده في منشفته حول رقبته.

"أتريد أن تعلم يا حسن؟"

"طبعا يا عمو."

"قل لي أولا.. هل يمر أحد هنا الآن؟"

"الآن لا. منذ قليل نعم."

"هل يمر ثانية."

"لا. يذهب ليجلس مع عم كمال على البوابة."

"جيد. أولا. أنا دخلت بطريقة خطأ، لكنني فعلت ذلك لأنني أريد أن أعمل عملا جيدا و لم تمكني أبلة المديرة منه."

"أبلة شهيرة؟!"

"بالضبط."

"لماذا؟! ماذا تريد أن تفعل؟"

"يوجد صاحب لكم اسمه حسام. حسام شاكر جاد. أمه تبحث عنه. أتعرفه؟"

"لا لم أسمع به من قبل. ربما يكون في فصل آخر."

تجهم وجه آدم قليلا. لقد حسب أن الأمر صار أيسر بدرجة كبيرة الآن بعد رؤيته لحسن.

"ألم تسمع عنه قط؟"

"أبدا يا عمو. و لماذا تبحث عنه أمه؟ هل أضاعته و قالوا لها إنه هنا؟"

أضاعته؟! ربما يكون وصفا دقيقا لما حدث بالفعل. لكن مشاركتها في الإضاعة ليست بقوة مشاركة الفاعل الأول.

"إنها قصة طويلة يا حسن. لا يتسع الوقت لذكرها. أنا أريد أن أعرف هل هو هنا أم لا."

"يمكنني أن أسال لك عنه غدا."

"جيد. جيد جد . لكن لا تسأل أبلة المديرة أبدا أو أحدا من المدرسين. على الأخص أبلة المديرة. لا تسأل إلا زملاءك."

"لماذا تخاف من أبلة المديرة يا عمو؟!"

"أنا لا أخاف منها لكنها لا تريد أن تخبرني. و طردتني."

"أبلة المديرة؟! إنها طيبة جدا. لا تعاقب إلا من يخطئ و هي تقول العقاب على حسب نوع الخطأ. و لا تطرد أحدا. هل أنت متأكد يا عمو؟!"

"هذا ما حدث. هي لا تحبني لسبب ما."

"و ما هو؟"

وضع آدم كفه على كتف الصغير و قال:

"لا تشغل بالك. المهم الآن أن تفعل ما طلبته منك و..."

قطع كلامه و أخذ يتأمل في السماء ثم قال و هو يجلس القرفصاء؛ ليصل إلى مستوى قامة الصغير. أمسك كتفيه و لهجته تشي بانفعال شديد:

" حسن.. اسمعني جيدا. أريدك أن تعرفه غدا. ثم تحاول بكل قوتك إقناعه أن يأتي هنا في ليلة الغد. معك."

"لكن يا عمو.. هذا صعب. لا أستطيع."

ضغط آدم برفق على كتفيه و قال:

"حاول يا حسن. حاول بأقصى ما يمكنك. الأمر مهم جدا. أرجوك يا حسن. أنت لها"

يكلمه مثل رجل كبير بل و يرجوه. أصبح أمله معلقا بالصغير و يخشى بشدة أن يفقده.

قال بتردد:

"حـ... حاضر يا عمو. سأقول له إن أمه تبحث عنه."

"لا لا يا حسن! لا تقل له ذلك! هو يعتقد أنها ماتت و هي تلده. ربما لن يصدقك. نريد فقط أن نعرف شكله. لا تخذلني يا حسن."

"ماذا تعني يا عمو؟"

نسى أنه يكلم طفلا ربما لم يفهم بعد معنى الخذلان.

"لا عليك. ها. هل ستفعل ما طلبته منك؟"

"لكن كيف أحضره إلى هنا؟ كيف سيقبل؟"

" نعم.. آآآآ... يمكنك أن تثير فضوله. قل له إنه سيكتشف معك شيئا جديدا و لا تخبره ما هو. ما رأيك؟ ينفع."

"طيب يا عمو."

"جدع يا حسن."

ابتسم و قبّله على جبهته.

"في نفس الميعاد الساعة 12. تمام؟"

"تمام يا عمو."

"شكرا يا حبيبي. اذهب أنت الآن."

دار الصغير على عقبيه بينما آدم يقف. أخذ يتابعه و هو يذهب نحو السلم، و قبل أن يهبط نظر الصغير إليه نظرة للحظة واحدة ثم نزل.

ظل آدم لخمس دقائق واقفا في مكانه يتسمّع أي صوت. هبط بهدوء و هو يتلفت حوله.

عندما أصبح على حافة الفناء ابتسم و قال في نفسه و هو يستعد للجري:

"بالأحضان يا سور."

***

الفصل التاسع

عندما استيقظت ليلى في صباح اليوم التالي لم تجد آدم بجوارها. ظنت أنه خرج مبكرا كعادته بعد أن استقال من عمله.

تثاءبت و هي تقول في نفسها:

"يرحم الله أياما مضت. كنت أنا التي أوقظك. ربنا يعينك."

عندما خرجت إلى الصالة وجدت باب الشقة يُفتح و آدم يدخل. نظرت إليه باستغراب و هو يرتدي ملابس رياضية و العرق يغمره.

"ما هذا؟!"

ابتسم. قال و هو يغلق الباب:

"كيف حالك يا عزيزتي؟"

"منذ زمن طوييييل لم أرك ترتديها؟! ماذا كنت تفعل؟!"

"هذه متطلبات العمل الجديد. اللياقة. كنت أجرى حول المنطقة."

"متطلبات العمل الجديد ؟! عجائب!"

عندما أتى في الليل كانت نائمة. قرر ألا يخبرها بما فعله الآن.

"عندما أقطع شوطا جيدا في مهمتي سأخبرك. ربنا يعينك يا حسن."

"أنت تتعمد ذلك. تقول حسن لأسألك: من حسن."

ابتسم و هز كتفيه و توجه إلى الحمام.

ظلت واقفة تنظر إلى الباب الموصد. قالت في نفسها و هي تبتسم و تتجه إلى المطبخ:

"سأعلم إن عاجلا أو آجلا. أنا نَفَسي طويل."

أول يوم يجتمعون على الإفطار منذ استقالته. عندما نزلت هي و خالد وجد آدم نفسه وحيدا في الشقة.

ماذا تفعل الآن يا بطل؟

تنام قليلا ثم تصحو لتفكر و تخطط.

عندما استلقى على السرير لم يستطع كبح جماح التفكير. هل ينجح حسن من أول مرة؟ هل سيحتاج إلى مرات عديدة يذهب فيها و يقفز من على السور كاللصوص مخاطرا بفضيحة؟ كان يرجو بشدة ألا يضطر لذلك. فليدع الله أن تتيسر الأمور. الخطوة الأولى هي معرفة شكل حسام. سيصوره أيضا. ثم ما الخطوة التالية؟ ماذا تريد مديحة؟ أن يخطف لها الولد؟! لا لا يمكن أن تريد ذلك. وحتى إذا فكرت بذلك، فهو لن يفعل مطلقا. من منظور إنساني بحت قبل أن يكون من منظور قانوني. الخطوة التالية هي إما التفاوض مع شاكر جاد أو إخفاء الأمر تماما، و وضعه أمام الأمر الواقع. كشف الحقيقة أمام الشرطة و ليكن ما يكون.

و لتختر مديحة أيا من هذين الخيارين.

و نام على إثر ذلك.

***

الليل و السور و الحجر في مكانه. زادت حماسته و هو يمنى نفسه بانتهاء الأمر الليلة. أو الجزء الأكبر منه على الأقل.

أخذ يتسلق السور بعزم أكبر هذه المرة مدفوعا باللقاء المرتقب.كفاءته زادت عما قبل و تمكن من تخطيه أسرع، مع أن عضلاته تئن من الأمس. هبط بسلاسة و وقف يستمع إلى السكون.

"جيد."

قالها آدم و هو يستعد للسباق الكبير عندما رأى ثلاثة رجال برزوا فجأة من الظلام يجرون ناحيته، و كأنهم بالضبط ينتظرون مجيئه!

المفاجأة جعلته يتسمر في مكانه. قبل مضي الثواني القليلة قبل أن يصلوا إليه أخذ عقله

يجري. هل وشى به حسن؟ لا يستطيع هضم ذلك بسهولة. إذن يمكن أن يكون ارتكب خطأً اضطر على إثره أن يعترف. نعم هو ذكي لكنه ما يزال صغيرا قليل التجربة، و الأخطاء واردة. و حتى لو كان وشى به فلا يستطيع أن يلومه. الموضوع من أوله يمكن تصنيفه من العجائب. أو ربما حسام نفسه هو الذي فضح الأمر.

انتشله القادمون من دوامة أفكاره.

ثلاثة حراس بملابسهم المميزة. عرف فيهم حارس البوابة، و الذي نظر إليه في احتقار و بادره قائلا:

"يا مجرم."

قال آدم في نفسه:

"أنت في موقف لا تحسد عليه يا آدم."

أحاط به الثلاثة إحاطة السوار بالمعصم. إذا كانوا يخشون هروبه فقد أخطؤوا. ليس لديه الطاقة النفسية الكافية لذلك، كما أن ظهره للسور. يبدو أنه شُدِّد عليهم و حذروا منه بقوة.

أخرج أحدهم هاتفه و ضرب رقما. لم تمض ثانية حتى رد الطرف الآخر.

"نعم. أمسكناه. عند السور نعم. هبط من نفس المكان."

و أنهى المكالمة.

الآن شكه نحو حسن قد زال بدرجة كبيرة. إذا كان حسن قد استنتج قفزه من على السور فكيف عرف المكان الذي هبط منه. نظر حوله. لم ير آلة تصوير للمراقبة. أو ربما هناك واحدة في مكان لا يراه. لكن آلات تصوير تراقب الأسوار هنا؟! هذه مدرسة و ليست ثكنة عسكرية!

نظر آدم إلى الذي تحدث في الهاتف و سأله:

"الأستاذة شهيرة من كنت تكلمها أليس كذلك؟"

لم يرد عليه و ظل ينظر إليه بصرامة. كلهم أخذوا وضعا متحفزا، ينظرون إليه في صمت. نظر إلى تكوينهم الجسدي. هؤلاء حراس مدربون. ليسوا أشخاصا عاديين يتقدمون

لوظيفة أصبح أي أحد يتقدم لها.. حارس أمن.

عقله ما زال يجري. ماذا تفعل الآن يا آدم في هذا المأزق؟ ابحث ابحث عن مخرج.

"هل ستضربونني؟"

لم يتلق جوابا. كل ما تلقاه هو النظرات الثابتة و الصمت التام كأنه يقف أمام تماثيل.

لم يلبث إلا و لمحها تأتي بخطوات سريعة.

أفسحوا لها لتواجهه.

قالت و هي تقف عاقدة ساعديها و تنظر إليه نظرة الاتهام و تقول بلهجة ذات مغزي:

"مرحبا باللص."

الجدال لن يفيد. هو يعلم أنها تعلم أنه ليس لصا، و أنها تعلم ماذا يريد بالضبط.

"أين حسام يا أستاذة شهيرة؟"

"هل تعلم أنه يمكنني أن أضيِّعَ مستقبلك؟"

و مع أنه في موقف صعب بالفعل، إلا أنه لم يتأثر كثيرا بتهديدها. ما يقلقه أكثر هو فوات الموعد مع حسن. فرصة لا تعوض.

يا خسارة.

"تخيل الأستاذ آدم أحمد و هو يدخل قسم الشرطة بتهمة اقتحام مدرسة داخلية. الله يعلم ماذا كان يريد أن يفعل."

"دعينا من التهديدات يا أستاذة شهيرة و لنتكلم في الأهم."

فكت ذراعيها و هي تنظر إليه و قد بدأت الدهشة تحل محل الثقة.

"سأطلب الشرطة."

قالتها مهددة.

لم يكن آدم يتخيل أنه سيقولها هكذا بكل جرأة، لكنه أثناء عودته إلى المنزل الليلة الماضية فكر في الأمر بصورة مختلفة. قال في هدوء و هو يضع يديه في جيبي سترته:

"نعم فلنطلبها."

كان الذهول هو المرتسم على وجه الحراس الثلاثة. كانوا ينقلون أبصارهم بين آدم و شهيرة و ينظرون إلى بعضهم في تساؤل، منتظرين أمرا منها بشأن هذا اللص الوقح.. المجنون ربما، الذي يطلب الشرطة بدلا من التوسل.

لكن ما جعل أمخاخهم تنقلب في رؤوسهم رأسا على عقب هو التعبير الذي رأوه على وجه المديرة.

تعبير انهزام. بل وقالت بصوت مرتعش:

"انصرفوا."

"ماذا طلبت حضرتك؟"

"انصرفوا."

قالتها بصوت أعلى مؤكدة و هي تنظر لآدم في تعبير يجمع بين الحزن و العبوس.

مرت ثوان حتى انسحب الرجال ببطء غير مصدقين و كل منهم يضرب أخماسا في أسداس.

"أستاذة شهيرة. من فضلك. أنت امرأة فاضلة. لماذا تفعلين ذلك؟!"

خيل إليه أن لمعان دموع ظهر في عينيها.

"أين حسام يا أستاذة شهيرة؟"

بدلا من إجابته أخرجت من جيبها بطاقة ناولته إياها قائلة ببطء:

"عندما تدخل مكانا بدون علم أصحابه فلا تترك بطاقتك وراءك، خصوصا إذا كانوا يعرفونك."

مد يده و أخذ البطاقة.

كلم نفسه في نفسه. جيبك قصير يا آدم. سقطت منك و أنت تخرج.

"وجدها أحد الأطفال كان يلعب بالقرب منها. المفقودات تحضر إلى مكتبي."

هكذا إذن. بل و الأنكى أنه أتى بنفس الملابس التي أتى بها الليلة الماضية. لم يرغب في تلويث ملابس جديدة بالتراب مثل هذه؛ فلم يدرك أن بطاقته مفقودة.

"شكرا."

"و الآن اخرج."

نظر نحو مبنى الدراسة البعيد. من المفترض أن حسن هناك الآن ينتظره مع حسام. نظر خلفها فرأى الحراس لم يستجيبوا لكلامها بالكلية. ظلوا واقفين على مبعدة.

هدفه قريب و بعيد في نفس الوقت. هل يضمن حقا وجود حسن هناك؟ لو كان لانطلق إلى المبنى كالسهم. لا يستطيع المجازفة.

خسارة.

"حسام له..."

قاطعته في ثورة و قالت:

"لا أريد أن أسمع شيئا. اخرج."

نظر إلى الأرض للحظات ثم مضى نحو الحراس.

سألته:

"إلى أين؟"

سأل متعجبا:

"ألم تطلبي مني الخروج؟!"

نظرت في إباء و قالت:

"كما أتيت."

لوهلة تجمد تفكيره، ثم استوعب و هز رأسه أنه فهم.

كانت تراقبه و هو يرتقي على كومة الرمال التي صنعها الليلة الماضية و يبدأ تسلقه. جالسا أعلى السور و قبل أن يهبط إلى الجانب الآخر نظر إليها في صمت، و نظرت إليه بعينين بدت الدموع فيهما بالفعل و إن كان لم يلاحظها. قالت في نفسها و قلبها مجروح:

"لا يوجد أحد هنا بهذا الاسم."

***

الفصل العاشر

وضعت كوب الشاي على المنضدة أمامها، ثم جلست على الأريكة في حجرة نومها.

أرجعت رأسها على ظهر الأريكة و تطلعت إلى الصورة على الحائط.

كانت شهيرة علي و ما زالت مثالا لمن تحب عملها بشدة؛ و لذلك تبدع فيه و تترقى بسرعة.

"لم يكن لي اختيار يا حبيبتي.. لكن مهنة التعليم هي أسمى المهن و أنبلها. لا أقول ذلك لأنني أمتهنها، لكن لأن المعلم يبني الإنسان كما يبنى البناؤون العمارات فيصبح لها وجود ملموس بعد أن كانت لا شيء."

هكذا كان رد عمها معلم الرياضيات عليها عندما سألته و هي بعد في مرحلتها الابتدائية عن سبب اختياره لهذه المهنة.

لكنها كان لها الاختيار. اختارت التدريس دونا عن اختيارات أخرى قد تكون في نظر البعض الأفضل. نجحت و برعت حتى أصبحت مديرة و هي في السابعة و الثلاثين. النجاح الذي حققته جاء مع أسباب أخرى لينهي علاقتها بزوجها.

كان الزواج تقليديا عن طريق المعارف، و قبلت به بسرعة تلبية لرغبة أمها و لأن سعيها الدائم نحو التميز في عملها شغل تفكيرها إلى حدّ ما عن الزواج. فعندما وجدت مسعى أهلها سارت في الطريق الذي اختاروه بلا تفكير عميق. حاولت أن تقترب من زوجها لتسير الحياة كما ينبغي لها أن تسير، لكنه لم يكن يرضى بالكثير مما كانت تقدمه. ساخط دائما و غيور من نجاحها. ثم و القشة التي قصمت ظهر البعير هي أنها لا تنجب. مرت السنين و هما يحاولان لكن كل الأبواب التي طرقوها لم تُجْدِ.

عرضت عليه أن يكفلا طفلا أو طفلة لكنه كان يقول لها:

"أريد ولدا من صلبي لا من صلب غيري."

فتصمت طاوية آلامها على نفسها. و عندما تفاقمت المشاكل و أصبح الوضع غير محتمل، طلبت منه بهدوء أن يسلك كل منهما طريقا مختلفا. أفضل لهما. و طلقها في اليوم التالي و تزوج بعد أشهر قليلة، و بعد أشهر أخرى أصبح له الولد الذي كان يرجوه.

أحيانا كانت تذهب إلى بيته لترى ابنه بعد إلحاح طويل عليه؛ فيوافق على مضض. لم تكن على الإطلاق تشعر نحو الصغير بأي ضغينة، بل كانت تحبه كما لو كان ابنها.

كانت تستأذن أمه و تأخذه أحيانا في نزهة إلى الحدائق أو المتنزهات، أو تسير به على شاطئ النهر. اعتمدت عليها أمه أحيانا في رعاية الصغير عندما تكون مشغولة؛ مما جعل لشهيرة أخيرا رصيدا عند زوجها السابق؛ فلان نوعا ما في معاملتها.

الصورة على الحائط تمثلها هي و الصغير ذو الخمس سنوات يضحكان و قد تبعثر شعره من الهواء، و خلفهما النهر.

كل صباح تنظر إليها فتعطيها طاقة عظيمة.

عرفت شاكر جاد منذ سبعة أعوام عندما كانت شركة من شركاته راعية للمؤتمر السنوي للتعليم الذي حاضرت فيه لتعرض خبرتها. كان مشغولا جدا لكنهم طلبوا حضوره بشدة في أول جلسة فوافق بعد لأى. عندما رآها و هي تتحدث مال على نديم و قال:

"هذه المرأة متميزة يا نديم."

"طبعا يا شاكر بيه.. لكن من أي زاوية؟"

"عقلها عظيم و أسلوبها بديع. انظر كيف ألقت تلك المعلومات بأسلوب شائق وبسيط. لقد استمتعت بالفعل، و أنا الذي كنت أظن أنني سآتي لأجلس في ضجر متكلفا الابتسامة حتى ينتهي الوقت."

"كلام حضرتك في الصميم."

ضيق شاكر عينيه و قال:

"هل تظن أن تقبل بالعمل لدينا؟"

"و من لا يقبل؟!"

لكنها لم تقبل و اعتذرت لحبها لمهنتها. عندما تحدث معها شاكر مرات ليقنعها تسللت عن غير قصد منها بسبب مميزاتها العديدة إلى جزء من قلبه. لكن وجودها تراجع فيه قليلا ليفسح المجال لمديحة، و إن كان شاكر حريصا دائما على تواصله معها عند عقد المؤتمر الذي ترعاه شركته كل سنة.

و عندما عرض عليها الزواج عندما علم بطلاقها لم تقبل أيضا. لم ترغب في دخول تجربة جديدة قبل أن تدرسها جيدا. الرجل يعيش بالخارج و يريدها أن تعيش معه. لم يغرها ثراؤه الهائل.

لكن رأيها أخذ يتغير تدريجيا عندما أفصح لها عن سره. عن ابنه. عن مديحة. عن الهروب.

في البداية سقط من نظرها تماما و قطعت كل حبال التواصل بينها و بينه. لكنه لم ييأس. كان يريد الاستقرار. و هي شغلت عقله و جزءا من قلبه فترة من الزمن قبل مديحة.

أخذ بكل الطرق يحاول تبرير فعلته.

"أنا لست شيطانا يا شهيرة. لقد وجدت نفسي في موقف لا أحسد عليه."

فترد عليه:

"أنت الذي وضعت نفسك فيه. انتهكت عرضا و حرمت أما من ابنها."

"تلك لم تكن أما يا شهيرة. أنا معترف بكل أخطائي. لكن ما حدث قد حدث. أخبريني أنت، كيف كنت أتصرف؟ هل تلك من كان يمكن أن تربي لي ابني؟! مستحيل! واحدة مثلك هي التي آمنها على ذلك."

الموضوع كله كان صدمة لها.

"أصلح خطأك."

"كيف؟"

"عرِّف الطفل على أمه. تزوجها."

"على جثتي! لن أهدم حياتي الهانئة بيدي و لن أفرط في ابني أبدا! لن أضيع مستقبله

ليعيرونه بأمه المومس!"

كان يتكلم و هو يرى أن المنطق معه تماما.

" فكري يا شهيرة و سترين أنه ليس بيدي شيء يمكن عمله. ستحبين حسام كثيرا. صدقيني."

إذا كانت أشفقت على نفسها لعدم إنجابها، فقد أشفقت على الصغير الذي شب في الحياة و هو يعتقد أن أمه ماتت و هي تلده. ثم الأم.. ماذا تفعل الآن؟ هل نسيت أم لم تنس؟ و هل يمكن لأم أن تنسى ولدها؟!

و مرت الأيام و الشهور، و كلما حاولت الحديث معه في ذلك الأمر أغلق الموضوع بصرامة من لا يريد النقاش، محاذرا في الوقت نفسه أن يغضبها منه بشدة. و استسلمت للأمر الواقع مع فشلها المتتالي. كان يبعث إليها بصور الصغير فأحبته بالفعل منذ أن طالعت وجهه المليح شديد البياض. كان يحدثها عن حسام و كأنها هي أمه و هي استجابت لذلك تماما. و عندما كانت تريد التحدث إلى حسام كان يرفض الصغير بشدة من الخجل، و كان يجري من أبيه في الشقة حتى لا يتكلم مع أحد غريب على الهاتف. ثم أفلح أبوه في جعله يمسك بسمَّاعة الهاتف فكان يسمع صوتها و هي تسمع صوت تنفسه. تظل تحادثه بلا استجابة منه، لكنها مع ذلك لم تيأس. و عندما تعود و أخذ يتحدث معها بكلمات مقتضبة مثل:

"الحمد لله." و "شكرا."

كانت سعيدة أيما سعادة.

عندما أخبرت شاكر منذ سنة أنها أصبحت مديرة لمدرسة داخلية عندما كان حسام في الخامسة، ابتهج لذلك الخبر و قال لها :

"قريبا سأعود يا شهيرة. عودة نهائية. سندخل حسام المدرسة عندك لتربيه على يديك."

صمت لحظة ثم قال بلهجة قاطعة:

و سنتزوج يا شهيرة. و لن أسمح لك بالمراوغة."

فابتهجت ساعتها كثيرا و رأت أن تلك هي حياتها المنتظرة.

في السنة التالية سارت الأمور كما هو مخطط لها، و إن أبقى شاكر على أعماله بالخارج كما هي و لم يُصَفِّها تاركا إدارتها لمن يثق فيه. أرسل حسام قبله بأسبوع مع نديم ليلحق ببداية العام الدراسي. و مع أن شهيرة لم تكن بالمدرسة في أول أسبوع دراسي بسبب سفرها مضطرة لتلقي العزاء في جدتها، لكنها فور أن رجعت لم ترجع إلى بيتها، لكنها رجعت إلى المدرسة مباشرة في يوم الزيارة.

أخذت تبحث بلهفة بين الأمهات و الآباء و الأطفال عن حسام، و فور أن لمحته مع أحمد و أمه هرولت نحوه مسرعة و هي تنادي باسمه.

"أبلة شهيرة؟!"

أخذته في حضنها بقوة و هي تقول و الدموع تلمع في عينيها:

"نعم يا حبيبي. أبلة شهيرة."

و نظرت إلى وجهه بسعادة بالغة و أخذت تقبله و الدموع تهرب بسرعة من عينيها فتبلل وجهه.

ثم أخذت بيده تريه كل شبر في المدرسة و هو مأخوذ بالحنان المضاعف الذي تلقاه من امرأتين مختلفتين ذلك اليوم.

كانت تود لو بقيت معه بعد يومي الزيارة و الراحة و لا تتركه طوال الأيام التالية، لكن العمل المتأخر بعد غيابها لم يكن يحتمل التأجيل. كما أن حسام يجب أن يدرس أيضا. فكانت تجلس معه كل يوم ساعة تلاطفه و تطعمه و تبني في قلبها شعورا قويا بالأمومة.

لكن الأمور لم تسر كما رسم لها للأسف. عندما قابلت آدم في ذلك اليوم و ذكر اسم حسام، اهتز كيانها بعنف حتى ظنت أنها لم تسمع سؤاله، و عندما استوعبت تدريجيا وجدت نفسها تطرده شر طردة. لم تكن تعي ما تقول جيدا. وجدت نفسها تنفي بأقصى قوة لديها دون حتى أن تفكر.

اتصلت من فورها بشاكر و أخبرته.

"ماذا ؟!"

شعرت و كأنه قال الكلمة بقوة ألف ألف صوت.

"ما الأمر بالضبط يا شاكر؟! لماذا يسأل عنه ذلك المدعو آدم أحمد؟!"

استولى عليه الذهول لدقيقة كاملة لم يكن يسمع كلامها خلالها، ثم أفاق منه و قال لها:

"سأبعث إليك بنديم ليأخذ حسام."

"من هو يا شاكر؟!"

لكنه قطع الخط و وجهه يكاد ينفجر من الغيظ و الغضب. أخذ يسب آدم و مديحة و يلعنهما بصوت جَهوَري حتى لم يجرؤ أحد على الدخول إليه أو الحديث معه. و لا حتى نديم الوحيد في شركته الذي يعلم دلالة سب شاكر لهذين الاسمين.

عندما حضر نديم كانت تودع الصغير بأسى لا حدود له و هو لا يفهم لماذا تبكي بكل تلك الحُرقة. هو فقط سيذهب ليرى أباه بعد عودته من السفر. كان نديم و هي و حسام في حجرتها و كان حسام يقول:

"لماذا تبكين يا أبلة و كأنني مسافر ؟! سأرى أبي و أعود."

لكنها كانت تعلم أنه لن يعود، و أن الجسر الذي بنته لتعبر عليه إلى حياة مستقرة و سعيدة قد انهار تماما.

عندما أخبرت شاكر بدخول آدم المدرسة ليلا أمرها ألا تفعل شيئا. فقط تكشفه و تخيفه.

"ما الذي يحدث يا شاكر؟"

"سأشرح لك لاحقا."

و قطع الخط قبل أن تتساءل أكثر.

فكرت أن تذهب إلى آدم في عنوانه المدون في بطاقته لتسأله عن معرفته بحسام. لماذا يسأل عنه؟

لكنها خشيت.
و الآن لا يمكنها أن تفعل شيئا سوى الانتظار.
الانتظار على جمر من نار.

***

الفصل الحادي عشر

"هذا جنون يا آدم!"

"لم يكن أمامي غير ذلك."

كانت ليلى تقف بجفنين متسعين و الاستنكار يملأ ملامحها، و هي تنظر إليه جالسا على مقعد في حجرة الجلوس عصر اليوم التالي يتكلم بهدوء كأن ما أخبره بها أمر عادي جدا يحدث كل يوم.

"من يمكنه مساعدتك حينما تصبح متهما و الأغلال في يديك؟!"

ابتسم و أمسك بيدها ليجلسها بجواره لكنها امتنعت بتصميم.

"لقد انتهى الأمر على خير. ربما الليلة الأولى كانت تهورا أما الثانية فكنت أعلم أوراق قوتي بالفعل."

"بالتخمين!"

"بل بالتفكير العميق."

"و ماذا أفادتك أوراق قوتك؟ لا تقل لي إنك ستقفز من على السور مرة أخرى!"

ضحك ضحكة خفيفة و قال:

"إذا لم تزيلي هذا العبوس من على وجهك لربما فعلتها."

لانت ملامحها نوعا و قالت:

"أنا خائفة عليك يا آدم!"

قرب يدها نحو فمه و قبل أصابعها و قال:

"لا تقلقي. ربنا موجود. وهنا يوجد عقل و ليس مهلبية. كما أنها ليست مهنة مكتبية. لابد من بعض المخاطرة."

نجح في أن يدفعها للجلوس، و التفت بكامل جسده ناحيتها و هو يضع ساقه التي

ناحيتها على ركبته و ما زال ممسكا بيدها.

قالت:

"أما زلت تسميها مهنة؟!"

"بلى. مزيد من التدريب و سأكون ممتازا. حتى الآن أبليت بلاءً حسنا. نعم لم أستطع فعل شيء له قيمة بمفردي، و الرجل الخفي هو الذي اتصل بي ليعطيني المعلومة بالملعقة لكنني جيد. و إذا قلتِ إنني فاشل فسأغلق عليّ الحجرة و أظل أبكي حتى الليل.و ستشترين لي طن شوكلاتة حتى تصالحيني."

لم تتمالك نفسها و ابتسمت رغما عنها.

مسح على خدها بظهر أصابعه و قال مبتسما:

"نعم هكذا."

"ماذا ستفعل؟"

"إما أن أذهب إلى شاكر جاد مرة أخرى على ضوء التطورات الأخيرة، و أرى كيف سيستقبلني أو أن أنتظر الرجل الخفي ليتصل بي مرة أخرى."

"هل عرف شاكر بما فعلته؟"

"بكل تأكيد. بل لقد عرف بأول دخول لي المدرسة يوم أن قابلت شهيرة لأول مرة. خبر كذلك كان لابد أن يصل إليه فورا."

ثم رن هاتفه بالداخل. ابتسم و قال و هو يقوم بحماس:

" أرأيتِ؟ لابد أنه الرجل الخفي. عن إذنك."

أمسك هاتفه من على المنضدة و نظر فيه فوجد رقما غريبا.

"سلامو عليكو."

من على الطرف الآخر لم يحتج أن يعرّف نفسه. ذلك الصوت لا ينسى.

"و عليكم السلام يا أستاذ آدم."

"مرحبا يا أستاذ نديم."

"شاكر بيه يريدك يا أستاذ آدم."

شعر آدم أنه يقولها ببعض الاستخفاف.

"فيم؟"

"هو أدرى."

"و أنت لا تدري؟"

"لا يهم أدريت أم لم أدر."

"من يريد أحدا يأتي إليه."

"أأخبره أنك لا تريد المجيء؟"

بنفس نبرة الاستخفاف.

ليس له ترف الرفض أبدا.

"سأحضر."

"ينتظرك الآن في المصنع الذي كانت تعمل به مديحة، هل تعرفه؟"

"نعم."

"لا تتأخر."

و أغلق نديم الخط بلا سلام.

عندما التفت آدم إلى الخلف وجد ليلى و وجهها ينطق بالأسئلة.

ابتسم و قال:

"لقد بدأت العجلة تدور يا عزيزتي."

***

عندما أوصلوه إلى مكتب شاكر جاد في المصنع وجد الرجل ينظر من نافذة زجاجية إلى العمل بالأسفل، و رأى نديم يقف متكئًا بظهره على الحائط بوجهه الجامد و هو يعقد

ذراعيه و ينظر إليه في ثبات.

عندما لاحظه شاكر رسم ابتسامة واسعة و تقدم نحوه فاتحا ذراعيه.

"أهلا أهلا بالبطل. كيف حالك يا رجل؟"

و أخذه في حضنه كأنه صديق حميم.

"تعال اجلس هنا. ماذا تشرب؟"

قال و هو يجلس أمام مكتبه بهدوء:

"أي شيء."

قال شاكر و هو يجلس على الكرسي على رأس مكتبه:

"اطلب يا رجل. لو طلبت لبن العصفور لأحضرناه لك."

"أي شيء."

"نديم، أحضر لنا أي شيء على ذوقك."

"تحت أمرك."

و مضى خارجا.

ظل شاكر ينظر إليه و وجهه ينطق بالبِشْر و السرور في صمت لمدة حتى ظن آدم أن الرجل قد جُن.

"طلبتني يا أستاذ شاكر."

تراجع إلى الخلف في مقعده و ظل مبتسما. قال:

"تريد أن نتحدث في العمل فورا."

"أي عمل؟!"

"قل لي أولا..."

ثم سكت لحظة و عاد يقول:

"كيف عرفت بالمدرسة؟ للدقة.. من أخبرك؟"

ابتسم آدم و قال:

"أنت تقلل من قدراتي يا أستاذ شاكر."

"لا طبعا. أنت أثبتَّ أنك طرزان لا يوقفك سور."

"أشم رائحة التهكم."

"لا أبدا. حقيقة أنا مندهش لأفعالك. معجب على الأصح. لم أكن أتوقع أن الأستاذ آدم الأخصائي الاجتماعي لديه كل تلك المهارات. علّمنا قليلا يا رجل."

ظل آدم على ابتسامته و قال:

"عادت رائحة التهكم."

"مطلقا. أريد منك أن تجيبني عن سؤال واحد. من أخبرك؟"

"مجانا؟"

اتسعت ابتسامة شاكر أكثر و قال:

"أنت تدهشني. لم أكن أتوقع ذلك بسهولة أبدا! هل كنت تضع قناع البراءة على وجهك يا رجل؟! إذن يمكننا أن نتكلم نفس اللغة. كم تريد يا صديقي؟"

أتى حينها نديم يحمل المشروبين. وضعهما أمام آدم.

نظر آدم حينها إلى نديم و قال بلهجة ذات مغزي:

"ما الثمن المناسب للكشف عن خائن؟"

حول شاكر بصره بين نديم الذي تغيرت ملامحه ضيقا لمدة ثانيتين فقط ثم عاد للسيطرة على نفسه و بين آدم.

قال شاكر و هو يضحك:

"لا لا لا. لا تحاول يا صديقي. إلا نديم."

كان آدم يبادل نديم نظرات التحدي عندما أمره شاكر بلطف بتركهما.

"تحت أمرك."

و مضى بهدوء كأن شيئا لا يعنيه.

"من يا صديقي؟"

"ربما لا تعلم من حولك جيدا."

"لا لا. لا تحاول زرع الشك فيّ نحو نديم. أنت لا تعلم كم ظل معي و كم أثق فيه. يمكنني أن أسلمه روحي."

"فقط تريد مني أن أخبرك بمن أخبرني؟"

" بل أيضا أتوقع أن تترك تماما هذا الأمر و تنساه. لكل شيء ثمن. كم تطلب؟"

"لأجل أن أخبرك أم لأجل أن أترك الأمر؟"

"للاثنين. كم؟ مليون."

ذكر المبلغ جعل دقات قلب آدم تنطلق إلى مستويات عليا، لكنه ابتسم و قال:

"هل أنت بخيل إلى هذه الدرجة."

"مليونان؟ ثلاثة؟ خمسة؟"

"هل أنت غني إلى هذه الدرجة؟!"

"عشرة."

يا للهول.

عشرة ملايين يا آدم في لمح البصر. ربما تنخفض عندما يعلم أنك لا تعلم هوية المتصل المجهول. لكنها على أي حال صفقة صاروخية و بلا أدنى مجهود.

"إذا طلبت أكثر من ذلك لا تكون إنسانا."

أعادت جملة شاكر إليه الشعور بالواقع.

لم يستطع أن يكبح جماح التفكير. و إذا رضى بها و قبِلها ماذا يكون؟

"تخيل أن تفتتح مشروعك الخاص و أن تعيش ملكا."

أخذ نفسا قويا للسيطرة على نفسه ثم قال:

"يمكنني أن أفكر."

"هاه. لا أحد يفكر في مثل هذا العرض يا صديقي. أنت الآن تدهشني بصورة عكسية. لم هذا التقلب؟! آمال و أحلام يمكنك تحقيقها في لمح البصر. مغارة علي بابا يا رجل

و انفتحت أمامك."

"لا آخذ قراراتي الهامة لحظيا."

هز شاكر رأسه في أسف و قال:

"أنت تتعبني. لا بأس. سأتركك مع شيطانك لبعض الوقت لتلعب معه لعبة شد الحبل."

ابتسم آدم بهدوء و قال:

"بالضبط."

ثم بدا و كأنه تذكر شيئا. قال:

"لكنني أيضا لا أحب المتطفلين. إذا أرسلت أحدا خلفي ليراقبني و يعد عليّ تحركاتي لربما لا أصل إلى قرار يرضيك. تفهمني طبعا."

في قرارة نفسه كان شاكر معجبا بشدة بآدم. كأنه آدم يقرأ أفكاره.

"بصراحة مديحة عرفت كيف تختار. لك هذا يا صديقي. لن يزعجك أحد. وعد شرف. سجِّل. هذا رقم هاتفي."

سجله آدم ثم قام فقام الرجل و قال:

"لم تشرب!"

"وقت آخر."

"أعطني مدة لترد علي."

مد آدم يده ليسلم عليه ضاغطا على يده بقوة و قال:

"اتركها للظروف."

و مضى واضعا يديه في جيبي سترته.

***

الفصل الثاني عشر

نزل من سيارة الأجرة أمام الحديقة القريبة من منزله.

مضى يسير بين الأشجار و الأزهار في ليلة بديعة من أوائل ليالي الخريف قبل أن يشتد البرد. الليلة في أولها و الأفكار لا تتوقف. لم يكن يعي المسارات التي يتخذها لكنه ترك قدميه تقودانه حيث تريدان.

أقصى امتحان تعرضت له في حياتك يا آدم. أقصى إغراء واجهك. الشياطين يستقبلونك بالترحاب. ربما ينصِّبونك زعيما. إذا كان قد جارى شاكر في عرضه في البداية فقد كان ذلك لكسب الوقت ليخطط جيدا. لكنه الآن يشعر و كأنه ملزم بعبور بحر و هو لا يعرف السباحة أصلا.

و بدأت الوسوسة:

"ما ضرك لو تنحيت؟! أنت فشلت في مهمتك فخذ المال و عش. عش مع أسرتك كما لم تعيشوا من قبل."

و تبدأ المناظرة:

"و هل يمكنني أن أعيش هانئا بعد ذلك؟!"

"و لم لا؟ إنها ثروة يا رجل. كنز، مجنون من يفرط فيه."

"ماذا أقول لمديحة؟!"

"لست ملزما بشيء."

"الكلمة! الوعد!"

"أنت تتكلم و أنا أتكلم و هم يتكلمون. أنت تعد وأنا أعد و هم يعدون. الكلام مجاني. لا يكلف قائله مليما. و الوعد يمكن الاعتذار عنه بابتسامة أسف."

"احذر يا أستاذ!"

جعله النداء يفيق فوجد نفسه على وشك الاصطدام بمجموعة كلها نساء و أطفال يجلسون على مقعد من مقاعد الحديقة المنتشرة.

"المعذرة. آسف جدا."

توجه نحو مقعد قريب أمام مكان ألعاب للأطفال و جلس.

و تستمر المناظرة:

"أتريد أن تعيش حياتك فقيرا؟! ابنك يريد أن يلف الدنيا و يراها. اشتر شقة تليق بلميونير.. و سيارة على أحدث طراز. استثمار محترم و عيشة رغيدة. ماذا تريد أكثر من ذلك ؟!"

" بنقود حرام؟!"

"لماذا؟! هل ستسرقها؟!"

"أفظع من السرقة. سأجهز تماما على أم مكلومة!"

"هذه مشكلتها و ليست مشكلتك."

"مشكلتها أتت بها إليّ لأساعدها على حلها.. هذه وظيفتي."

"أي وظيفة؟! ماذا تتوقع أن تدفع لك؟ قطعة جبن!"

نفخ آدم بحُرقة و قام إلى داخل منطقة الألعاب. وجد ثلاثة أطفال على أرجوحة كبيرة و لا يستطيعون تحريكها.

" عمو.. عمو. هل يمكن أن تدفعنا؟"

قالتها طفلة وجهها كالنور بصوت عذب بريء. ربما أحس أن وجهها أكثر إضاءة من مصابيح الحديقة. دعوة الصغيرة كانت طوق نجاة من الأفكار المتربصة بعقله.

"نعم يا حبيبتي. بكل تأكيد. أمسكوا جيدا."

دفعها دفعة قوية فهلل الأطفال.

"هيلاهوب. هيلاهوب."

ترتفع الأرجوحة و تنخفض.. و يصرخ الأطفال فرحا. و هو يبتسم لهم و يقول:

"إياك أن يترك أحدكم ما يمسك به."

فترد الصغيرة:

"لا تخف يا عمو. نمسك بقوة. أقوى.. أقوى يا عمو."

طفلة صغيرة شجاعة، و رجل كبير في ورطة أخلاقية بسبب هدف بعيد لا يعلم كيف يمكن الوصول إليه.

"هيلاهوب. هيلاهوب."

رددوها خلفه بأصواتهم البريئة.

يفرغ همومه في الأرجوحة و في الصيحة، ويتخيل نفسه صغيرا معهم يصعد و يهبط و يصرخ و يضحك. و كأنه تناسى ما حوله حتى أصبحت الأرجوحة بمن عليها هي عالمه الوحيد.

تمر الدقائق و هو مستمر.. و الأطفال منتشون.

"لا تتركنا يا عمو كمن سبقك. مَرْجِحنا.. مَرْجِحنا بقوة."

فيرد عليها:

"لن أترككم حتى تقولوا جميعا أنكم اكتفيتم."

و تمر الدقائق حتى تقترب نصف الساعة.

أحدهم يقول للآخر و هو يشير إلى آدم:

"هذا الرجل له ثلث أو نصف ساعة يمرجح بنفس الهمة! ألم يتعب؟! لا أراه بطلا رياضيا."

و تنقضي ربع ساعة أخرى و آدم كالآلة لا يتوقف و هو ينهج بشدة.

"كفى يا عمو كفى. أنت تعبت جدا."

"هل اكتفيتِ؟"

"نعم."

"هل اكتفيتم؟"

ردوا جميعا:

"نعم."

فتوقف عن المرجحة و عاد مرة أخرى إلى الدنيا. هدأت الأرجوحة حتى أصبح النزول سهلا. مضى الآخران و بقيت هي. أرجعت رأسها و نظرت إلى وجهه بالأعلى و قالت بابتسامة عذبة:

"شكرا جدا يا عمو. أنت رجل طيب."

"أي خدمة."

لوحت له بكفها الصغيرة و هي تجري لتلحق بأترابها:

"مع السلامة يا عمو."

فلوح لها:

"مع السلامة يا... ما اسمك؟"

"سمر."

"مع السلامة يا سمر."

راقبها حتى اختفت و هو راض تماما.

نظر إلى النجوم و استنشق الهواء العليل ثم أخرج هاتفه و طلب مديحة.

"سلامو عليكو."

"و عليكم السلام يا أستاذة مديحة. كيف حالك؟"

"نحمد الله يا أستاذ آدم . هل توصلت إلى شيء؟ هل من أخبار؟"

اللهفة في صوتها لا يمكن تجاهلها.

"سأتوصل إن شاء الله. قولي لي من فضلك.. من هم معارف شاكر؟"

صمتت للحظات ثم قالت بوجل:

"لا أعرف أحدا غيره و نديم."

"ألم تري أي شخص آخر معه؟"

"و كيف أرى و أنا محبوسة في شقته. الخروج كان قليلا جدا."

صمت آدم يستوعب و يحاول التفكير في طرق و أساليب للنفاذ إلى دائرة شاكر جاد المغلقة.

"نديم يا أستاذة مديحة .. ألم تتحدثي معه؟"

"نديم ذلك كأنه مثل الكرسي لو لم تكلمه. لا ينطق إلا وقت اللزوم. لا أعلم شيئا عنه. أخبرني يا أستاذ آدم.. هل الأمر ميؤوس منه؟ هل وصلت إلى حائط سد؟"

أخذ نفسا عميقا و قال و هو يبتسم:

"يمكن القفز."

ضحكت ضحكة خفيفة و قالت:

"ربنا معك. ربنا يكرمك و يسعدك و يقويك."

هز آدم رأسه موافقا كأنها أمامه.

عندما دخل بيته عرج على حجرة خالد فوجده منكبا على دروسه.

"أهلا يا بابا؟"

"كيف حالك يا جدع؟"

"الحمد لله. أنا أذاكر."

"ألا تريد شيئا؟"

"لا شكرا. هل سنأكل الآن؟"

"سأذهب لأعرف من ماما."

في غرفة النوم وجدها تقرأ. عندما لاحظته قامت و سألته عن زيارته لشاكر. لكنها بدأت تخاف عليه فعلا عندما قال لها و هو يبتسم و يديه في جيبيه:

"لقد مرجحتُ روحي يا عزيزتي."

***

الفصل الثالث عشر

جالسة بجوار زوجها النائم، أخذت تمعن النظر في وجهه في ضوء المصباح الليلي الضعيف.

بعدما أخبرها آدم بالعرض لم تستطع الكلام. ظل الصمت يلفهما حينها حتى قطعته هي بصوت مرتعش:

"هل يظن أنه يملك الدنيا؟!"

ثم مضت مسرعة نحو المطبخ ترتب أشياءا لا تحتاج إلى الترتيب. لحق بها آدم و اتكأ على الحائط و نظر إلى ما تفعله مبتسما ابتسامة خفيفة.

"مالك يا ليلى؟"

مسحت دموعا أخفتها عنه ثم نظرت إليه مقطبة و قالت:

"هذا الرجل شيطان و يريد أن يجعلنا من خدامه. لا تذهب إليه مرة أخرى يا آدم."

"و القضية؟"

"فلتبلغ مديحة الشرطة لقد فعلت ما بوسعك."

"و إذن فلأستغفله و آخذ منه النقود طالما هكذا سأتركها و هكذا سأتركها."

فرفعت رأسها فجأة و نظرت إلى وجهه المبتسم، ثم خفضت رأسها و قالت في نفسها:

"لولا أنني أعرفك يا آدم..."

و لم تكن في حاجة إلى الإكمال.

تنظر الآن و هي جالسة إلى حركة تنفسه.

لقد أخذت حياتهما منعطفا عجيبا. من عمله في المدرسة الذي اعتادا عليه إلى نشاط غريب يسميه مهنة أتى بكابوس ذهبي لا تدري متى يستيقظون منه.

تخشى على آدم بشدة من الغواية.

تخشى على خالد.

تخشى على نفسها.

قامت بهدوء و أخذت هاتف زوجها و خرجت إلى الشرفة. بحثت عن اسم شاكر جاد و ضغطت زر الاتصال. مرت مدة و الجرس يرن.

أخيرا جاء صوته النائم على الطرف الآخر:

"لا بد أنك متعجل بشدة إلى الأموال يا صديقي. اختيار صائب."

لكنه فوجئ بصوتها و هي تقول:

"ابتعد عن زوجي! هل تفهم؟!"

اندهش للحظات ثم استوعب و قال بنبرة ترحيب مصطنعة:

"أستاذة ليلى. كيف حالك؟ كيف حال آدم؟"

"ابتعد عن زوجي!"

سمعت ضحكته التي قال بعدها:

"هو الذي لا يريد أن يبتعد عني."

"إذا لم تكف عن جره نحو هاويتك فسأبلغ الشرطة بنفسي."

"ليس طفلا يحتاج إلى أمه! أم ماذا؟"

"هو أكثر رجولة منك. و هي جملة واحدة: ابتعد.. عن.. زوجي."

قالتها متقطعة بصرامة و أغلقت الخط في وجهه.

***

بعدما سمع صوت الخط المنتظم ابتسم باستهتار و هو ينظر إلى رقم آدم و قال:

"عائلة صعبة."

ثم خرج إلى شرفته الفسيحة الملحقة بحجرة نومه. جلس على مقعد و وضع قدما على

قدم على المنضدة أمامه.

نظر إلى النجوم و قال في نفسه:

"لماذا يا مديحة؟! لقد كدت أخلعك من رأسي تماما! بعد ست سنوات تظلين تطاردينني؟!"

أخذ يتذكر أيامه معها و كيف كان يفكر جديا في أن يستمر ملازما لها إلى آخر عمره لولا ما حدث.

مديحة قدمت له كل ما كان يتمناه.. و يا للسخرية بما فيه حسام أيضا.

قال بصوت مسموع و كأنها أمامه:

"آسف يا مديحة. لا ينفع. أبدا."

قام و نظر في ساعته فوجد الفجر قد اقترب. مضى يسير في أرجاء فيلته المتسعة و هو ينظر في أرجائها بعين جديدة كأنه لأول مرة يراها.

فكر للحظة:

"هل تقبل مديحة مالا و فيلا كهذه مثلا و ترضخ؟ هل؟"

توقف دقائق يفكر فلم يجد إجابة شافية.

مضى خارجا إلى الحديقة. وصل إلى حمام السباحة. ظل ناظرا إلى المياه. خطرت في رأسه فكرة رقص لها قلبه جذلا.

نادى على رئيس الحراس. أتاه مهرولا:

"شاكر بيه؟"

"تعال يا فوزي. أتستطيع السباحة يا فوزي؟"

ابتسم الرجل ابتسامة تعجب و قال:

"طبعا يا شاكر بيه. هل سقط منك شيء في الحمام؟"

"لا لا أنا سباح ماهر يا رجل لكن هناك أمر آخر. هل تسابقني يا فوزي؟"

زادت ابتسامة الرجل قائلا:

"سيادتك تكسب طبعا يا شاكر بيه."

"اترك هذا الكلام المنمق. أنا أسألك.. هل تسابقني؟ من يتعب أولا يكون هو الخاسر. إذا غلبتني أضاعف لك مرتبك خمس مرات."

الرجل أخذ يتنفس ببعض الصعوبة.

"طلبات سعادتك أوامر يا شاكر بيه."

ابتسم شاكر في جذل و قال:

"ليس الأمر كله عسلا. إذا غلبتك..."

سكت لحظة ثم قال:

"سأفصلك يا فوزي."

ابتلع الرجل ريقه بصعوبة ثم قال:

"سيعز عليّ فراقك يا شاكر بيه. لكنني أريد أن أثبت لحضرتك أنني جدير بمنصبي هذا. لا يمكنني التراجع."

"نعم أم لا؟"

"نعم."

"هيا. نادي أحمد و شعبان و حازم ليشهدوا السباق الكبير."

كان شاكر يعلم أنه وضع رئيس حرسه في موضع دقيق، و هو استمتع بهذه اللعبة كثيرا.

عندما استعدا و دوت الصافرة انطلقا كالسهمين. كانا متحاذيين تماما كأنما اتفقا على ذلك.

شوط، و الثاني، و الثالث، و هما على نفسة الوتيرة. أحيانا يتأخر رئيس الحرس نصف متر و أحيانا يتقدم نصف متر.

شوط رابع، و خامس، و سادس، و شاكر يفكر في حسام و تدفعه الرغبة المحمومة لحمايته في بذل مزيد من الجهد. و رئيس الحرس يفكر في الزيادة.

شوط سابع، و ثامن، و تاسع، و عاشر.

و شاكر انتقل تفكيره إلى الخائن الذي كشف لآدم عن مكان حسام. من؟! من؟!
و رئيس الحرس بدأ يصيبه الخوف عندما تأخر مترا عن شاكر.
ذهابا إيابا.شوط، و آخر، و بعده شوط، ثم آخر و شاكر يزيد الفارق بينه و بين رئيس حرسه. حتى توقف الرجل للحظات في منتصف الحمام و شاكر يبدأ الشوط الجديد.
أكمل رئيس الحرس و خوفه يدفعه إلى بذل مزيد من الجهد، لكن بعد خمسة أشواط أخرى أعلن استسلامه بسباحته نحو حافة الحمام مرهقا. عندما لاحظه شاكر و كان بالقرب منه، توقف عن السباق و سبح نحوه يساعده في الوصول ليمسك بحافه الحمام. أخذا ينهجان.
قال الرجل لشاكر:
"ألم أقل لـ... لك.. تكسب.. يا... شا... يا شاكر... بيه."
ابتسم شاكر و قال:
"أنت.. بطل يا فوزي."
ظلا دقائق حتى هدآ ثم قال للثلاثة بالأعلى:
"اشكروا رئيسكم، لقد تسبب في مضاعفة أجركم جميعا خمس مرات."
و قبل أن تزول من على وجوههم دهشة العجب و الفرح نظر إلى فوزي نظرة خاصة و قال بابتسامة واسعة:
"و تسبب في مضاعفة أجره عشر مرات."
ثم صعد تاركا إياهم يتساءلون عن تلك النزوة الفَجرية.

***

الفصل الرابع عشر

في الصباح و هو يتناول الإفطار قبل الذهاب إلى شركته رن هاتفه. ابتسم شاكر و هو يرى رقم آدم. فتح الخط.

"صديقي العزيز."

"سلامو عليكو يا أستاذ شاكر."

"و عليكم السلام يا رجل. من تغلب على الآخر؟"

"نعم؟!"

"من الفائز يا صديقي؟ أنت أم الشيطان؟"

رد عليه الصمت لثانيتين قال بعدها آدم:

"أنت يا أستاذ شاكر. أنت الفائز."

ابتسم شاكر جذلا و قال:

"عين العقل. هكذا يكون التفكير. طلباتك أوامر يا أستاذ آدم."

"المبلغ المتفق عليه. عشرة ملايين."

صمت لحظة ثم قال:

"لكن لك طلب واحد عندي سأنفذه. أن أكف عن البحث عن حسام."

اتسعت ابتسامة شاكر و قال:

"لا تطمع يا صديقي. عشرة ملايين مبلغ لا يستهان به أبدا."

"المسألة ليست طمعا."

"أمرك عجيب يا صديقي! ما هي إذن؟!"

صمت آدم لثانيتين ثم أجابه:

"لأنني ببساطة لا أعرف من أخبرني."

أحس شاكر بالتشنج في أعصابه. زالت ابتسامته و فتح أذنيه جيدا حتى لا يفوته حرف.

"ماذا تعني؟!"

"اتصل بي من رقم مخفي. رقم خاص."

صمت شاكر للحظات. فكر. إذن فذلك المتصل يعرف ما يفعل جيدا. عقله يأخذه في اتجاه يشير إلى الشخص المتهم. لكنه لا يستطيع أن يصدق اتجاه عقله بسهولة. لكنه يلح عليه. من غيره؟

لا لا يستطيع اتهامه هكذا. اعصر مخك يا شاكر. تذكر من غيرهم أخبرته كل ما يتعلق بحسام. من غيرهم تثق فيه إلى تلك الدرجة ثم يخونك؟! من غيرهم زل لسانك أمامه ثم نسيت؟ من؟ من؟

"أما زلت معي؟"

أفاق شاكر من خواطره. سأله:

"كيف كان صوته؟"

"صوت مكتوم يأتي من بعيد."

"ألا يمكنك التعرف على صوته؟"

"قلت لك كان مكتوما. صوت رجل لكنه رجل ليس بهاو. عندما يخفي رقمه لابد أن يخفي صوته."

"رجل شاب أم عجوز؟"

"أستاذ شاكر أنت تسأل أسئلة لا إجابات لها. لا أعلم."

صمت شاكر لحظة ثم قال:

"ماذا قال لك؟"

"أخبرني بمكان حسام."

"فقط؟"

"فقط."

صمت شاكر مفكرا. ما هذا المأزق؟! لا يمكنه أن يظل على عماه. لا بد أن يعرفه.

و ذلك الشخص المتهم لا يستطيع أن يسأله. لا يستطيع أن يجعله يشك فيه. صعب. صعب.

"ماذا تقول في طلبي يا أستاذ شاكر؟"

بصوت أجش أجابه:

"المبلغ سينقص."

"كاملا يا أستاذ شاكر.. لا ينقص مليما."

"لا تمزح. ليس هذا ما اتفقنا عليه."

"لم نتفق على شيء بعد. على العموم سأجد حسام. سلامو عليكو."

"انتظر يا آدم."

أخذ نفسا عميقا ثم قال و هو يضع رنة السخرية في صوته:

"لا بأس.. لا بأس. لكن ما هو الضمان؟"

"لا ضمانات. لديك كلمتي."

"يجب أن أضمن يا صديقي."

"مع السلامة يا أستاذ شاكر."

" انتظر.. انتظر."

صمت ثم قال:

"لم يلو أحد ذراعي هكذا من قبل. لكن لا بأس. فقط لأنك صديقي. صديقي العزيز. أنت فعلت الصواب يا رجل. لا تجعل ضميرك يؤنبك."

"لا فائدة من الحديث عن ذلك."

"لا.. حقيقة. يجب أن تفخر بنفسك لأنك فعلت الصواب أخيرا. حلال عليك النقود يا صديقي. لكن سؤال؟ هل أخذت الإذن من زوجتك؟!"

صمت آدم لحظة ثم قال:

"آسف بشأن اتصالها بك."

قال شاكر و هو يبتسم:

"لقد هددتني يا رجل!"

"آسف مرة أخرى."

ثم قال:

"أريده الآن يا أستاذ شاكر."

"هل انتهيت من التخطيط لأحلامك بهذه السرعة؟ إذن.. تعال و خذه."

"لعبة لا تنطلي عليّ يا أستاذ شاكر. سأعطيك تفاصيل حسابي المصرفي. حول المبلغ."

ضحك شاكر ضحكة مجلجلة ثم قال:

"هل ما زلت تشك في كلامي؟! المال مالك يا رجل. عندما أقول أنني سأعطيه لك فأنا أعني ذلك. لن تجد من يسطو عليك من جهتي و يسرقه. لن آخذه منك أبدا."

صمت لحظة ثم قال :

"على العموم لا مشكلة."

أملاه آدم تفاصيل حسابه.

قال شاكر:

"الآن و بأسرع ما يمكنني. لكن لو أخلفت وعدك يا صديقي لن يحدث خير أبدا."

و كرر الكلمة الأخيرة و هو يقبض على هاتفه بقوة و يقول:

"أبدا!"

"سلامو عليكو."

قالها آدم تاركا إياه غارقا في التفكير في حل لمشكلته الجديدة.

***

قبل أن يخرج من بيته استعلم عن حسابه و وجد المال كله قد حول إليه. هبط و أشار

إلى سيارة أجرة و استقلها ملقيا بالعنوان إلى السائق.

"هل تعرف حضرتك، اليوم بدؤوا يبيعون الـ..."

قطع سائق السيارة الذي يكبر آدم بعشرين عاما على الأقل حديثه عندما أشار إليه آدم إشارة مهذبة بعدم رغبته في الحديث؛ فهز السائق رأسه في تفهم ممتعض و نظر إلى الطريق أمامه.

أسند آدم مرفقه على الحد الفاصل بين باب السيارة و زجاجها و وضع خده على كفه و مضى في أفكاره.

ها قد أصبحت مليونيرا يا آدم. و في وقت قياسي. في لمح البصر. ماذا سيفعل الناظر إن علم أن الشخص الذي ظن أنه مجنون يرفض النعمة، أصبح الآن بإمكانه شراء مدرسة كاملة و ربما تعيين ذلك الناظر فيها ليقول له: لحم كتفيّ من خيرك يا آدم بيه؟

ترك خط الأفكار ذلك و بدأ في خط جديد.

على من تراهن؟ هل تظن أن يقتنع بسهولة؟

و إذا لم يقتنع فماذا تفعل؟

انتشله صوت السائق و هو يقول:

"وصلنا الشارع. إنه اتجاه واحد.. لا يمكنني الدخول."

أعطاه الأجرة و خرج.

مضى يسير متمهلا بعد العصر في الشارع الذي يقع في نهايته بيت صديقه الذي اتصل به آدم منذ ساعات. واضعا يديه في جيبي سترته كما اعتاد أخذ يفكر ثانية.

عندما أخبرته ليلى بما فعلته في الصباح ربت على كتفها و لم يعقب إلا بجملة واحدة:

"كل شيء سيكون على ما يرام بإذن الله."

ثم اتصل بصديقه و بعد التحية كان طلبه كالآتي:

"أريد منصور في أمر هام."

***

و منصور هو فتى في السابعة عشرة الآن و قد كانت لهما معه حكاية عجيبة.

يوما ما عندما كان آدم و صديقه يزوران صديقا ثالثا، و عندما غادرا شقته قبل المغرب بدقائق أثناء ما كانا يهبطان السلم، سمعا صوت زجاج يكسر. شيء عادي يحدث لا يثير الريبة. لكنهما عندما هبطا إلى بهو العمارة نظر صديقه إلى سيارته تلقائيا فوجد أحدا بداخلها على مقعد القيادة.

"أحدهم يسرق سيارتي يا آدم."

نظر آدم إلى سيارة صديقه. بدا له الوجه الذي كان منهمكا تماما في عمله وجه طفل لم يتعد الحادية عشرة بعد. سمع المحرك يدور فتحفز فورا و جريا نحو السيارة خارجين من العمارة يصرخان.

"قف.. أنت!"

كان آدم أسرع لكنه فور أن وضع يده على جسم السيارة كان سارقها قد انطلق بها بعنف. لم ينتظر آدم ثانية فانطلق في إثر السيارة جريا يلحق به صديقه.

"سارق! سارق!"

لكن السارق يطير، و آدم مع عزمه الشديد تزداد المسافة بينه و بين السيارة. عندما أبصرها و هي تخرج إلى الشارع الرئيسي ظن أن سارقها سينحرف يسارا، لكنه انطلق بها رأسا إلى الإشارة. كان هذا أغبى ما يمكن لمن في حالته فعله.

الإشارة متوقفة على اللون الأحمر و الفتى بدا و كأنه سيصطدم بأول سيارة متوقفة في طريقه.

زاد العزم و الأمل في قلب آدم و هو يرى الوضع الجديد. قال بالفعل:

"احترس.. اضغط على المكابح!"

و كأن السارق سمعه فتوقفت السيارة مصطدمة بالسيارة التي أمامها صدمة خفيفة.

عندما وصل آدم إليها كان صاحب السيارة المتضررة قد نزل و أخذ يصرخ في الفتى.

"ما هذا ؟! طفل صغير و زجاجك مكسور؟! أبوك اشتراها لك أم أخذت سيارته من وراء

ظهره؟! كم عمرك يا ولد؟!"

نظر آدم إلى وجه الفتى. كان مذعورا بشدة يكاد يبكي.

نظر إلى آدم كأنه يتعلق به.

سأله المتضرر بعنف:

"أأنت أبوه؟"

"لا. هذه سيارة صديقي."

و التفت خلفه فرآه قد وصل أخيرا. اجتمع الناس، و فَتحت الإشارة، و بدأ النفير.

نظر صديقه إلى الفتى فرأى ملامحه الطفولية المرعوبة بوضوح. يستنجد بمن سرقه!

أخذت أصوات الناس تتردد:

"إنه سارق."

"سارق."

"سارق صغير."

"يا عيني يا ولداه على الشباب!"

كانت الأخيرة من عجوز تسير متكئة على عصاها على الرصيف.

نظر آدم إلى الرجل و قال:

"حصل خير."

"ماذا ؟! من أين يأتي الخير و هؤلاء الملاعين الذين لا أهل لهم يسيرون في الشوارع يرتطمون بخلق الله؟!"

بحنق و غل و صوت جهوري قالها الرجل المتضرر.

أعادها آدم بنبرة ترضية:

"حصل خير. الحمد لله."

انصرف محنقا، و قبل أن يدخل سيارته ألقى نظرة سريعة على الضرر البسيط.

جعلت أصوات نفير السيارات خلفهما آدم و صديقه يتحركان أسرع.

نظر صديقه إلى الفتى و قال:

"تنح جانبا."

فانتقل بآلية إلى المقعد المجاور، و ركب آدم بالخلف و أخذ صديقه مكان الفتى و انطلق.

كان الصمت يخيم على الثلاثة. الفتى يرتجف ارتجافة خفيفة و يبتلع ريقه بصعوبة.

سأل بصوت مرتعش:

" هل.. هل ستسلمانني إلى الشرطة؟"

رد صديق آدم باقتضاب و هو ينظر إلى الطريق أمامه:

"لا."

"حقا؟!"

"نعم حقا."

أخذ يتنفس بصوت مسموع من فرط الإثارة و عدم التصديق.

"أين تريد أن تهبط؟"

" هنا. هنا أرجوك."

توقف صديقه بالسيارة و هبط الفتى مسرعا و قال:

"كرم حضرتك دين في رقبتي."

و نظر الفتى إلى آدم نظرة امتنان و كرر:

"دين في رقبتي يا عم."

رد صديق آدم:

"انتبه لدروسك يا بني. ابتعد عن أصدقاء السوء."

نظر الفتى إلى الزجاج المكسور و قال :

" أعطني عنوان حضرتك لأحضر لك ثمن ما كسرته."

"اذهب يا بني. لا تفعل ذلك مرة أخرى. لا تضيع نفسك."

و مال ليغلق الباب بنفسه و مضى تشيعه نظرات الفتى. بعد شارعين توقف و انتقل آدم إلى جواره.

لم يتكلما عن ما حدث حتى أوصل الصديق آدم إلى بيته.

نزل آدم و قال مبتسما:

"تعيش و تأخذ غيرها يا رجل يا طيب."

ضحك صديقه و قال:

"الحمد لله."

لكن صديقه اتصل به في اليوم التالي ليخبره بتعجب بأنه وجد من يطرق باب شقته و عندما فتح طالعه الوجه الطفولي عينه مادا صاحبه يده بنقود.

"كيف عرفت عنواني؟!"

ابتسم الفتى و قال:

"من المرور. لم أجد لحضرتك مخالفات لأدفعها. عرفت العنوان ببعض الود و التحايل معا."

"هل عدت إلى الإجرام."

"تبت. و الله تبت. كانت أول مرة و آخر مرة."

ضحك صديقه في الهاتف و هو يخبره عن حكاية الفتى عندما جلسا معا في حجرة الضيوف.

"اسمه منصور. في الرابعة عشرة. شكله أصغر من سنه بالفعل. في ثانية إعدادي. متأخر في الترتيب و ينجح بالكاد.

أبوه مات و أمه ربة منزل نزلت للعمل لإطعامه و أخته الصغيرة. قال إن رفاق السوء عرفوه على لصوص أغروه بما فعل. وعدوه بنصف ثمن السيارة بعد بيعها. لكنه قُبض عليه في أول عملية كما قال."

قالها و هو يضحك. أكمل:

"من شدة ارتباكه ذهب نحو الإشارة بدلا من الانطلاق في الشارع الفسيح. مسكين! أصر على أن آخذ النقود لكنني رفضت."

طلب منه أن يهتم بدراسته، و إذا أمكنه فليجد عملا يساعد به أمه على تحمل تكاليف المعيشة. و وعده منصور أن ينفذ لأجل خاطره. قبل أن يغادره أعطاه رقم هاتفه و قال:

"إذا احتجت أي خدمة في أي شيء أو الأستاذ المحترم الذي كان معك فاطلباها مني فورا. لا أعلم كيف أرد الجميل."

منصور الآن في أولى ثانوي و مستواه متوسط لكنه لم يعد يرسب. يعمل نقاشا في الأوقات المتاحة و يستطيع الصرف على نفسه.

وصل آدم إلى عمارة صديقه و صعد السلم قفزا. ضغط الجرس. فتح صديقه و دخل آدم مسلما عليه.

أخذه الرجل إلى حجرة الضيوف، و عندما طالع الوجه الذي رآه لأول مرة منذ ثلاث سنوات و لم يره من ساعتها ابتسم ابتسامة واسعة و قال:

"كبرتَ يا منصور."

***

الفصل الخامس عشر

عصر اليوم التالي.

جالس إلى المائدة و هو ينظر إلى الطعام دون أن يمد يده.

صوت المرأة الحنون من خلفه جعله يمسك بالملعقة فقط.

"لماذا لا تأكل يا حسام؟! سأحزن إذا لم تتغذَّ جيدا."

رفع حسام رأسه إليها و هي تجلس بجواره و تضع يدها على ظهره.

"هل سنبقى هنا كثيرا يا أبلة."

أخذت شهيرة نفسا عميقا مقدمة لإخباره بأنها مثله بالضبط.

"لا أعلم يا حبيبي. عندما يخبرني بابا سأقول لك."

"و المدرسة يا أبلة؟! لماذا لا أذهب إليها؟! لقد بدأت أحبها و أصبح لي أصدقاء!"

رفعت حاجبيها و أشاحت بوجهها في نفاذ حيلة.

"بابا وحده هو الذي يعلم يا حسام."

صمتت لحظة ثم قالت:

"هل مللت من وجودي معك؟"

بسرعة قال:

"لا أبدا يا أبلة. أنا أحبك و كأنك أمي التي ماتت. لكن أنا أريد أن أعرف لماذا لم أعد أذهب إلى المدرسة."

كلامه عن أمه و هو يقول إنها ماتت جاء ليشعل جرحها. أمسكت بالملعقة و أخذت تغرف من الحساء و تسقيه.

اتصل بها شاكر في الليلة التالية لأخذه حسام من المدرسة. أخبرها بعنوان الشقة التي بها حسام.

"ستجدين نديم هناك يا شهيرة. خذي إجازة و اذهبي لتبقي مع حسام. إنه يحبك. لا تخبري أحدا من كان بذلك. أتفهمين؟!"

"لا أفهم ماذا يحدث يا شاكر. إنني..."

قاطعها بلهجة حازمة:

"أرجوك يا شهيرة. ليس عندي بال للأخذ و الرد. نفذي ما أقوله. تذكري. إياك أن يعلم أحد بمكان حسام."

و أغلق الخط كما اعتاد.

نفذ الحساء فانتقلت إلى الخضراوات المقطعة و أخذت تطعمه.

"طيب، لماذا لا يأتي أبى إلى هنا و يجلس معنا؟! لماذا بعث الرجل الذي لا يتكلم ليأخذني من المدرسة بدلا من أن يأتي هو؟!"

"ماذا أخبرك في الهاتف؟"

"كلما أسأله يقول: سآتي عما قريب."

نفس ما يقوله لها و لا تفسير بتاتا.

ابتسمت ابتسامة خفيفة و قالت:

"عن قريب سنخرج كلنا معا إن شاء الله. أين تريد أن نذهب ساعتها؟"

"لا أعلم يا أبلة. قولي أنت."

سوت شعره و قالت:

"ما رأيك أن تكون أول فسحة لنا معا، التجول على ضفة النهر؟"

***

في ذات الوقت كانت مديحة قد عادت للتو من نوبة عملها. دخلت الحمام الذي يمكن بالكاد الوقوف فيه و غسلت وجهها. كشفت الغطاء عن باقي الأرز من البارحة و أخذت

ملعقة و جلست على كرسي متهالك شاردة الذهن في الأفكار، تلوك بآلية ما يدخل فمها.

أين أنت يا حسام؟! ماذا تفعل الآن ؟! بالتأكيد دخلت المدرسة يا حبيبي. فقط لو أراك ساعة و أموت لأصبحت قريرة العين تماما! هل أنت هنا أم بالخارج؟ ماذا قيل لك عني؟ سامحني يا بني. و سامحه أيضا. سامح أباك.

عضت على شفتها السفلى و أكملت رحلة الأفكار.

ماذا تخطط الآن يا شاكر؟ كيف يواجهك الأستاذ آدم؟ أنا أعلم سطوتك و قوتك. لكننا أقوى. نعم أقوى. و سيجد الأستاذ آدم لي ابني إن شاء الله. نعم سيفعل. إنه رجل بمعنى الكلمة. لكن هل يصمد أمامك يا شاكر؟ ستلعب به و لن تسمح له بمعرفة خبايا نفسك. أنا أعرفك جيدا. لكنه سيجد فرصة للإيقاع بك. ربنا معه و ينصره إن شاء الكريم. لكن هل سييأس الأستاذ آدم؟ هل سيأتي في النهاية و يقول لي: أنا آسف يا مديحة لقد فعلت ما بوسعي لكن شاكر كالسد المنيع لا يمكنني اقتحامه؟ ماذا يمكنني أن أقول له ساعتها؟ هل أشكره؟ واجب. ثم؟ هل أذهب إلى شاكر؟ أستعطفه؟ أقبل قدميه؟

هل يحن قلبه؟ ربما. لكن ما زال الأستاذ آدم يعمل. لم يفقد الأمل. فليوفقه الله. لن أفقد الأمل. يا حبيبي يا بني.

يا رب.

و قامت لتصلي، و تبكي، و تدعو.

***

في نفس الوقت أيضا كانت ليلى جالسة مع خالد، تساعده في بعض مسائل الرياضيات بعد أن خرج آدم بما أتى به.

تركته يحل و سرحت بفكرها مع آدم.

عندما عاد بعد الظهر و قد أحضر حقيبة لم تسأله عما بها. قرأت في عينيه أنه لا يرغب

في الحديث عنها. وضعها بحرص بين ملابسه و أغلق مصراعي باب دولابه. لم يتكلم على الأكل كثيرا. مازح خالدا مرة واحدة بلا حماس حقيقي. بعد الأكل دخل الغرفة و رجاهما ألا يدخلا عليه؛ فهو يريد أن يفكر بعمق و لا يريد أن يقطع عليه أحد تفكيره.

ترك خالد مسائل رياضيات السنة الابتدائية الرابعة التي يعمل عليها و أخذ يحدث أمه.

"ما له بابا يا ماما؟ إنني عندما أكون مقبلا على امتحان صعب لا يصيبني الهم كما رأيته على وجهه الأيام السابقة."

"لا تشغل بالك كثيرا يا خالد. العمل الجديد مرهق."

"فليعد إلى عمله القديم."

ابتسمت ابتسامة لا تخرج من القلب. تنهدت و قالت:

"صعب. أبوك من طراز خاص."

"ألهذا تزوجتِه؟ هل أحببتِه؟"

ضربت برقة كتفه بقبضتها و قالت مبتسمة:

"مالك أنت و هذه الأشياء يا ولد؟! ركز في مذاكرتك."

أخذته الحماسة و قال:

"بجد بجد يا ماما. هل أحببتيه أم كان زواجا و السلام؟"

ابتسمت أكثر و أكثر و قالت:

"اسأل أباك."

"أنتما تحيرانني بينكما. سألته يوما فقال لي اسأل ماما بنفس هذه الابتسامة على وجهه. أتعبتونني يا جماعة."

"أنت الذي تتعب نفسك يا خالد."

"لن أتركك قبل أن تجيبيني. و ها هو الكتاب."

و أغلقه و استند عليه.

"هيا يا ماما.. قولي قولي.. أنا أريد أن أذاكر. لا تضيعي وقتي."

ابتسمت أكثر. كان يمكنها أن تمتنع و كان سيعود إلى المذاكرة لكنها أخبرته:

"نعم أحببته. استرحت يا خالد؟"

رفع يده في حماس إلى ما فوق رأسه.

"هيييه. نعم هكذا."

سكت ثم قال:

"لماذا ؟ ألأنه من طراز خاص؟"

"هذا السؤال سأجيبك عنه السنة القادمة يا جدع. و لا نقاش آخر."

"ماذا؟! أمري لله يا ستي. سأصبر."

و عاد للمذاكرة .

لماذا أحبته؟

أجابت على نفسها داخل عقلها:

"ببساطة، لأنه آدم."

***

الفصل السادس عشر

واقفا أمام باب الشقة المصنوع من خشب فخم مد يده و ضغط على زر الجرس.

لم تمض عشر ثوان حتى فتح الباب. ابتسم نديم داخل شقته ابتسامة سخرية، انطفأت فورا بعد ثانية واحدة.

"هل يمكننا أن نتحدث قليلا؟"

ظل شبح السخرية باديا على وجه نديم. عقد ساعديه أمام صدره و قال:

"أهو أمر مهم لدرجة أن تأتي بنفسك إلى بيتي يا أستاذ آدم؟"

كان وجه آدم جامدا و هو يسأله مرة أخرى:

"هل يمكننا؟"

أشار نديم إلى الداخل بحركة استعراضية قائلا:

"بكل تأكيد. أنت ضيفي. تفضل."

لم يفسح الطريق له تاركا فرجة تكفي بالكاد لعبور آدم.

توجه آدم فورا نحو ما بدا له حجرة الضيوف. جلس على أول أريكة قابلته ووضع الحقيبة فوق المنضدة أمامه.

أتى نديم بعد دقيقتين و هو يحمل كأسين لمشروبين في يديه مباشرة. قال:

"ليس عندي غير هذا. أنت المخطئ لأنك لم تتصل قبلا. كيف عرفت عنواني؟"

"لا بأس. لم آت لكي أشرب. و الذي يسأل يجد الإجابة."

جلس نديم قبالة آدم على كرسي، و أخذ راحته تماما واضعا ساقه على ركبته و هو يرتشف عصير البرتقال ببطء ناظرا إلى الحقيبة السوداء على المنضدة.

"هل أصبحت رجل أعمال من ذوي الحقائب؟ آه. نعم. لقد أصبحت من أصحاب الملايين!"

و نظر له و الكأس على فمه بحاجبين مرفوعين في استهتار.

"المال لا يدوم. مرة يصبح في جيبك و الأخرى في جيب غيرك."

قالها آدم بروية.

"لكنك محظوظ. تعرف من أين تؤكل الكتف. هنيئا لك. ضربة موفقة."

بدأ آدم في السخرية قليلا:

"هل تريد ذلك المال؟"

انفرج فم نديم أكثر بقليل لتبدو ابتسامته الساخرة و التي تركها على فمه لثوان.

"هل أصبحت تفعل الخير؟! هل ستتبرع به إليّ؟!"

أخذ آدم نفسا عميقا و هو يقول:

"لا. بل أقوم بأعمال كما قلت أنت، و أعقد صفقات."

سكت لحظة ثم قال:

"أترغب أن تكون طرفا في إحداها يا أستاذ نديم؟"

"إذا كانت رابحة بالطبع و من يرفض. المهم ألا أخسر أكثر مما أكسب."

شد آدم قامته و أخذ وجهه طابع الجد و قال:

"هذه الحقيبة بها مليون. لك."

"علام؟"

"أريد حسام."

اتسعت ابتسامة نديم أكثر و أكثر و هو يتصنع العجب، ثم أطلق لأول مرة أمام آدم ضحكة سريعة بدت كصهيل الخيل.

"أنت ساذج جدا يا أستاذ آدم! أدهشني في البداية كيفية معرفتك بالمدرسة التي بها حسام. لكن إذا عرف السبب بطل العجب. أنت فاشل يا أستاذ آدم مع احترامي. ربما يمكنك أن تنتظر الرجل الخفي مرة أخرى ليخبرك. فلتنتظره."

"الفاشل يا أستاذ نديم هو من يرى الطريق الصحيح ثم يحيد عنه و يتجه إلى الطريق

الخطأ. لا بأس. لم آت لأعطيك محاضرة. أريد حسام يا نديم."

قرر نديم أن يجاريه في لعبته. قال:

"فقط مليون؟! أنت بخيل جدا. اجعل الأمر يستحق يا أخي. نعم مليون مبلغ كبير لكن هل تعلم كم مرتبي؟"

باغته آدم:

"هل أنت متزوج؟"

"هل العروس مع المليون ؟! كحزمة واحدة؟! لا.. لا. أنا لا أريد الزواج الآن يا أستاذ آدم."

أرجع آدم ظهره إلى مسند الأريكة و أسند ساقه على ركبته و قال:

"مرتب كبير و شقة تطل على النهر ذات أثاث فخم. ماذا تفعل في حياتك بكل ذلك؟"

"أسرار يا أستاذ آدم. أسرار لو علمتها لنازعتني عليها."

"اترك الكلام الفارغ و تكلم بجد من فضلك. انظر. هذا المليون هو مقدم. و لك تسعة أخرى عندما تنفذ المهمة!"

اعتدل نديم و بدا أن الكلام الجديد لم يكن يتوقعه حقيقة.

"من سيدفع كل ذلك؟! هل مديحة أصبحت من الأعيان؟"

"ليس من شأنك. لك النقود و فقط."

بدأ يبتسم و هو يقول:

"نعم.. نعم. أنا أفهم. الأستاذ آدم هو الأستاذ آدم لم يتغير. يفعل الخير للغير بأموال لا تحصى. أتريد أن تعطيني الأموال التي أخذتها من شاكر بيه؟"

"نعم.. هل يسبب ذلك لك مشكلة؟"

"بسهولة يا رجل تتخلى عن ذلك المبلغ الضخم؟! أنا أعلم حالك المادي."

"لأنني لست مجرما مثلكم."

"حقيقة إنها لمفاجأة كبرى. لكننا لسنا مجرمين يا رجل. كل أعمالنا شرعية تماما."

"ألا تخشى الحساب عند الله؟! الحساب عن عذاب أم لم تر ولدها أبدا."

تجهم وجه نديم و بقى واجما لنصف دقيقة ثم لانت ملامحه تدريجيا و هو يقول بسخريته:

"أنت تدير رأسي يا رجل. كل هذا فقط مقابل أن أخبرك عن مكان حسام؟!"

جاء الدور هذه المرة على آدم ليضحك.

"لا لا يا صديقي. أنا أريد حسام بشحمه و لحمه. أمامي. لن أبحث عنه."

"همم. لماذا؟ هل تعبت؟ أم وعدت؟"

كان يشير إلى وعده لشاكر بعدم بالبحث عن حسام.

"ليس من شأنك."

هز نديم رأسه و قال:

"صعب! صعب ما تدعوني إليه. هل تعلم ثقة شاكر بيه فيّ. هل تعلم أنه لا يعطى أحدا بسهولة هذه الثقة؟ هل تتوقع حقا أن أنفذ ما تطلبه؟"

"الأمر إليك يا أستاذ نديم. لا أضربك على يدك. ما قولك؟"

صمت نديم لدقيقة كاملة كان ينظر فيها بثبات في عيني آدم و هو يرفع حاجبيه بتلك الطريقة الساخرة. ثم بدأت الابتسامة تغزو وجهه ببطء و هو يقول:

"دعني أفكر."

"لا أحد يفكر في مثل هذا العرض. أستعير كلمات رئيسك. ربما التوصيف الصحيح سيدك."

"أتريد مني أن أغضب؟! لا. أنا لا أغضب. هل عندك مزيد مما تظنه سيثير حفيظتي. كلي آذان مصغية."

"ما قولك؟"

"ماذا أفعل بعد القبول يا أستاذ آدم؟! أأحرق نفسي ببساطة هكذا؟!"

"أنت أدرى بشؤونك. اذهب إلى أي مكان بعيد و افتتح مشروعا خاصا لو أردت. و مرة أخرى أقول لك ستتحرر من العبودية."

ما زالت ابتسامة السخرية على وجه نديم. قال:

"لا تتعلم يا صديقي. تحاول إغضابي و لن تستطيع."

"ما قولك؟"

صمت نديم للحظات ثم نظر إلى السقف و قال:

"أفكر."

قام آدم و قال:

"يومان لا أكثر. أتفهم؟ بالتأكيد رقم هاتفي معك."

و مضى خارج الحجرة و هو يقول:

"أعرف باب الخروج."

"و الحقيبة؟!"

التفت إليه آدم و قال:

"استحم بذلك المليون. ربما تنعشك رائحة أوراقه و تجعلك تفكر جيدا."

و مضى دون أن يترك له الفرصة ليعقب.

***

في رحلة المصعد للهبوط من الطابق الثالث عشر حيث يقطن نديم نظر آدم إلى نفسه في المرآة.

ها قد أخرجت كل ما في جعبتك يا آدم. شاكر قال لك أنه يمكنه أن يسلم نديم روحه فلِمَ تصر على إمكانية قبوله لعرضك؟

هل أعيتك السبل فبدأت تتخبط؟ أم أنك تراهن على طمعه في ثروة كبيرة؟ على كل فلتنتظر. استخرت الله ثم فعلت، فلتدع الله أن تكون النتيجة مبشرة.

عندما فتح الباب و تهيأ آدم للخروج وجد أمامه مباشرة من جعلته يتسمر دهشة.

"مديحة؟! ماذا تفعلين هنا؟!"

أصاب مديحة ارتباك شديد فأخذت تتلعثم و هي تحاول ترتيب الكلمات:

"أنا... أصل... أنا كنت..."

خرج آدم و تعبير الدهشة ما زال عالقا على وجهه.

مرت لحظات صمت كالدهور. ثم بدأت تبكي.

"أنا آسفة يا أستاذ آدم. لكنني لم أعد أحتمل أن أظل ساكنة."

"تعالي نخرج."

مضت بجواره صامتة و هي تغالب بكاءها.

أخرج منديلا و هما يخرجان إلى الشارع و أعطاها إياه.

أخذته متمتمة بكلمة شكر و أخذت تمسح دموعها.

مضيا يسيران حتى هدأت. نظر إليها و قال:

"ما الأمر؟ هل تعرفين من يسكن هذه العمارة."

"نعم."

و ابتلعت ريقها و قالت:

"نديم."

"ماذا كنت تريدين منه؟"

"كنت أريد أن أرجوه يا أستاذ آدم."

"ألا تعلمين نديم؟!"

"قلت ربما غيرته السنون."

"نديم خادم لشاكر و ما زال. فقط أرجو أن ينفع ما أعمله."

"هل كنت عنده يا أستاذ آدم؟! ماذا قلت له؟!"

"نعم. كنت عنده و كل ما أستطيع إخبارك إياه أنني لا أدخر أي شيء في سبيل عودة حسام."

نظرت له نظرة امتنان عميقة. قالت:

"أنت هدية من عند الله يا أستاذ آدم."

ابتسم ابتسامة خفيفة و قال:

"فقط أرجوك يا مديحة ألا تفسدي ما أعمله. اصبري."

"أنا آسفة. لقد كان الأمر أقوى مني. لكن أنا طوع أمرك. لن أفعل شيئا أبدا قبل موافقتك. أبدا."

أومأ آدم برأسه موافقا و قال:

"فَلْيُعِنا الله."

أدار رأسه و نظر إلى الخلف و أومأ برأسه مرة أخرى.

***

الفصل السابع عشر

ضبط عدسة التقريب و هو يضع آلة التصوير على عينه، و هو ينظر و يتأكد من وضوح الصورة في هذا الليل. أخذ يجرب التقريب و الإبعاد في حماس. البارحة فقط كانت أول مرة يمسك في يده بشيء كهذا. تعلم بسرعة من معلم بارع.

"هاااااووووم. كم الساعة يا منصور؟"

جالسا في المقعد المجاور للسائق، التفت منصور نحو صاحب السؤال الجالس إلى عجلة القيادة و ابتسم و قال:

"لم تصل إلى التاسعة بعد يا عم جمال. نم.. نم."

"ألم يهبط الرجل بعد؟"

"نعم لم يهبط. لقد نمت له جيدا في الصباح و أنا له بالمرصاد طوال الليل."

"قل لي يا منصور.. كم ستأخذ بعد نهاية الأمر؟"

كان منصور يكلمه من خلف ظهره مركزا على العمارة أمامه و عينه على آلة التصوير لا تفارقها. قال:

"لا شيء يا عم جمال."

"أمعقول؟!"

"نعم. لا تتعجب. أنا أدين بالفضل لهما. الرجلان الطيبان . لولاهما بعد الله لربما كان مستقبلي قد ضاع."

ضحك الرجل و هو يتعجب:

"حقا. ما حكيته عجيب جدا. أن يترك أحدهم من كان على وشك سرقته بنفس طيبة لا يحدث كثيرا."

استطرد في ريبة:

"لكن أنت قلت أنه سيدفع لي أجر الأيام التي سيستغرقها هذا الأمر. أليس كذلك؟"

ضحك منصور و قال:

"بلى. لا تقلق يا عم جمال. الأستاذ آدم سيعطيك كما وعدتك بالضبط. أنا أضمنه برقبتي. ثم إنك تجلس لتتسامر معي بدلا من السير بسيارة الأجرة طوال النهار و جزءا من الليل ثم لن تحصل من الزبائن على ربع ما ستحصل عليه. نم قرير العين."

قال الرجل الستيني:

"لم أعد أنام جيدا هذه الأيام."

فتح كيسا و أخرج شطيرة عرضها على منصور لكنه اعتذر فأخذ يأكلها بصمت.

عين منصور كعين الصقر و حواسه منتبهة تماما، و مع ذلك فقد دار في ذهنه سريعا ما دار بينه و بين آدم.

قال آدم:

"من فضلك يا منصور هناك خدمة بسيطة أود أن تؤديها لي، إن كان وقتك يسمح."

"أخدمك بعينيّ يا أستاذ آدم. أنت فقط تأمر."

"ألن أعطلك عن المدرسة؟ الأمر يحتاج تفرغا. نهارا و ليلا. و يجب أن تصطحب معك آخر و يكون معه سيارة."

لوح منصور برأسه بشدة. قال:

"أبدا أبدا. رامي صديقي العبقري سيشرح لي كل ما يفوتني. إنه الأول علينا يا أستاذ آدم. ليتني ربعه. شهر كامل لو أردت."

ابتسم آدم و قال:

"لا لا. هم ثلاثة أو أربعة أيام فقط لا أكثر."

فتح منصور جفنيه على اتساعهما و قال :

"كلي آذان مصغية."

تنحنح عم جمال و هو يبدأ الشطيرة الثانية. قال:

"ما اسم الرجل مرة أخرى يا منصور؟"

"نديم يا عم جمال. نديم محمود. و هو يسكن في الطابق الثالث عشر في هذه البناية. لقد وصفه الأستاذ آدم بدقة و أخبرني أنني سأعرفه فور رؤيته."

"ماذا يريد منه يا منصور؟"

تقلص وجه منصور غضبا و هو ما زال محملقا بتركيز عبر آلة التصوير.قال:

"هذا النديم مجرم! يعمل عند رجل أعمال كبير اسمه شاكر جاد. مجرم هو الآخر. خدع امرأةً فقيرة و عندما خلف منها أخذ الولد و هرب! الجبان! أمه تبحث عنه منذ ست سنوات!"

"و ما علاقة نديم هذا بالأمر؟"

"هو ساعد شاكر اليمنى. يعرف مكان الولد. فاوضه الأستاذ آدم ليحضره إلى أمه. لم تره في حياتها يا عم جمال! لا تعرف شكله! أتصدق ذلك؟!"

"و الأستاذ آدم، هل هو محاميها؟"

ابتسم منصور إلى آلة التصوير و قال:

"شيء مثل ذلك. إنه رجل عظيم الأستاذ آدم. ليتني عندما أكبر أكون خمسه."

لم يستفسر الرجل العجوز أكثر لكنه قال:

"شخص بتلك الخسة لن يفعل البر و الإحسان. بالتأكيد سيطلب مبلغا رهيبا. هل مع تلك المرأة ما يمكن أن تدفعه؟! أنت قلت إنها فقيرة."

لو أخبره منصور لربما جن الرجل. منصور نفسه كاد عقله يطير عندما أخبره آدم بالتفاصيل. و عندما رجع منزله جلس مع أمه و أخته للعشاء و كان بالكاد يسمع حديثهما و هو يفكر بالأمر، و قد زاد إكباره لآدم أكثر و أكثر.

"لا شأن لنا يا عم جمال. لكن خذها مني كلمة.. الأستاذ آدم رجل فريد من نوعه."

"ما المطلوب منا بالضبط يا منصور؟"

أخبره و هو يسترجع ما قاله آدم:

"هذه آلة التصوير الخاصة بي يا منصور. إنها تعمل جيدا في الليل أيضا. سأعلمك كيف

تستعملها. و لتُعَلِّم من سيأتي معك. سأذهب إلى نديم محمود و عندما أهبط من عنده تكون جاهزا أمام العمارة بالضبط. إيماءة واحدة مني و تبدأ عملك فورا."

"مجرد إشارة يا أستاذ آدم من بعيد لبعيد؟!"

"نعم يا منصور. نديم محمود ليس بالرجل السهل. فلتأخذ الحذر جيدا حتى لا يكشفك."

"هل هو خَطِر يا أستاذ آدم؟"

ابتسم آدم ابتسامة خفيفة. قال:

"هذا يتوقف على تعريفك لكلمة خطر. لكن على كل حال هو ليس بمجرم بتعريف القانون. لكنه كما قلت لك ليس بالسهل. ذكي و يقظ و يمكنه أن يكشفك بسهولة لو أخطأت. هل استوعبت الأمر يا منصور؟"

أشار منصور برأسه بسرعة في فهم.

أخذ آدم نفسا عميقا و قال:

"خذ حذرك. أريدك و من سيرافقك أن تتابعاه كظله ليل نهار.. في أي مكان يذهب إليه. و تأخذ صورة واضحة لكل أحد يقابله من مسافة آمنة. أي شخص يا منصور. حتى لو كان طفلا رضيعا. أتفهمني يا صديقي؟"

بسرعة أومأ منصور برأسه أن نعم.

أكمل آدم:

"أيضا. سجل عناوين كل الأماكن التي يذهب إليها. لا يفوتك منها مكان. اتفقنا يا منصور؟"

"اعتبر الأمر منتهيا يا أستاذ آدم. سأشرفك إن شاء الله."

ابتسم كل من آدم و صديقه و مضى الحديث بالثلاثة في أمور الحياة و هم يتعشّون.

***

الفصل الثامن عشر

" من يا نديم؟! من؟! أكاد أجن!"

أشار نديم بيده في يأس و هو يجلس أمام شاكر في مكتبه صباح اليوم التالي.

"الحقيقة يا شاكر بيه، لقد غلب حماري."

"أنت تعرفني جيدا يا نديم. أنا لا أتعاطى الخمر. لا أسكر. لا يمكن أن يعرف أحد مني عن حسام بتلك الطريقة."

بدا على نديم بعض التردد، لكنه حسمه و قال:

"لا أحد يعلم عن حسام غير أربعة يا شاكر بيه. حضرتك و الأستاذة شهيرة و أنا و... و..."

تردد مرة أخرى للحظات. أطال شاكر النظر إليه و هو صامت. زم نديم شفتيه و هو يبدي الحرج.

تلاقت خواطرهما معا لتدفع شاكر إلى الشك مرة أخرى في الشخص الوحيد.

"أتظن أنه من فعلها يا نديم؟"

"لا أستطيع الجزم يا شاكر بيه. لكن الأستاذة شهيرة هي من أخبرتك عن ذلك المدعو آدم. لا يمكن الشك فيها. و أنا... أنا أخدمك بروحي يا شاكر بيه. لا أعض اليد التي امتدت إليّ بكل الخير أبدا."

ابتسم شاكر و أخذ يمازح نديم:

"افترض يا نديم. مثلا. مجرد مثل. أن مديحة كانت امرأة غنية جدا و أعطتك كل ما لديها. كله. هل كنت ستشي لها بمكان حسام؟"

اندفع الدم في وجه نديم و بدا أن هذه من المرات القليلة التي يستثار فيها كهذا. قال:

"لو أعطتني الدنيا كلها يا شاكر بيه. أموت قبل أن أفعل ما يغضبك."

ابتسم شاكر أكثر و أكثر. قال:

"هون عليك يا نديم. أنا أضحك معك يا رجل. أنا أعلم يا نديم. أعلم مدى إخلاصك و تفانيك. هون عليك يا جدع."

"تحت أمرك دائما يا شاكر بيه."

رجع شاكر في كرسيه و وضع يديه خلف رأسه و نظر إلى السقف و قال:

"اذهب الآن يا نديم. أريد أن أقلب الأمر لآخر مرة و بعمق شديد و بروية و هدووووووء. لا تجعل أحدا يقاطعني."

"تحت أمرك."

***

في الليل كان ثلاثتهم في نزهة داخل أحد أكبر المراكز التجارية.

قال خالد:

"يااااه، الليلة المركز مزدحم جدا!"

كان آدم متأبطا ذراع ليلى و هما يسيران محاذرين الاصطدام بالناس من حولهما. رد على ابنه:

"افتح لنا الطريق إذن."

نظر خالد إلى أبيه خلفه. قال:

"وحدي؟"

فأجابه:

"و هل تستهين بقدراتك يا جدع؟ بهدوء و بلطف."

ابتسمت ليلى و هي ترى ابنها يحرك من يقف أمامه بيديه التي لا تكاد تصل إلى خصر أحدهم.

عبروا الزحام و توقفوا عند بائع مثلجات.

"فراولة يا بابا.. فراولة."

"و أنت يا ليلى؟"

"ماذا ستأخذ أنت."

"ملوخية."

ضربته في كتفه بلطف.

بتصنع قال:

"لا أمزح. لا أستبعد أن يكونوا قد صنعوها بالفعل."

"هل عندك ملوخية يا عمو؟"

أشارت ليلى إلى خالد و قالت لآدم:

"تفضل."

رفع الرجل حاجبيه و قال:

"نعم؟!"

أشار آدم إليه قائلا بابتسامة:

"لا لا. المعذرة. واحد فراولة و اثنين شوكلاتة من فضلك."

أومأ في تساؤل لليلى:

"شوكلاتة؟"

أومأت في قبول و قالت:

"شوكلاتة."

أخذوها و مضوا يتناولونها.

"ها هي المكتبة يا بابا."

"اذهب كما تحب يا خالد. خذ دورة و حدد الكتب التي تريدها. لقد جئت معي كثيرا، أنت تعرف مكانها. قصصك المفضلة. أليس كذلك ؟"

مضى خالد مهرولا و هو يلعق ما بيده قائلا:

"بلى."

ناداه آدم:

"اختر أيضا كتابا علميا تفهمه. كتابا به صور كثيرة. سننتظرك هنا. أمام هذا المتجر بالضبط."

"حاضر."

التفت آدم إلى ليلى و قال:

"جميل أن خالدا يحب القراءة."

"بلا شك."

كان المتجر الذي يقفون أمامه متجر أثاث فخم.

جال فيه آدم بعينيه. تصعدان و تهبطان على معروضات تكاد تتكلم و تقول: من يقدر عليّ. صفر بخفوت و قال:

"ما هذه الأسعار؟! من يشترى أشياء مثل هذه؟!"

"من معه."

"هممم. نعم.. من معه."

سكت ثم قال مبتسما و هو يلعق و يجول ببصره في معروضات أكثر:

"ما زال في حسابي تسعة ملايين."

"إذن تفضل. المتجر أبوابه مفتوحة."

قالتها مبتسمة. زادت ابتسامته و هو ينظر إليها.

صمتت ثم تنهدت وقالت:

"نحن الفائزون يا آدم. شاكر و من على شاكلته هم الخاسرون."

"بلا شك."

"هل اتصلت بمنصور؟"

تنهد ثم قال:

"نعم. قال إن نديم نزل من بيته إلى شركة شاكر ثم إلى بيته. لا أحد غيره ركب معه سيارته. لا جديد."

"كيف تطمئن إلى نديم ذلك يا آدم؟!"

"لا أطمئن، لكن ليس بيدي ما يمكن عمله أفضل من ذلك. فلننتظر الغد."

"و إذا لم يقبل؟"

رفع كتفيه علامة العجز. قال و هو يضغط على أسنانه:

"ذلك الرجل المجهول. بالتأكيد هو مقرب من شاكر ليفصح له عن سره. مقرب بشدة. المفتاح عنده."

"ألا يمكن أن يكون نديم؟"

قطب جبهته و قال:

"أمعقول؟!"

"الله أعلم. ربما يكون له غرض ما. نحن لا نعرف عنه شيئا نديم ذلك."

شغل عقله ذلك الاحتمال بشدة. حضر خالد و قال:

"لقد اخترت. هيا لنشتري."

مضوا و آدم يقول في نفسه:

"لو كان حقا ما تقولينه يا ليلى إذن فهي ملهاة!"

***

"الرجل يمضى كالمعتاد يا منصور."

تأتأ منصور في خفوت. قال:

"لا أعلم يا عم جمال ماذا كان يرجو الأستاذ آدم منه أن يفعل!"

"لقد شعرت من حديثك أننا سنطارد الرجل في حواري و شوارع! نفقد أثره حينا ثم نجده حينا آخر إن كنا محظوظين."

تنهد منصور و قال:

"و أنا مثلك. لكن ما المشكلة؟ فقط سنعمل ما علينا بكل دقة."

"مهمة سهلة جدا. أكاد أجزم أن الغد سيكون مثل اليوم. اسأل الأستاذ آدم إذا كان يريد شخصا متفرغا لمهام مثل تلك. إذا كان سيدفع كما وعد."

"قلت لك يا عم جمال لا تقلق إن..."

بتر عبارته عندما أبصر في آلة التصوير نديم و هو يخرج من باب عمارته.

"ها هو يا عم جمال. استعد للتحرك."

أدار الرجل مفتاح سيارته.

امتقع وجه منصور و هو يرى نديم و كأنه ينظر إليه بالتحديد. كان قادما نحوهما.

" إنـ... إنه قادم يا عم جمال، قادم إلينا!"

"ماذا؟!"

داس على البنزين مدفوعا بالتوتر لكن منصور حذره بقوة:

"توقف يا عم جمال. سنُكشف تماما هكذا."

فعل الرجل و دقات قلبه تتزايد. أخذ يتحرك في مقعده بعصبية و قال:

"ربما لا يقصدنا بالذات يا منصور."

وضع منصور آلة التصوير على المقعد بجواره و ضغط على فخذ الرجل و هو يرى نديم يقترب منهما. قال:

"تماسك يا عم جمال. لا تفضحنا."

كان نديم الآن على بعد خطوات. نظر منصور أمامه بثبات بعيدا عن وجه نديم و كأن شيئا لا يعنيه.

وقف بالضبط بجوار باب منصور و هو ينظر في الاتجاه الآخر.

ثم بهدوء أحنى جذعه ملتفتا و أطل برأسه على منصور و قال بصوته المميز :

"هل تحتاجون مساعدة؟ هل بالسيارة عطل؟"

نظر منصور إلى وجهه الثابت في الليل تحت ضوء عمود الإنارة. أخذ يطمئن ببطء. قال بصوت بذل أقصى ما بوسعه للسيطرة عليه:

"لا شكرا."

ظهر شبح ابتسامة على وجه نديم و قال:

"أي خدمة. لا تنس أن تبعث له بتحياتي."

هوى قلب منصور في قدمه و هو يسأله:

"من؟!"

اعتدل نديم و ابتسامته باقية على وجهه و هو يمضى مبتعدا ببطء واضعا يديه في جيبي سرواله دون أن ينطق كلمة أخرى!

***

الفصل التاسع عشر

"أنا آسف يا أستاذ! لقد خذلتك!"

كانت الجملة هي التي اختتم منصور بها حديثه الخافت في الهاتف إلى آدم صباح اليوم التالي. أفضى إليه بما حدث و المرارة لها طعم في حلقه.

سكت آدم هنيهة، ثم تنهد تنهيدة خيبة أمل و قال:

"لا بأس. لا بأس يا منصور. إنه متمرس. ماكر كما أخبرتك. لقد فعلت ما عليك."

علا صوت منصور في مناشدة بها بعض الأمل:

"ألا يمكن يا أستاذ ألا يكون قاصدا إياك؟ لم يخبرني باسمك. ربما ظن شيئا آخر."

"لا لا يا منصور. الأمر انتهى. إنه يحب أن يلعب. يحب أن يجعلك حائرا."

وصل زفير منصور الساخط إلى أذنه. تكلف آدم ابتسامة و قال:

"يا رجل. لا تبتئس. صدقني أنا ممتن لك بالفعل."

سكت لحظة ثم قال:

"فقط استمرا في المراقبة حتى نهاية اليوم كما كنتما بالضبط. كل شيء سيحسم الليلة بإذن الله."

"طلباتك أوامر يا أستاذ!"

"مع السلامة يا منصور."

"في أمان الله يا أستاذ."

بعد أن أنهى المكالمة وقف آدم كالتمثال لدقيقة.. يفكر.

ألن أصل إلى آخرك يا نديم؟! تريد أن توصل إليّ هذه الرسالة.. إنك مسيطر تماما و إننا هواة نلهو حولك. لا بأس. أعترف بذلك. اقبل أو ارفض . فلتكن أنت الرجل المجهول الذي اتصل بي أو لا تكن. لكن خلصني يا هذا. الخوف كل الخوف أن تستمر في

تلاعبك بي يا نديم. ما هو آخرك؟ ما هو؟

و قد خلصه نديم قبل الليل و أظهر له آخره.

بعد الظهر بقليل اتصل به. أول ما ابتدأ الحديث قال بنغمته شبه الساخرة:

"لا تلم الصغير و سائقه. ما زال صغيرا."

"لا أنتظرك حتى تقول لي ذلك. هل وصلت إلى قرار؟"

تجاهل نديم سؤاله و أكمل:

"عندما تمر بسيارتك على نفس سيارة الأجرة ذات الطراز القديم نزولا من بيتك إلى عملك، ثم خروجا من عملك إلى بيتك.. ثم تذهب لتتأكد بنفسك. و في كل الحالات نفس هيئة من بها تتكرر. عندها لا تحتاج إلى تفكير عميق."

قال آدم بإصرار و بصوت أعلى:

"هل وصلت إلى قرار؟"

رد عليه بكلمة واحدة:

"حوّل."

"ماذا؟!"

"حوّل التسعة ملايين إلى حسابي."

أخذ قلب آدم يخفق أسرع. أخذ معدل تنفسه يتسارع هو الآخر.

"ماذا قلت؟!"

"هل ترفض؟"

ابتلع آدم ريقه و قال:

"كيف ستحضره؟ أين هو؟"

"تؤ تؤ تؤ. النقود أولا. لا تجعلني أستهين بذكائك عندما تستهين بي هكذا."

"وكيف أتأكد أنه بالفعل حسام. أريد أن أراه أولا."

"و هل تعلم شكله؟"

"أرأيت يا نديم؟! هذه مخاطرة كبرى مني!"

"اقبل أو ارفض. الأمر إليك. أمامك... هممم.. لنقل ثلاث.. لا بل خمس دقائق لكي تفكر. أنا على الخط."

يعلم آدم أن نديم يعلم أنه لا خيار حقيقيا أمامه.

نفخ ثم قال:

"لن أحول النقود قبل أن يكون حسام على بعد خطوات مني."

"إنه معي بالفعل. أنا في الطريق إلى حديقة حيوانات الغد. صغيرك الذي يراقبني ورائي من على مسافة."

زادت الإثارة في قلب آدم.

"فقط أَسمعني..."

قاطعه نديم ملقيا إليه بالعنوان و تفاصيل حسابه و قال:

"المصرف على بعد خطوات منها. لن أنتظر طويلا."

و أغلق الخط فورا.

***

أشار إلى أول سيارة أجرة بعد أن نزل مهرولا. ركب و أعطى العنوان إلى السائق. هاتفه في يده. طلب منصور.

"نعم يا منصور.. اسمعني جيدا.. أنت خلف نديم أليس كذلك؟"

"نعم. الوغد يقود سيارة بزجاج معتم. كان قد توقف بها أمام منزل سجلت عنوانه و ما هي إلا لحظات قبل أن أفطن إلى ما يجري، كان بابها الآخر قد فتح و دخل أحدهم بسرعة. قصير القامة على ما يبدو. لم أستطع رؤيته يا أستاذ."

"حسن يا منصور. اسمع. لا تجعله يغيب عن نظرك أبدا. لقد أخبرني أن حسام معه.

هذه فرصة لا يمكن تضييعها."

رفع السائق حاجبيه في ريبة و هو ينظر إلى آدم بطرف عينه.

رد منصور:

"أحقا يا أستاذ؟! هل رضخ أخيرا؟!"

"أتمنى يا منصور. أتمنى. سيذهب بالصغير إلى حديقة حيوانات الغد. خذ العنوان لتكون على بينة قبل أن يوصلك هو إليه."

ألقى به إليه و قال:

"احترس يا منصور."

انتهت المحادثة و ظل آدم واجما يتطلع إلى الأفق من خلف زجاج السيارة الأمامي.

"حضرتك شرطة."

بصيغة الإثبات كأنه يقرر أمرا واقعا.

التفت آدم إلى السائق. هز رأسه أن لا.

"مخابرات؟"

تنهد و هز رأسه مرة أخرى.

"خاطف أطفال؟"

توقف آدم عن التنفس للحظات ثم لم يتمالك نفسه و بدأ يبتسم على استحياء. ابتسامة خففت من بعض توتره.

ضحك السائق و قال:

"لا أجد توصيفا آخر."

رد آدم:

"العكس هو الصحيح."

تسائل الرجل:

"منقذ أطفال؟ ألم أقل لك إنك شرطة؟ لكنك لا تريد أن تفصح. أليس كذلك؟"

لم يرد آدم.

"و الله حرام ما تفعله تلك العصابات المجرمة! حرام جدا! ما ذنب هؤلاء الأطفال الأبرياء! ربنا يردهم إلى أهاليهم سالمين.. و ينتقم من هؤلاء المجرمين.. قل آمين."

أمن آدم من قلبه بصوت خافت.

لم يبتعد الرجل كثيرا. نعم مخطوف. و خاطفه يرى أن ذلك من حقه و يجادل و ينافح عن ذلك. يا للسخرية!

خيم الصمت عليهما باقي الوقت حتى أبصر آدم اللافتة الكبيرة و خلفها تمتد المساحات الشاسعة.

"الحديقة يا حضرة الضابط."

تكلف آدم الابتسامة و مد يده بالنقود. قال الرجل:

"اجعلها عليّ هذه المرة. حقا.. لا أمزح."

لكنه أخذ النقود في النهاية و ترجل آدم و مضى الرجل و هو يقول:

"ربنا يهديهم هؤلاء المجرمون. و إن لم يهتدوا ربنا ينتقم منهم. قل آمين."

ربنا يهديك يا نديم و تصدق. هكذا فكر آدم و هو يتابع ببصره السيارة المبتعدة.

نظر حوله. العائلات تتوافد على الحديقة. آباء و أمهات و أطفال فرحون. لم يبد أثر لسيارة نديم، أو منصور. نظر عبر الشارع فوجد المصرف كما أخبره. نظر في ساعته. لم يتأخر كثيرا. لا يمكن أن يكون قد نفذ وعيده و رحل. همَّ أن يتصل به لكنه سبقه.

"نعم يا نديم أنا أمام الحديقة."

"لا أريدك أمام الحديقة يا أستاذنا الكبير. أريدك داخل المصرف قبل أن يغلق."

"لحظة واحدة يا نديم.. فقط أريد أن..."

قاطعه بحدة بدت غريبة على شخصه:

"لا أريد كلاما كثيرا.. نفذ. إذا لم أرك كما قلت فانس الموضوع."

أغلق الخط. كان آدم يود لو يسبه. ضغط على الهاتف بغيظ حتى كاد يحطم شاشته.

مضى بخطىً متثاقلة نحو المصرف. أخذ دوره. قال من في الاستقبال و هو يعطيه بطاقة دوره كأنه يصبر نفسه:

"العميل الأخير."

كان قبل آدم أربعة فقط.

رن هاتفه.

"نعم."

"أين أنت؟"

بصوت متثاقل النبرات قال:

"بالداخل."

"جيد. ابدأ بالتحويل. دقيقة و سأصل."

"ما زال أمامي ثلاثة."

"جيد. سأريك جزءا."

"ماذا؟!"

و أغلق نديم الخط.

مرت دقيقتان. رن هاتفه. بادره نديم قبل أن يتكلم.

"انظر نحو الباب."

حول آدم بصره بسرعة. سيارة فخمة بزجاج معتم أمام باب المصرف بالضبط.

هبط زجاج الباب المقابل للسائق قليلا. رأى آدم نديم في مقعد القيادة من بعيد. حياه في الهاتف:

"مرحبا يا عبقري."

"حسام؟"

كلمة واحدة تغني عن جمل.

ابتسم نديم أمامه ابتسامته المؤقتة و انحنى على المقعد بجواره و رفع بيده يدا أخرى.

يدا صغيرة بذراع صغير لطفل بالتأكيد صغير.

لوح نديم باليد الصغيرة أمام عيني آدم و قال بصوت يحاكي صوت الأطفال:

"حسام يحييك يا عمو آدم. ابعث الأموال الآن إلى عمو نديم. الآن يا عمو."

ندَّت عن آدم حركة مفاجئة للتوجه نحو السيارة إلا أنه كبحها بصعوبة. رفع نديم الزجاج المعتم مرة أخرى و قال في الهاتف:

"تؤ تؤ.. أنظر أمام .. أنت التالي."

ظل آدم للحظات يرنو إلى السيارة ثم مضى نحو النافذة.

"في خدمتك."

أعطاها آدم ورقة و يده تتحرك بها ببطء. قال:

"أريد أن أحول كل المبلغ في حسابي باسم آدم أحمد المنشاوي إلى هذا الحساب. المبلغ تسعة ملايين."

أجابته الفتاة و ملامحها تتغير استهوالا:

"تمام."

مضى الوقت و هي تعمل أمامها.

سألته:

"كله حضرتك؟"

بوجوم قال:

"نعم."

أنهت عملها بعد دقيقتين. شكرها و تحدث إلى نديم.

"تم التحويل.. أخرج حسام."

"دقيقة لأتأكد يا أستاذنا."

بعد أن أجرى اتصاله عاود الاتصال بآدم الذي ظل يرنو إلى الزجاج المعتم.

"سعدت بشدة للتعامل معك يا أستاذ آدم."

فُتح الباب ببطء فأخذ آدم يهرول نحو السيارة.

طالعه منظر جانبي لوجه طفل صاف. طفل في السادسة.

ناداه آدم بصوت عال و ما زال داخل المصرف:

"حسام!"

استجاب الصغير بسرعة لندائه. حول بصره نحو آدم. هبط من السيارة و وقف منتظرا آدم الذي قطع الأمتار الباقية عدوا.

هبط آدم ليجلس القرفصاء و هو يمسك بكتفي الصغير.

"هل أنت حسام؟"

"نعم يا عمو."

"حسام شاكر جاد؟!"

"نعم."

نظر آدم خلف الصغير و أبصر نديم يبتسم هذه المرة بشدة. لوح له بيده كتحية، و قبل أن يقوم آدم و ينطق حرفا أغلق الباب و مضى.

"انتظر!"

ثوان و كان قد وصل إلى آخر الشارع ثم انعطف ليغيب عن بصر آدم.

تحول آدم إلى الصغير الذي كان ينظر إليه نظرات متسائلة.

"ألن ندخل الحديقة يا عمو؟ أريد أن أرى فرس النهر. لقد ذهبت إلى حديقة الحيوان مرة واحدة فقط. عمو نديم قال لي أنك ستدخلني الحديقة."

كان منصور قد حضر و عندما أبصر آدم طلب من عم جمال التوقف.

نظر منصور إلى الصغير و سأل و هو يهبط:

"عذرا يا أستاذ لقد أغلقت الإشارة علينا. أهذا هو حسام؟"

التفت الصغير إليه و رد نيابة عن آدم:

"أنا حسام يا عمو.. أريد أن أدخل الحديقة."

نظر منصور إلى آدم في تساؤل. لكن قطع الصغير أفكارهما و هو يقول فاردًا كفه و ملوحا به كأنه يشرح:

"الآن أنا حسام.. بعد قليل سأرجع. لكنني أريد أن أدخل الحديقة أولا."

نظر آدم إليه في تساؤل و رد الصغير على تساؤله بخطاب أخرجه من جيبه و قال:

"هذا لك يا عمو."

أمسك آدم الخطاب في توجس. فض الظرف. جرت عيناه على الكلمات بسرعة. أخذ وجهه يتغير.

فجأة رفع آدم رأسه نحو منصور بفزع و هو فاغر فاه! في الثانية التالية حول وجهه كالبرق نحو الاتجاه الذي مضى فيه نديم و اختفى.

"ألن ندخل الحديقة؟"

***

الفصل العشرون

كان منظرهم فريدا!

أربعة في أعمار مختلفة، أحدهم يهلل و يضحك و الآخرون مستاؤون.

رجل عجوز، و آخر في نصف عمره، و الثالث في نصف عمر الثاني تقريبا، و الرابع أصغر من نصف عمر الثالث.

حل الأحجية بسيط. لقد دخل آدم و من معه الحديقة.

كانت الحديقة تعج بالعائلات. آباء، و أمهات، و أطفال من كل الأعمار. صعب أن يكون هؤلاء الأربعة من عائلة واحدة.

"فرس النهر.. فرس النهر هناك يا عمو!"

قالها الصغير و هو يشد آدم من سرواله و يشير بيده، ثم مضى دون أن ينتظر الرد.

تابعه آدم ببصره و قد بدا على وجهه و كأنه كبر مئة سنة. مضى خلف الصغير واضعا يديه في جيبي سترته. تبعه منصور و العم جمال صامتين.

الطفل وجد لنفسه فرجة في الزحام تمكنه أن يرى فرس النهر جيدا.

"تعال يا عمو. أنظر إلى فمه و هو يفتحه! كبير! كبير جدا!"

"ماذا سنفعل يا أستاذ؟"

نظر آدم إليه بآلية. ابتلع ريقه في مرارة. حول بصره إلى الصغير المستمتع بشدة. أطلق تنهيدة عالية.

"لم يعد في جعبتي شيء يا منصور. لقد أفلست."

"ذلك اللص المجرم! لو رأيته لـ... لـ..."

لم يجد منصور ما يمكن أن يتلفظ به.

قال عم جمال:

"أنا آسف يا أستاذ آدم. ربنا يعوضك في نقودك. كم كانوا، مئة ألف؟"

بادره منصور و عيناه متسعتان في غضب قائلا:

" أهذا وقته يا عم جمال؟!"

أخذ آدم يسترجع في ذهنه ما قرأه في الخطاب سطرا سطرا كأنه يحفظه:

"تحية هائلة إليك يا رجل يا طيب. اعذرني.. لقد عملت بنصيحتك و استحممت بالمليون لكن و يا للأسف لم يجد ذلك.

لقد قالها لك شاكر بيه و أنت حاولت ألا تصدقه. أنا لا أخونه أبدا. هذا الصغير الجميل الذي معك ليس حسام. اسمه كريم.

يريد أن يدخل الحديقة. لم يرها منذ عامين. و هكذا أخذته من أبويه ليرى الحديقة و يعود بعد ثلاث ساعات. هكذا أخبرتهما.

العنوان عندك بالأسفل. لا تؤخره عن أهله يا بطل. و من فضلك بعد أن يخف وقع الصدمة عليك لا تكسر قلبه. أدخله الحديقة. و كما قلت لك لقد سعدت بالتعامل معك. إلى اللقاء يا عزيزي."

"لن أمل منه أبدا يا عمو. انظر.. انظر كيف يهبط إلى الماء! كيف يظل طافيا بهذا الحجم الضخم؟!"

طعم المرارة في حلق آدم لا يريد أن يزول.

"هون عليك يا أستاذ. بإذن الله ستضحك أنت في النهاية و ستضحك كثيرا. صدقني."

نظر آدم إلى وجه الفتى الممتلئ عزما و تصميما و غضبا. سند ذلك قلبه شبرا.

"لا اعلم كيف أخبرها يا منصور. لقد وضعت آمالا كبيرة عليّ."

"قدر الله يا أستاذ. أنت لم تقصر. أنت.. أنت أنبل من قابلتهم في حياتي. أحد غيرك لربما أغواه الشيطان بتلك الأموال الهائلة. أنا نفسي لا أعلم كيف كنت سأتصرف إن كنت في موقفك. لقد سألتك منذ قليل ماذا نفعل أليس كذلك؟ لكن أنا أقول لك الآن. تعال نتعشَّ في بيتنا الليلة. فلتنس ما حدث و غدا نفكر بعقل هادئ. ستُحل إن شاء الله."

مواساة، و إطراء، و تشجيع، و أمل.
أومأ آدم برأسه في بطء أن نعم. نادى منصور الصغير:
"كريم.. كريم.. هيا لترجع إلى البيت."
"دعني أبقى قليلا يا عمو الصغير! لم أشبع منه! قل له يا عمو آدم!"
عمو الصغير؟!
أحيانا يأتي الأطفال بكلام غير متوقع.

***

فتح الباب و نظر إلى الثلاثة أمامه في تساؤل ثم خفض بصره لينظر إلى ابنه المبتسم.
"أخيرا ذهبت إلى الحديقة يا بابا. يا كسلان. عمو آدم و من معه أجدع منك و من ماما."
أخذ الصغير بيد آدم ودخل مهرولا.
"تعال يا عمو. أين الكرة يا بابا؟"
أفلت يده و ذهب يبحث عن الكرة. أخذ آدم نفسا عميقا و سأل الرجل:
"هل تعرف نديم محمود؟"
"مساعد شاكر جاد؟"
"بالضبط."
"زوجتي تعمل في إحدى شركاته. هل كان كريم مهذبا معكم؟"
قطب آدم جبهته أكثر عما كانت عليه و رد سؤاله بسؤال:
"هل كنت تعرف ماذا يفعل معنا؟"
"يتفسح."
بسط آدم جبهته في استغراب. سأله:

"مع أغراب؟!"

خفض الرجل بصره إلى الأرض. لبث لحظة ثم قال:

"ادخلوا. سأحضر زوجتي."

أغلق الباب خلفهم و أشار إلى حجرة الجلوس و مضى إلى الداخل يناديها:

"ماجدة.. يا ماجدة."

عندما دخلت عليهم كان زوجها خلفها. رحبت بهم و جلست و بقى هو على الباب.

نظرت في الوجوه و سألت:

"أستاذ آدم؟"

فرد عليها لتنظر إليه. بادرته:

"شكرا لحفاظك على ابني. يقول إنك أدخلته الحديقة. نحن ممتنون."

رد آدم بصوت غريب لا يعرفه:

"العفو. شرا تعمل خيرا تلقى. المثل معكوس. لكنه ينطبق على الحقيقة."

خفضت بصرها في اعتراف واضح بالذنب.

"كم أعطاكِ لتعطيه كريم من أجل التمثيلية؟"

قبل أن ترد جاء الصغير يحمل الكرة و يقول:

"من يسأل عني؟ ها أنا."

تجاوز أباه و انطلق نحو آدم يقول:

"هيا بنا يا عمو آدم. تعال أنا و أنت و عمو الصغير و الرجل العجوز نلعب مباراة بالأسفل. سنترك بابا و ماما لأنهما من الكسالى."

رفعت ماجدة عينيها إلى ابنها و قالت بصوت مرتعش:

"أدخل حجرتك الآن يا كريم."

نظر إليها و قال:

"لا! أريد أن ألعب معهم!"

نظرت إلى زوجها نظرة معبرة. تقدم في آلية و أخذ بيد ابنه ليسحبه إلى الداخل.
أخذ الصغير يصرخ و هو يقاوم أباه.
"اخفض صوتك ستوقظ أخاك. لقد أفلحت في جعله ينام منذ قليل."
قالتها ماجدة بهمس كأنها تخشى أن يوقظ صوتها هي الصغير الرضيع.
توجه آدم بالكلام إليه:
"اذهب مع بابا يا كريم. نحن متعبون اليوم. يوم آخر سنأتي و نلعب معا إن شاء الله."
وقف صامتا في خيبة أمل للحظات ثم قال:
"وعد؟"
"وعد."
أفلت الكرة فتدحرجت نحو قدم منصور و مضى مع أبيه.
عاد آدم ببصره إليها و أعاد السؤال:
"كم دفع؟"
بنفس الصوت المرتعش أجابت:
"عشرون ألفا."
"سلَّمْتِه الولد بكل سهولة؟! ألم تخشي عليه أن نختطفه؟! ماذا أخبرك عن هدفه؟"
حاولت أن تتماسك و قالت:
"قال أنها مجرد لعبة. لم أكن أستطيع الرفض."
"أعطيتِه ابنك ليلعب به لعبة؟!"
لم تجب. مضت ثوان و قالت:
"كنت أعلم أن كريم سيكون بخير."
ركز بصره على عينيها في صمت. لم تستطع رفعهما إليه. جمد المشهد هكذا لدقيقة.
قام آدم فقام منصور و العم جمال يتبعانه. رفعت بصرها أخيرا و نظرت إليهم في حزن و هم يغادرون.

قبل أن يمضي آدم تحدث إليها قائلا:
"سلمي لي عليه."
بصوتها المرتعش سألت متعجبة:
"نديم؟!"
"كريم."
و مضوا تشيعهم نظراتها.

***

الفصل الحادي و العشرون

"جدع ذلك الفتى منصور. كلامه مضبوط مئة بالمئة."

قالتها ليلى و هي تناوله صحن الفول على المائدة صباح اليوم التالي. أخذه آدم منها ثم وضعه أمام خالد و قال:

"لقد أخذت أمه تدعو لي على العشاء البارحة كثيرا. عائلة طيبة. هل تصدقين أنها في الستين. خلفته على كبر."

"لماذا هو جدع يا بابا؟"

ردت ليلى و قالت:

"لأن أباك هو من سيضحك في النهاية إن شاء الله."

"يضحك على ماذا؟"

رد آدم:

"تعني سننتصر في النهاية."

سأله:

"و ترجع لها ابنها؟"

ثبت آدم نظره على البيض أمامه للحظات ثم قال:

"أتمنى."

ثم تنهد و قال:

"هيا حتى لا تتأخر على المدرسة."

عندما هبطا و تركاه وحده بالمنزل حضر لنفسه كوب شوكلاتة ساخنة و فتح باب الشرفة. دخل ثم جلس و مدد ساقيه أمامه على حافة السور. أخذ يرشف ببطء و يفكر. عليه

أن يعمل شيئا. لمعت في رأسه فكرة. قام و أحضر هاتفه. قلَّب في القائمة حتى أتى اسم من يبتغيه ثم أجرى المكالمة. سبع رنات كاملة حتى فتح الطرف الآخر:

"أهلاااااان.. أهلا أهلا أهلا. كيف الحال يا بطل؟"

"نديم أخذ النقود التي أعطيتها إياي يا شاكر. هل رأيته اليوم أم فرّ بها؟"

لم يسمع غير صوت تنفس شاكر لثوان ثم سمعه ينطلق في ضحك هستيري. بعد تلك النوبة قال و هو يضحك بين الفينة و الأخرى:

"مسكين.. هه. مسكين يا أستاذ آدم. هه هه."

ثم تمالك شاكر نفسه و قال:

"نديم أخبرني بالأمر فور أن نزلت من عنده. لقد قلت لك.. يمكنني أن أسلم نديم روحي."

ثم بدأت نغمة السخرية:

"لا تنكر أن نديم يمكنه أن يذهب بك إلى البحر و يرجع بك و أنت عطشان. هل تريدني أن أربت على كتفك لأنك وقعت في حبائله كالغر الساذج؟"

زفر آدم في حنق. قال:

"أنت تعلم الآن أن اتفاقنا مُلْغَى."

" لا لا لا لا. الكلمة كلمة يا أستاذ آدم. هل سأعلمك أنا الحفاظ على الوعد."

"أقول لك أخذ النقود."

اندفع شاكر و قال:

"و هل أنا الذي أخذتها؟ استرجعها منه إن استطعت. بل و أقول لك ما سيدهشك. لقد وضعها في حسابي فور أن حصل عليها. أتعرف؟ لو كان طلب أن يأخذها لتركتها له فورا. لكن ذلك هو نديم كما عهدته دائما. و هكذا يا صديقي. تدور النقود في دائرة لترجع إليّ مرة أخرى."

لم يدر آدم ماذا يقول. فكر للحظات ثم برق في ذهنه الخاطر فاعتدل أكثر في جلسته

و قال بأريحية:

"انتظر.. انتظر. من أخبر نديم عن المصرف الذي أتعامل معه؟ اختار الفرع الذي أمام حديقة الحيوان ليوجهني إليه. لم يعرف أحد غيرك عندما حولت أنت إليّ النقود. أليس كذلك؟ لقد شاركته. شاركته يا شاكر بيه في خداعي. لن آخذ المال منك أبدا. ألم يكن ذلك وعدك؟! أتذكر؟! اتفاقنا يا شاكر بك كأنه لم يكن. أنت الذي لم يحافظ على شرف كلمته."

ضحك شاكر ضحكة استهانة ثم قال:

"و ما المشكلة. اشرب من البحر. الأمر كله سينتهي قريبا و سألعب معك الشطرنج رائق البال. أراك قريبا يا صديقي. أقرب مما تتصور."

أغلق شاكر الخط تاركا آدم يغزو قلبه القلق.

الأمر كله سينتهي قريبا.

ماذا كان يقصد؟

لبث عشر دقائق يفكر ثم وجد هاتفه يرن. دون أن ينظر في شاشته فتح الخط. قال مترقبا:

"سلامو عليكو."

الصوت على الطرف الآخر جعل قلبه يقفز من بين أضلاعه.

"أستاذ آدم.. هل أنت غبي؟!"

***

"أين أنت؟"

قالها آدم بلوعة كأنه ينتظره منذ مدة.

أتاه الصوت المكتوم و الذي يبدو و كأنه آت من بعيد. لم يجبه، قال:

"كيف تسلم لنديم بتلك السذاجة؟! هل أنت معتوه يا رجل؟! أتعطيه كل تلك الأموال دون أن تتأكد من أن الطفل هو حسام بالفعل؟!"

"من أنت أيها الرجل؟! أفصح عن هويتك!"

رد عليه:

"رجل يحاول مساعدة إنسان فاشل! هذا أنا!"

"أرجوك أخبرني من أنت.. أنت الخيط الوحيد الباقي لنا."

"لقد أعطيتك معلومة تساوي كنزا و أنت أهدرت الفرصة بغباء لا متناهٍ!"

"لقد فعلت ما بوسعي. فقط أخبرني من أنت و كيف تعرف عن حسام. حتى أخبرني فقط كيف هو شكله."

صمت الصوت على الطرف الآخر للحظات. عاد يقول:

"اسمعني جيدا. هذه المرة لا تحتمل الأخطاء. إما أن تصيب أو أن تخيب. أنا أخاطر بشدة بإخباري لك. أتفهم؟"

"نعم نعم فقط هل يمكنك أن تخبرني عن نفسك؟!"

"سؤال خاطئ. أعد المحاولة."

"لماذا تفعل ذلك؟!"

"سؤال آخر خاطئ أعد المحاولة."

صمت آدم لثوان ثم استسلم. قال:

"ماذا عندك؟"

"سؤال صحيح. هذا هو الكلام. اسمع. أولا: أنا لا أعلم كيف يبدو شكل حسام. ثانيا: سأخبرك الآن أين تجده. لا بد أن ينتهي الأمر الليلة. لا تذهب في ضوء النهار. الليلة و الليلة فقط. أتعرف إن أهدرت هذه الفرصة؟ لو أهدرتها لكان عليك أن تبدأ في تقديم أوراقك في أول مدرسة ابتدائية تجدها. أتفهم؟!"

كان آدم يستمع إلى ذلك التقريع و يتَحَرَّق بشدة ليعلم لماذا يحرص ذلك الرجل

المجهول كل الحرص على أن يجد حسام.

أخبره الرجل بالمكان ثم قال له جملة أخيرة:

"خذ معك كتيبة كاملة. لكن لا تفشل."

و تركه مغلقا الخط فورا ليغرق في بحر الأسئلة بلا أجوبة.

***

بعد أن أغلق الخط تراجع في مقعده و نظر إلى الحائط.

أخذ يتأمل لدقائق. ما المطلوب منه أن يفعل أكثر من ذلك؟!

قال في نفسه:

"لماذا يا شاكر تضطرني أن أفعل ذلك؟ أنت السبب. لماذا تريد أن تهدم البناء بعد أن علا حتى جاوز السماء؟!"

قطع أفكاره ثم عاد يقول في نفسه:

"و ذلك الأبله آدم! أخبره بمكان الولد فيفشل أن يحضره! يحاول أن يغري نديم يد شاكر اليمنى! بل يداه معا و عيناه و أذناه! أعصابي.. أعصابي!"

زفر عندما طرق الباب.

"ادخل."

دخل نديم.

ارتد إلى الخلف قليلا و كأنه فوجئ به مع أنه يعلم أنه سيأتي.أشار إليه مُرحِّبا أن يجلس.

جلس نديم و هو يختلس بين الحين و الآخر نظرات بطرف عينيه إلى الرجل.

لاحظه الرجل و هو منهمك في الأوراق أمامه. أخذ يفكر:

"الخوف كل الخوف منك أنت يا نديم. لا أعتقد أن شاكر يصل إلى ربع مهارتك أو ذكائك. فقط لو أعلم ما يدور في ذهنك لارتحت."

ابتسم له و قال:
"ألا تفكر أن تأخذ إجازة؟"
رد نديم بابتسامة لحظية:
"العمل لا ينتهي."
"أرح نفسك قليلا."
شعر و كأن رنة سخرية في صوت نديم و الذي قال:
"من ماذا؟"
ستبدأ المناورات. كان يريد أن يقول:
"بل أرحنا منك."
لكنه قال و الابتسامة تملأ وجهه:
"صحتك."
أشار نديم بإبهامه أنها ممتازة.
"لا أستطيع أن أترك شاكر بيه."
"ألا يعطيك إجازة يا رجل؟! هل حياتك كلها عمل؟!"
"آخذها عندما يقل العمل إلى حده الأدنى."
"و هل يحدث ذلك."
"أحيانا."
"عيني عليكم باردة."
ابتسم نديم لثوان و ظل الرجل محافظا على ابتسامته و كل منهما ينظر في عيني الآخر.
هل هو تحد؟

***

الفصل الثاني و العشرون

لكنه لم يذهب بكتيبة. من أين له بها؟!

و لذلك ففي السيارة كانوا أربعة فقط. على مقعد القيادة العم جمال، بالخلف آدم و منصور. و بجوار عم جمال تجلس مديحة مركزة بصرها تماما على الحجرة المضاءة في الطابق الثاني في الفيلا الوحيدة التي تبعد عنهم مئتي متر فقط. لهم نصف الساعة و هم جالسون في صمت. قطعه منصور عندما قال:

"المنطقة وكأنها المقابر! ظلام و سكون رهيب!"

رد عليه آدم:

"لا أظنها صدفة أبدا. لقد اختار شاكر هذه المنطقة و هو أعلم بالسبب."

ثم توجه بحديثه إلى مديحة:

"للمرة الأخيرة. ألا تفضلين إخبار الشرطة؟ أخشى أن يفلت مرة أخرى."

التفتت إليه ببطء و قالت و الأسى في صوتها واضح، و الضوء الشاحب من عمود الإنارة البعيد يجعله بالكاد يتبين ملامحها:

"يا أستاذ آدم، لو أدخلت الشرطة في الأمر لا أضمن رد فعله. بعد الفضيحة لن يخسر كثيرا لو سافر مرة أخرى قبل أن نتمكن من فعل شيء. شاكر يستطيع ذلك بسهولة."

زفر آدم في خفوت. لا مفر من عمل الهواة.

"لكن هل أنت متأكد أن حسام هنا بالفعل يا أستاذ آدم؟!"

سألته عن التأكد منذ أن أخبرها باتصال الرجل المجهول ربما للمرة العشرين.

"هذا ما أخبرني إياه. و العلم اليقيني عند الله. لكن أغلب الظن أنه هنا. ذلك الرجل له مصلحة ما في توصيلك إلى حسام. ما هي؟ الله أعلم."

اعتدل في مقعده و مال إلى الأمام و سألها:

"ألا يمكنك أن تتذكري أحدا له ذلك الغرض؟ أحدا على علم بأمرك أنت و شاكر. مقربا منه إلى تلك الدرجة."

"لقد كنت كالأطرش في الزفة. لا أعلم شيئا عن أمور شاكر. لقد قلت لك يا أستاذ آدم."

رجع إلى الخلف مرة أخرى. لا توجد خيوط أخرى يمكنه الإمساك بها. ذلك الرجل الخفي هو خيطه الوحيد.

"هل سنظل هكذا يا أستاذ آدم لفترة طويلة؟ أنا لا أمانع. أنت كريم بالفعل و أعطيتني أجري كما وعدت. لكن ألن تتحركوا؟!"

قالها عم جمال و هو ينظر إلى منصور في المرآة عله يرى ملامحه و يعرف إن كان يوافقه أم لا.

سأله منصور في استنكار خفي:

"ألن تأتي معنا يا عم جمال؟!"

تنحنح الرجل في حرج و قال:

"أنا عجوز يا بني.. سأعطلكم بدلا من أن أساعدكم."

الحقيقة أن الرجل كان خائفا. و لولا أن وعده آدم أنه سيأخذ أجرا سخيا ما قبل.

"حسابك ثقل عندي يا أستاذ آدم و لا أدري كيف سأوفيه. لو كان في الغرفة شيء يمكن أن يباع لفعلت."

"دعينا نركز الآن في ما أتينا من أجله. لا بأس. فلتبق يا عم جمال في السيارة و لتكن على أهبة الاستعداد للقيادة فورا."

"تمام.. تمام يا بني."

ألقى آدم نظرة أخيرة على الحجرة المضاءة ثم فتح الباب و قال:

"هيا بنا."

نزل منصور و نزلت مديحة و تقدمهما آدم ببطء نحو الفيلا. اقترب بحذر و هو يحاول تبين وجود أي حارس على الضوء الشاحب.

من خلال البوابة الحديدية بدا له أن لا أحد. أشار لمنصور و مديحة بالاقتراب أكثر. وقف ثلاثتهم أمام البوابة بالضبط. أخذ آدم يجول ببصره في الحديقة الصغيرة. لم يتبين وجود أحد. ببطء أمسك بحديد البوابة و دفعها متوقعا أن يحتاج إلى تسلق السور. لكنها فتحت أمامه بسلاسة و بدون أدني صوت!

نظر آدم لهما في قلق. كمين هو أم ماذا؟!

لم يجد منهما ما يرشده كأنهما سلما له القيادة تماما.

نظر إلى الضوء الآتي من الأعلى و أخذ نفسا عميقا يزيل به توتره ثم دخل و هما يتّبعان خطواته بالضبط. أمامهما باب وحيد كبير. أشار لهما بالتوقف ثم همس:

"ابقيا هنا لدقيقة. سأنظر إن كان هناك مداخل أخرى."

أخذ يتجول بحذر و هو بالكاد يرى أمامه. الفيلا صغيرة فلذلك دورانه حولها لم يأخذ وقتا، و عندما وصل إليهم من الجهة الأخرى قال:

"باب داخلي وحيد و بوابة خارجية وحيدة. لا نوافذ أرضية. لا أدري من صمم هذه الفيلا على هذا النحو!"

لكن الوقت لا يسمح بالترف في تلك التحليلات. مضوا نحو الباب. مد آدم يده إلى المقبض و أداره. خيب ظنه مرة أخرى. إذا كان ترك البوابة الخارجية مفتوحة بلا حارس في منطقة مقطوعة الصلة بما حولها مثل هذه هو سهو، فترك الباب الداخلي مفتوحا هكذا صعب أن يكون سهوا. لكن ما باليد حيلة.. لا تراجع الآن. فتح الباب و خطا بالداخل خطوتين و قلبه ينبض في عنف. لم يستطع تبين أي شيء. هنا ظلام دامس بالأسفل و هناك نور ساطع رأوه من الخارج بالأعلى. ماذا في جعبتك يا شاكر؟! هكذا فكر آدم.

لكن مديحة لم تكن تحلل و تتشكك. كان كل ما يستولي على عقلها الآن هو حسام. أخذت تجول ببصرها في لهفة في الظلام المطبق. أراد آدم أن يخطو قدما إلى الداخل عندما

أحس بيد منصور تمسك بكتفه و صوته الهامس المتهيب يقول:

" أستاذ .. أنا غير مطمئن!"

"ربما تطمئن هكذا."

الصوت المفاجئ و النور المفاجئ لا بد أن يشلا أي أحد في هذا الموقف.

أغمضوا عيونهم جميعا نصف إغماضة. لحظات و كانت مديحة هو أول من نظر نحو القائل.

جالسا باسترخاء على أريكة و يده ما زالت على زر الإضاءة أخذ ينقل بصره بينهم.

"كيف حالك يا مديحة؟ كيف حالك يا بطلنا الهمام؟ كيف حالك أيها الصغير؟"

ابتلع آدم ريقه و بدأ العبوس يعلو وجهه. رمش بتوتر ثم شد قامته و قال:

"أين حسام يا نديم؟"

"ألن تأخذوا الواجب أولا؟ شاي؟ عصير؟ أي شيء؟"

"أين حسام يا مجرم؟"

قالها منصور و جسمه متقوس و قد أحنى رأسه إلى الأمام كأنه مستعد أن يهجم عليه في أي لحظة.

"الصغار أيضا يتكلمون؟!"

جز منصور على أسنانه و ندت منه حركة إلى الأمام لكن آدم أمسك بكتفه و أوقفه.

نظر آدم إلى يمينه فوجد سلما ينتهي إلى طرقة قصيرة جدا نهايتها واضحة أمام أعينهم و في منتصفها باب وحيد.

"نديم.. أقبل قدميك!"

قالتها مديحة بصوت به رنة البكاء و هي تتقدم للأمام. لكنه صدها لتقف بكلمات:

"لن ينفع يا مديحة."

قالها نديم و هو ينقل يده إلى زر آخر.

الاستنكار الذليل هو ما كان على وجهها.

كل هذا و آدم لم ينقل بصره عن الباب بالأعلى. توجه نحو السلم فتبعه منصور تلقائيا و تبعتهم مديحة بعينيها الملتاعتين و ابتسم نديم لثانية واحدة. عندما أصبحا بالأعلى أمام الباب نظر آدم إلى نديم فبادله نظرته بهزة من كتفه. عندما وضع يده على المقبض خاب أمله للمرة الثالثة. ظن أنه مفتوح هذه المرة، لكنه كان مغلقا . نظر إلى نديم بالأسفل فأومأ برأسه أن نعم هو مغلق. ثم ضغط بيده الزر فانغلق الباب الداخلي بصوت مسموع. التفت الثلاثة على أثر الصوت لكن آدم لم يفكر في ذلك كثيرا؛ لأنه ما لبث أن سمع أصواتا بالداخل لم يستطع تبينها جيدا. أصوات بشر. ثم صوت مكتوم لشيء ينزلق و يرتطم بشيء آخر.

أخذ يدق بقبضته على الباب في عنف.

"افتح!"

طاخ طاخ طاخ.

"افتح يا من بالداخل!"

"لقد حبسنا هنا يا أستاذ!"

"افتح يا شاكر!"

بصوت أعلى.

طاخ طاخ طاخ.

أشار منصور نحو عتبة الباب و قال:

"انظر يا أستاذ. النور مطفأ الآن. ألم يكن مضاءً منذ قليل؟!"

نظر إليه آدم ثم بدأ يدق بعنف شديد على الباب. كل هذا كان يحدث و نديم ينظر إلى مديحة بوجه محايد لا عواطف فيه و كأن ما يحدث بالأعلى لا يعنيه.

"هيا يا منصور.. سنكسر الباب!"

قالها و بدأ يضرب رتاجه بكعب حذائه بقوة. يضرب مرة و منصور الأخرى و نديم هادئ تماما، و مديحة تنقل بصرها في ارتياع بينهما بالأعلى و بين نديم بالأسفل.

لم يستمر الضرب طويلا. ضربه منصور ضربة فتخلخل تماما. أكمل آدم بأخرى فانفتح بعنف. صفق نديم بالأسفل. على الضوء القادم من الأسفل رأى آدم الحجرة خالية تماما. ما استوقفت نظره هي النافذة. يبرز منها رأس...

رأس سلم.

هرول إلى الداخل و تبعه منصور. أطل منها بسرعة. رأى بالأسفل شبح أحدهم على آخر درجة و هو يهبط إلى الأرض.

شخص يحتضن شيئا داخل معطفه تماما.

أو شخصا.

"شاكر!"

نادى آدم بعلو صوته. لم يكن يعرف إن كان هو أم لا. لكن الشخص مضى بسرعة إلى البوابة الحديدية. قبل أن يترك السلم حاول أن يسقطه على الأرض لكنّ ما كان يحمله كان يمنعه من التعامل بحرية. لم يوفق في المحاولة الأولى فتركه و مضى بسرعة.

عبر البوابة الحديدية في ثوان و ردها خلفه ثم نادى بأعلى صوته:

"نديم!"

عرف آدم فورا صوت شاكر. لم يتردد و انطلق عبر النافذة يهبط على السلم. راقبه منصور حتى وصل إلى آخر ربع فيه ثم بدأ يهبط هو الآخر.

"احترس يا منصور."

"لا تخف يا أستاذ.. أنا حذر جدا."

توجه آدم من فوره إلى البوابة دفعها بقوة إلا أنه كاد يضرب رأسه بحديدها عندما وجدها مغلقة.

لمن في الداخل كان صوت شاكر واضحا عندما نادى على نديم. التفتت مديحة نحو الباب و أخذت تحاول فتحه بقوة و هي تنادي:

"شاكر! شاكر!"

أما نديم فكان قد حرك يده إلى زر ثالث و ضغطه. زر يغلق البوابة الحديدية بالخارج.

كان آدم يرى الشبح بالخارج و هو ينحرف بحمله ليغيب عن بصره.

هرول شاكر نحو سيارته خلف الفيلا. عندما وصل إليها فتح باب السائق و دخل بسرعة.

"بابا.. بابا! أنت تؤلمني!"

" أنا آسف ..آسف يا حسام! آسف يا حبيبي!"

اتخذ مكانه جيدا و نقل ابنه إلى المقعد بجواره. أخذ يشهق و يعب الهواء.

"تأخذني يا بابا من عند أبلة شهيرة و أنت تدفن رأسي في صدرك كأنك لا تريد أحدا أن يراني، ثم تهبط بي على السلم بنفس الطريقة؟! لماذا كل هذا يا بابا؟!"

أغلق شاكر بابه بقوة و هو يقول:

"سأشرح لك يا حبيبي! سأشرح لك!"

و مضى بالسيارة بسرعة و التي عبرت في الظلام أمام عيني آدم العاجزتين. كان يبصر سيارة العم جمال من بعيد. أخذ يصرخ و يقول:

"الحق به! أمسكه!"

في ذلك الهدوء كان و كأنه يتكلم في مكبر صوت.

"ماذا تفعل؟! ماذا تفعل؟!"

كان يخاطب العم جمال من بعيد و هو يراه يتحرك بسيارته بسرعة في الاتجاه المعاكس.

وصل منصور و سأل لاهثا:

"ماذا يحدث؟! كيف أغلقت البوابة؟!"

"إنه يهرب! عم جمال يهرب!"

ثم نظر إلى السور و قال و هو يتجه بسرعة نحوه:

"شبك لي يديك يا منصور .. سأقفز. هيا بسرعة!"

لم يضع منصور الوقت. فعل كما أمره و رفعه بقوة حتى تمكن من اعتلاء السور، ثم انحدر بسرعة فسقط على يديه و قدميه و مضى يجري من فوره.

توجه منصور بسرعة نحو البوابة و أخذ ينظر إلى آدم بالخارج.

أخذ آدم يعدو بأقصى ما يستطيع. سيارتان على مبعدة منه و كل منهما تسير عكس الأخرى تماما. وقف على الطريق في منتصف المسافة بينهما و أخذ ينظر مرة إلى تلك و الأخرى إلى الثانية و هو لا يدري أيهما يتبع.

أخذ يصرخ بأعلى صوته:

"ارجع! ارجع يا عم جمال لا تخف! ارجع!"

***

الفصل الثالث و العشرون

فتى في السابعة عشرة، و رجل في الثلاثين، و امرأة في الخامسة و الثلاثين، و رجل عجوز في الواحدة و الستين، كلهم يجلسون صامتين بينما يقود الأخير السيارة. لكن ما يلبث ذلك الصمت أن ينقطع كل ربع ساعة تقريبا عندما ينطلق منصور و يقول:

"عار! عار عليك ما فعلت يا عم جمال!"

فيرد الرجل:

"يكفي يا منصور! قلت يا أخي مئة مرة: أنا آسف!"

فيأخذ منصور الجالس بالخلف مع آدم نفسا ثم ينظر إلى قدميه و الشعور بالخزي يصيبه هو بالتحديد.

أما آدم فينظر إلى مديحة في الأمام و هي تضع رأسها على كفها و تستند به على زجاج بابها بوجه جامد حزين.

طعم المرارة يغزو حلقه!

لكن منصور لم يتحمل فقال:

"لقد خذلتنا و قصرت رقبتي يا عم جمال!"

نظر إليه في المرآة المعلقة أمامه و قال:

"اسكت يا منصور! ماذا أفعل لكي تسكت؟! ألم أرجع إليكم؟!"

فرد عليه:

"بعد فوات الأوان!"

فصمت العجوز في حنق ثم نظر في ذات المرآة إلى آدم و قال:

"أنا لست جبانَ يا أستاذ آدم، لكنني ارتبكت بشدة. نعم خفت. أشياء عجيبة تحدث أمامي! أولا ينطفئ النور بالأعلى و يضاء بالأسفل بعدما دخلتم بفترة قصيرة! ثم أرى شبحا عجيب الشكل يهبط من نافذة تلك الحجرة كأنه ينزل على سلم! ينادي نديم و هو يخرج

من البوابة ثم يجري، ثم تمر السيارة مسرعة أمامي و قد بلغ الرعب مني مبلغه. أنا عجوز يا بني. هذا الجو لا يناسب سني أبدا. خفت.. نعم خفت. لكن بعد نصف الساعة من القيادة المرتبكة توقفت و لمت نفسي. عدت إليكم يا أستاذ آدم. ألم أفعل؟!"

نظر مرة أخرى إلى منصور ثم قال و هو يذكره:

"ألم تسرق يا منصور سيارة الأستاذ آدم و هو عفا عنك؟! كلنا نخطئ يا منصور!"

ثم نظر إلى آدم في المرآة و قال:

"أليس كذلك؟!"

آدم كان ينظر إلى الخارج. نور الفجر بدأ في تخفيف سواد السماء. رد و قال:

"لم يسرقني. لقد كانت سيارة صديقي."

ثم نظر إلى مديحة و سأل:

"هل أنت بخير؟"

لكنها بدت في عالم آخر.

لقد صعدت إلى الأعلى مهرولة و دخلت الحجرة لتنظر من نافذتها. رأت السيارة و هي تبتعد. السيارة التي بها ابنها تأخذ أيضا قلبها بعيدا. سمعت آدم يصرخ ثم يقفز السور و يجري خلف سيارة عم جمال، ثم يتوقف و هو حائر بين السيارتين.

تمر الدقائق الثقيلة و هي تود لو تصرخ. لم يكن أمامها إلا ذلك، لكنها لا تستطيع.

يعود آدم بخطى متثاقلة و يقف على البوابة أمام منصور.رفع رأسه إلى الحجرة. لا يستطيع تبين ملامحها و لا تستطيع تبين ملامحه. لكن مجرد رفع رأسه إليها و الثبات على ذلك أبلغ من أي تعابير.

سمعت خطواته و هو يصعد. دخل نديم و انضم إليها على النافذة. اتكأ على إطارها بذراعيه. صامتا كعادته. بوجه محايد كعادته.

نظرت إليه بجوارها. ناداه منصور من الأسفل و هو يترك البوابة و يقف تحتهما بالضبط:

"أيها المجرم!"

ودت لو توجه لكمة إليه. أحست أنها لا تستطيع. لكن الغضب المرير بداخلها تصاعد و أخذت قبضتها ترتعش ثم انطلقت فجأة نحوه، لكن نديم استقبل قبضتها في كفه ببساطة دون أن ينظر إليها. أخذ يضغط بقوة عليها.

آدم يراقب من الخارج. و منصور عندما رأى ذلك أخذه الغضب و أخذ يصعد على السلم و يقول:

"اتركها أيها الحقير!"

فما كان من نديم إلا أن قال بهدوئه:

"العب بعيدا يا شاطر."

ثم دفع بيده الأخرى السلم قبل أن يصعد منصور درجته الثالثة ليسقط على الأرض و منصور يسقط منه بارتباك وسط التراب. قام و الغضب يملأه. أخذ يصرخ و يتوعد و توجه نحو باب الفيلا و أخذ يضرب رتاجه بقدمه بقوة.

ترك نديم يد مديحة لتسقط إلى جانبها في ضعف.

"منصور. منصور. كفى يا منصور."

فور أن سمع صوت آدم توقف عن الضرب بقدمه. أخذ يلهث بشدة.

رفع آدم رأسه مرة أخرى و قال بصوت متحشرج:

"افتح الباب يا نديم. دعها تخرج."

نظر نديم إلى ساعته و قال:

"نصف ساعة أخرى."

فرفع منصور رأسه إليه في غضب لكنه لم يتكلم.

أما آدم فقد خفض بصره ثم استدار و نظر إلى الأفق. ريح باردة لفحت وجهه. وضع يديه تلقائيا في جيبي سترته.

و بقت الصورة ثابتة على هذا الوضع تلك النصف من الساعة.

بعد أن مرت قال نديم دون أن ينظر إليها:

"الزر الأخضر يفتح البابين."

ظلت ثابتة في مكانها لدقيقة ثم توجهت بخطى متثاقلة نحو باب الحجرة. قبل أن تخرج منه نظرت إليه متكئا على إطار النافذة. ثبتت نظرها على ظهره لثوان ثم جرت قدميها إلى الأسفل.

***

هم يذهبون و هو يرجع.

في السادسة صباحا تبدأ حركة البشر تزداد رويدا رويدا. كل يذهب إلى مصلحته. عمل مدرسة، جامعة، أيا ما كان.

و آدم يضع يديه في جيبي سترته و يسير بعينين نصف مغمضتين عائدا من بيت مديحة.

كانوا قد أوصلوها أولا. دخلت دون أن تنطق كلمة. راقبها آدم و هي تصعد السلم ذا الدرجات القليلة ببطء شديد حتى دخلت غرفتها.

التفت آدم بعدها إليهما و قال:

"مع السلامة.. سأرجع ماشيا."

قبل أن يذهب قال له منصور:

"أنا آسف يا أستاذ!"

أشار إليه آدم بالسلام إشارة مثقلة بالهموم ثم مضى.

و الآن هو يسير على مبعدة كيلومتر من منزله.

لا تفشل. بالأمر! لماذا يفشل هو ذلك الرجل المجهول في إحضار حسام بنفسه؟! أليس من الأسهل له و لهم أن يفعل ذلك؟! الله أعلم. ثم لا يبدو عليه أنه حريص على عودة حسام من أجل سواد عيني مديحة. ما غرضه؟

كناسون يحملون مقشاتهم و أطفال يحملون حقائبهم و مسافرون يحملون أمتعتهم

و موظفون يحملون ملفاتهم.

و آخرون يحملون همومهم.

لكن أيضا هناك عصافير تزقزق و شمس تشرق و أشجار تتمايل فروعها و سماء بان صفاؤها.

كل ذلك كان مناسبا لشيء واحد بالنسبة إليه.

الركض.

ببداية خفيفة، ثم بتسارع أشد، ثم بقوة كبيرة، وجد نفسه قد قطع المسافة المتبقية إلى منزله في نصف دقيقة.

تجاوزه و استمر.

هم يمشون و هو يركض. بعضهم ينظر إليه و هو لا ينظر. بعضهم اعترض طريقه فتفاداه، و بعضهم أفسح له الطريق فشكره بإيماءة سريعة.

ركز تماما في ركضه. بدأ يتعب. قاوم تعبه. بل هو يريد أن يتعب. قاوم تعبه لكي لا يستسلم بسهولة. قاوم تعبه لكي يستطيع أن يتعب أكثر.

أخذ دورة كاملة حول مجمع العمارات في منطقته، فالثانية، فالثالثة. أما الرابعة فقد شعر فيها و كأنه في عالم آخر من التعب. استسلم أخيرا و خفف سرعته تدريجيا. قبل أن تتباطأ سرعته تماما ليبدأ في المشي اللاهث نحو باب بيته سلم الراية لأحدهم. طفل في أواخر المرحلة الابتدائية مرق من جانبه و كأنه قد تأخر على مدرسته أو مباراة كرة قبل بدء طابور الصباح، أو أي شيء من ذلك القبيل.

عندما وصل إلى عمارته لم يستطع الصعود على السلم فجلس على أول درجاته. أغمض عينيه و أرجع ظهره و أخذ يفعل الشيء الملائم في هذه اللحظة.

أخذ يتنفس.

***

الفصل الرابع و العشرون

أخرج رأسه من نافذة القطار المارق. الهواء منعش في هذه الساعة الأخيرة قبل غروب الشمس. القطار يمر على ترعة خلفها أراض شاسعة ملونة كلها باللون الأخضر. الشمس أمامه تبدو و كأنها مقبلة على السقوط في بحر المزروعات ذلك.

استنشق آدم الهواء الذي يضرب وجهه بقوة. في الصباح عندما استعاد بعض قوته قام من على السلم و مضى يصعد الطوابق الأربعة ممسكا بالحاجز بيديه الاثنتين ليعينه. من الجيد أنه أخبر ليلى ألا تقلق إذا تأخر، حتى لو أتى في اليوم التالي كما فعل.

عندما وصل أخيرا إلى باب شقته ثارت نفسه بالنشوة و كأنه قد حقق إنجازا عظيما. لم يستطع أن يولج المفتاح في الباب و أخذ يخطئ الفتحة مرة بعد الأخرى فضغط زر الجرس. مضت نصف دقيقة حتى فتحت ليلى. ابتسم لها في إرهاق دون أن يتكلم و دخل. كان خالد خارجا لتوه من الحمام.

"هل أنت بخير يا آدم؟!"

قالتها و هي تتبعه بخطى حثيثة.

"مالك يا بابا؟!"

قالها خالد و هو ينظر بقلق إلى وجه أبيه المتعب.

توقف آدم أمام ابنه ثم مال على شعره فقبله، ثم وضع يده على كتف ليلى و قال بابتسامته المرهقة:

"أنا بخير. فقط.. فقط أريد أن أناااام."

و مضى نحو حجرته و ليلى و أغلق الباب بهدوء خلفه.

دون أن يخلع حذاءه ارتمى على السرير و ذهب في النوم بعد دقيقتين فقط.

نوم عميق بلا أحلام، و عندما فتح عينيه رأى الساعة تشير إلى الثانية ظهرا و رأى الحذاء و قد خلع و وضع أسفل الدولاب كما اعتاد أن يضعه. نظر بجواره فرأى ورقة. كانت ليلى تخبره فيها بطعام الإفطار و تقول:

"مع أنني أشك في أنك ستصحو لتأكله. نراك على الغداء إن شاء الله."

ابتسم ابتسامة خفيفة و هو يطوي الورقة.

للأسف سيخيب ظنها. لا وقت للغداء. سيكتفي بالإفطار في وقت الغداء لأنه يريد أن يسافر فورا.

اتصل بها ليخبرها بذلك. قالت له في الهاتف :

"لا بأس. إنه العمل الجديد.. أليس كذلك؟"

أجابها بابتسامته الخفيفة:

"نوعا ما."

ثم قال:

"ألا يمكن أن تزوري مديحة لبعض الوقت اليوم؟ إنها في صدمة. خذي خالد معك."

لم تسأله عن التفاصيل و أجابته:

"بالتأكيد. أين ستذهب و متى سترجع؟"

أخبرها أين ينوي السفر ثم أكمل:

"بأقرب ما أستطيع سأعود يا عزيزتي. سأتصل بك عندما أصل بإذن الله."

سلم عليها و أنهى المكالمة ثم انطلق بعدها من البيت بربع ساعة.

أدخل رأسه من نافذة الانتعاش بعدما أخذ قسطا وفيرا منه، إلا أنه بعدها بثوان أخرج يده بسرعة منها لتمسك بمنديل ورقي هارب من يد صاحبه قبل أن يلوثه. أعاده آدم مرة أخرى إلى صاحب المنديل الجالس أمامه بالضبط. شاب في مثل سنه. شكره مثنيا:

"شكرا جزيلا .لقد اقتنصتَه بيد كالمخلب! كان آخر ما في جيبي و أنفي مثل الصنبور كما ترى!"

قالها و تمخط ثم وضعه في جيبه مرة أخرى.

قال آدم و هو ينظر في ساعته:

"على كل بقيت نصف الساعة فقط حتى نصل."

زفر الرجل أمامه و قال:

"أقوم بهذه الرحلة المتعبة كل أسبوع ذهابا و إيابا! هذه ضريبة أن تسكن في مدينة و أن تعمل في مدينة أخرى. أصل اليوم لكي أنام فورا ثم أستيقظ غدا باكرا. هل هناك من يتعب مثلي؟!"

نفث آدم نفثة قصيرة من أنفه كأنه يقول له: الكثير يتعب أكثر منك، ثم ابتسم ابتسامته الخفيفة و قال:

"ليس كل ما يتمناه المرء يدركه."

"الحمد لله على كل حال. لكنني مخنوق فعلا! مخنوق جدا!"

ثم قال:

"أنت لا تبدو لي في رحلتك إلى عمل."

"هل هذا مكتوب على جبيني؟"

"أنا عندي فراسة. شكلك لا يدل على ذلك."

و كأنه بالشكل!

قال آدم:

"زيارة إلى مسقط رأسي."

قال الرجل:

"الوالد و الوالدة. البركة كلها. تعال معي نصف ساعة قبل أن تذهب. أعرف حلوانيا لو اشتريت من حلواه مرة لانتقلت خصّيصَى بجواره! هدية لن ينساها الوالدان أبدا."

ابتسم آدم مرة أخرى ابتسامته الخفيفة و قال:

"الوالد و الوالدة عليهما رحمة الله."

"أخ! أنا آسف! هذا الاندفاع في الكلام من الاختناق الذي أشعر به. هذا القطار يسير كالسلحفاة، أليس كذلك؟!"

اكتفى آدم بهزة رأس غير ذات معنى. نظر إلى الخارج.

قبل أن يذهب إلى محطة القطار عرج على بيت مديحة. لم يكن يعلم إن كان سيجدها أم لا. صدق حدسه. فعلا لم تذهب إلى عملها.

فتحت له بتهالك.نظر إلى عينيها المحمرتين من أثر البكاء شبه المغلقتين من قلة أو عدم النوم و ظل صامتا. و كذلك فعلت هي و هي تبتلع ريقها كل بضع ثوان.

تنهد و أخبرها بقدوم ليلى لتجلس معها بعض الوقت. أيضا قال لها أنه سيسافر ليخلو إلى نفسه بضعة أيام. بالكاد سمع صوتها و هي تتمتم:

"تشرف."

مضى خارجا و سمع صوت الباب من خلفه يغلق ببطء كما فتح ببطء.

أعاده صوت الرجل إلى الوقت الحاضر قائلا:

"ها قد أوشكنا على الوصول أخيرا! هيا إلى الباب لنستطيع الهبوط أولا. لا أحب الزحام."

مضى آدم معه و هو يحمل حقيبته الصغيرة. عندما دخل القطار المحطة و توقف و فور أن هبطا زفر الرجل قائلا:

"أُف! أخيرا! ربنا يرحمنا! تعال لأريك الحلواني. ستدعو لي."

مضى آدم معه و هو يفتح هاتفه المغلق. وجد رسالتين من ليلى. تقول في الأولى:

"لقد فاتك الكثير.. اتصل بي عندما تفتحه."

و في الثانية:

"ألم تفتحه بعد؟!"

مع صورة وجه غاضب يتلوه وجه مبتسم.

ابتسم آدم ثم اتصل بها. مضى مع الرجل إلى باب الخروج. توقفا عند بائع ليشترى

الرجل كيس مناديل. سمع صوتها. تحدثت و أنصت لدقيقة واحدة تغير فيها وجهه إلى الغضب الشديد، ثم انفرج في ارتياح. أغلق بعدها آدم الخط. التفت إلى مرافقه و قال:

"لقد سعدت بلقائك. بما أنك خبير بهذا الطريق ذهابا و إيابا، هل يمكنك أن تفيدني؟"

لوح له الرجل قائلا و هو يهم بالمضي:

"استفسر عن أي شيء. لكن تعال نخرج بسرعة. لقد اختنقت!"

استوقفه آدم ممسكا بذراعه قائلا بوجه بريء:

"سؤال واحد فقط. ما هو أول موعد من الآن للقطار العائد؟ أريد الرجوع فورا."

توقف الرجل جامدا و كان التعبير على وجهه مضحكا بشدة و هو يسأله مستنكرا بحرفين فقط:

"هه؟!"

***

الفصل الخامس و العشرون

بعد الغداء خرجت من العمارة و مضت نحو مسكن مديحة.

لم يحضر خالد معها لكثرة ما عليه من مذاكرة. مضت تمشي بهدوء و هي تحمل سطل الطعام. لقد أعطاها آدم فكرة عن طبيعة المنطقة التي تعيش فيها، و هي و إن كانت قريبة منهم نوعا ما إلا أنهم لم يطؤوا أرضها مرة واحدة قط. لكن المعاينة على الطبيعة أبلغ من الوصف كثيرا.

عندما دخلت المنطقة أحست بانقباض كبير. هذا و هي تراها في ضوء النهار، فما بالها إن كانت رأتها في ليلها الذي لا ينيره إلا ضوء القمر إن وجد أو ما تيسر من شعاع مصباح هنا أو هناك. كانت تتحسر و هي تتوغل أكثر فأكثر و هي تري أماكن مثل هذه لا تصلح لسكن الحيوانات أصلا. و بدأت الروائح تهل عليها. قمامة، و مجاري، و جثة قطة على قارعة الطريق. نساء يجلسن على عتبات غرف من الصفيح يغسلن أو يطبخن ما تيسر، أو يشتمن أطفالهن الصغار بأقذع الألفاظ. ليس كلهن بالتأكيد. بعضهن ينظرن إليها بفضول و أخريات بقرف، و أخريات بتوجس، و أخريات بطيبة. اختارت واحدة تنظر بطيبة. امرأة في الخمسين سألتها عن بيت مديحة أين هو بالضبط. أشارت المرأة و قالت:

"قبل آخر هذا الزقاق بالضبط. بيتها عليه كتابة بالطلاء تقول: ..."

أخذت تسرد لها حكاية عن البيت الذي بناه خطَّاب الذي كان يسكن في بيت صفيحي تزوج فيه بجوار بيت أبويه الصفيحي أيضا. أخبرتها بموت الوالدين و استيلاء الرجل على بيتهما مع حرمان أخويه الصغيرين من ميراثهما المتواضع. بني ثلاثة طوابق كلها غرف بمال لا يعلم من أين أتى به، و أصبح يسكن الآن خارج هذه المنطقة.

استمعت ليلى في صمت و هي تتحرج من إيقاف اندفاع الكلمات من فمها، ثم ما

لبثت أن توقفت و أشارت إلى داخل علبتها الصفيحية قائلة:

"تفضلي اشربي شايا. سأحكي لك حكاية أبو خطاب."

إلا أن ليلى ابتسمت في حرج و قالت:

"معذرة. أنا متعجلة."

ابتسمت المرأة ابتسامة ساذجة طيبة و قالت:

"لا بأس. طريق السلامة يا بنيتي. بلغي مديحة سلامي. قولي لها أم سعدية تسلم عليك. امرأة طيبة هي لكنها منكسرة دائما. لم أرها تخرج اليوم. ربما هي في إجازة. ثم..."

انسحبت ليلى من أمامها بظهرها قبل أن تسترسل أكثر، و هي تومئ برأسها مصدقة على كلامها و تقول:

"شكرا.. شكرا."

لم تبتعد أمتارا حتى مرت على باب صفيحي مفتوح، تجاوزته بالكاد عندما انطلقت رشة مياه من داخله لتستقر على الأرض في موضع كانت فيه منذ ثانية واحدة.

علا صوت المرأة الخمسينية من خلفها و هي تعترض على ما حدث:

"يا حمارة! كل مرة أقول لك انظري قبل أن ترمي مياهك القذرة لتصيب صاحب النصيب!"

أطلت امرأة في منتصف العشرينيات و هي تنظر إلى ليلى، ثم نظرت إلى الأخرى و انطلق لسانها عليها:

"و أنا مئة مرة قلت لك.. مئة مرة.. لا تتدخلي في شؤون غيرك. ألا تفهمين يا هذه؟!"

أشارت ليلى بسرعة و قالت:

"حدث خير.. حدث خير."

ثم مضت بخطوات سريعة قبل أن تسمع ردا.

أخيرا وصلت. صعدت درجات السلم القليلة و طرقت الباب. سمعت حفيف نعل

يزحف بتثاقل كأن القدم التي تلبسه تمشى مجبرة. ثم فتح الباب.

ارتبكت ليلى عندما رأتها. لقد بدا لها أنها كبرت خمسين عاما عن المرة التي رأتها فيها!

كأنها لم تعد تنام! حاولت مديحة أن تبتسم و لو شبح ابتسامة مرحبة لكنها لم تنجح. كل ما نجحت فيه كان أن أشارت إلى الداخل و قالت:

"مرحبا."

تقدمت ليلى نحوها. قبلتها على الخد الأيمن ثم الأيسر و دخلت. أغلقت مديحة الباب ثم أشارت لليلى إلى المقعد الوحيد، ثم اتجهت نحو الركن الذي هو من المفترض مطبخها. أخذت تعد الشاي.

توجهت ليلى نحوها ممسكة بالأشياء من يدها. قالت:

"عنك أنت. شكلك يدل على أنك متعبة جدا."

استسلمت المرأة تماما بلا نقاش. وقفت تشاهد ليلى و هي تقوم بالعملية كلها. لم تتكلم إحداهما حتى غلى الماء و صبته ليلى. وضعت الكوبين على طبق من الإثنين الوحيدين أمامها و ابتسمت لمديحة و قالت:

"كله تمام."

أومأت مديحة برأسها ثم توجهت نحو المقعد.

أشارت مديحة و قالت:

"تفضلي."

سألتها ليلى:

"و أنت؟!"

"سأجلس على الأرض!"

"لا ينفع!"

"أنا معتادة على ذلك."

ثم بدأت تفك حزنها قليلا و قالت:

"نعم جربت العز لعام أو أقل و يا ليتني ما جربته!"

نظرت ليلى إلى الإسفنجة المهترئة المخصصة للنوم. قالت و هي تفك طوابق السطل من بعضها:

"نجلس هناك، و نأكل أولا."

"لا يصح."

"لا بأس أبدا."

و مضت و لم تناقشها مديحة. جلستا متواجهتين و الشاي بينهما.

مرت دقيقة صمت كانت مديحة تنظر فيها إلى الكوبين.

"ما بك؟"

تنهدت و قالت:

"الأمل انهار، و حضرت انهياره بكل تفاصيله!"

عقبت ليلى بسرعة و هي تضع الأكل جانبا و قالت:

" الأمل لا يموت. و ما انهار يمكن إعادة بنائه بإذن الله. ماذا حدث؟"

أخذت مديحة تحكي لها و بين كل جملة تتوقف ثواني كأنها تستريح.

بعد أن انتهت كان تعبير الإشفاق قويا على وجه ليلى. حاولت أن تتخيل نفسها مكانها لكنها نفضت الفكرة عن رأسها فورا.

إنها حسرة ما بعدها حسرة!

قالت مديحة:

"الأستاذ آدم ربنا يبارك فيه عمل ما عليه و أكثر بكثير. يبدو أنه ليس مكتوبا لي أن أرى حسام قبل أن أموت."

مدت ليلى يدها و أمسكت يد مديحة و قالت:

"لا تقولي ذلك. سترينه بإذن الله."

ثم تنهدت و قالت:

"آدم سيغير الجو لفترة يرتب فيها أفكاره. ذهب لمسقط رأسه. كان يفعلها كل سنة تقريبا عندما تواجهه مشكلة عويصة. أنا أعلم زوجي جيدا. إنه لا يستسلم بسهولة. صدقيني. الأمل ما زال حاضرا. الأمل لا يموت أبدا."

رفعت المرأة المسكينة رأسها إلى ليلى و قد لفحت كلماتها قلبها المكلوم فأعادت له جذوة صغيرة من الحياة.

الأمل أن تكبر و تزداد.

قالت ليلى:

"على فكرة. أم سعدية تبعث لك بالسلام."

ظهر شبح الابتسامة أخيرا على وجهها و هي تقول:

"سلمها الله. ست طيبة."

"أتسكن وحدها؟"

"نعم. ابنتها سعدية سافرت مع زوجها إلى الخارج. يعمل سائق مقطورة. خمس سنوات إلى الآن و لم يرجعا بزيارة واحدة. تذكرة الطائرة غالية جدا يا ست ليلى. البنت كانت تبكي قهرا و هي تترك أمها. أنا كنت في بيتهم وقت السفر. لكن الست الطيبة قالت لها بقوة لم نعهدها فيها من قبل أن تذهب لتجد مستقبلها."

عندها سمعتا صوت طرقات على الباب. طرقات متوسطة القوة بطيئة الإيقاع إلى حد ما.

قامت مديحة و قامت ليلى. توجهت مديحة نحو الباب و فتحته ببطء.

بان أمامها وجه لم تكن تتوقع أن تراه أبدا. انعقد لسانها في حلقها. لكنها فكت العقدة باستفهام صارخ:

"شاكر؟!"

واقفا بوجه جامد و يداه مشبكتان أسفل بطنه يتفرس في وجهها بصمت. ينظر إليها كأنه

يسترجع تفاصيل طوتها السنون.

ابتلع ريقه و قال:

"ما زلت جميلة يا مديحة."

لم ترد. لمحت نديم خلفه و هو ينظر إليها بعينيه الناعستين اللتين لا ترمشان بسهولة.

نطقت و قالت:

"أين ابني يا شاكر؟!"

أخذ شاكر نفسا عميقا كأنه يسيطر على غضب مكتوم بداخله. تخطاها إلى الداخل و هي تتابعه بنظرها. أبصر ليلى، و أبصرته لأول مرة. إذن فهذا هو شاكر بك.

ركز عليها لثوان ثم جال ببصره في أنحاء الغرفة من فوقها إلى أسفلها مرورا بالشق الذي يطلق عليه حمام. التفت نحوها. تنهد ثم قال:

"انظري يا مديحة. أنا سأتكلم معك بأقصى ما أملكه من هدوء. لكن إذا أخذت في المراوغة سينفجر الإعصار في وجهك."

سكت لحظة ثم سأل بصوت هادئ حازم:

"أين حسام يا مديحة؟"

و سقط فكها الأسفل.

***

لقد سئم!

الخارج ثم الداخل! من مدرسة إلى بيت إلى فيلا في منطقة مرعبة إلى بيت آخر! و كلما يسأله: لماذا يا بابا نفعل ذلك؟ يقول له:

"لاحقا.. لاحقا."

لكنه يريد تفسيرا. مع صغر سنه يريد أن يفهم لماذا كل ذلك التعب.

منذ ساعة واحدة غافل نديم عندما كان في الحمام و أخذ نقودا له كانت على المنضدة، و فتح باب الشقة الجديدة التي انتقلوا إليها بعد مغامرة البارحة بهدوء، و مضى.

لقد سئم.

لقد أحبها. أحب أبلة شهيرة و أحب المدرسة، فلماذا ينتزعه أبوه منهما؟! لن يقبل مرة أخرى. سيذهب إلى المدرسة و يرجو أبلة شهيرة أن تبقيه هناك معها.

أخذ يسير في الشوارع، و بذكاء ليس للكثيرين سار مبتعدا عن البيت بمسافة معتبرة.

عندما يخرج نديم سيجد في انتظاره مفاجأة كبرى. و حتى لو هبط ليبحث عنه لن يجده. و لو طلب الشرطة. عندما يعرفون أنه ذهب إلى أبلة شهيرة لن يعيدوه ليجلس وجهه في وجه الرجل مثل خيال المآتة. لا يبتسم و لا يحزن. إنه لا يحبه أبدا و لا يعلم كيف يتحمل أبوه أن يلازمه ذلك التمثال!

و هل يحبه أبوه؟

أبلة شهيرة قالت له إنه يحبه بالتأكيد. فلماذا لا يشعر هو بذلك؟! لماذا يشعر أن كل أفعال أبيه دائما ضد رغباته؟!

حتى السبب لا يريد أن يخبره به.

لقد سئم!

و لذلك فهذا هو الحل الوحيد. أن يعمل هو و يترك مقعد المتفرج.

أخذ يشير إلى سيارات الأجرة التي تمر عليه. لم يركب إحداها في حياته لكنه يعلم وظيفتها تلك السيارات المميزة بألوانها و تخطيطاتها الموحدة.

لم يتوقف له سائق من سائقيها. من يتوقف لطفل صغير؟! لا يأخذونه على محمل الجد. طفل و يلعب.

بعد حوالي نصف الساعة و بعزيمة لم تنهر أشار إلى السيارة ربما المئة. و أخيرا توقف السائق.

و الذي فتح الباب المقابل له و نظر إلى حسام بتساؤل. رجل في مثل عمر أبيه. بادره

بالسؤال:

"هل أنت تائه يا بني؟"

دخل حسام و جلس على المقعد دون دعوة. قال الرجل:

"انتظر.. انتظر. لماذا تقف هكذا؟! أين أهلك؟!"

"أريد أن أذهب إلى البيت."

"و أين هو؟! و كيف تقف هكذا وحيدا؟! هل تهت من ماما؟"

"أنا أعلم عنوان البيت يا عمو."

قالها و أخرج كل النقود و وضعها في حجر الرجل. قال:

"خذها كلها لكن أوصلني إلى البيت."

نظر الرجل إلى النقود الكثيرة في حجره و بين فخذيه على الكرسي و لم يدر ما يقول. زبون صغير طوله قصير، و لديه من النقود الكثير. أمر ليس أبدا بالخطير. أليس كذلك؟ أم ماذا؟

"أين بيتك؟"

أعطاه عنوان المدرسة. عنوان حرص أبوه على أن يحفظه. ربما هذا هو خير ما فعله له. هكذا فكر.

"مدرستك أم بيتك؟ لا تحيرني يا بني."

مد حسام يده الصغيرة و أخذ مجاهدا يحاول الوصول إلى يد الباب حتى نجح و أغلقه و أخذ جلسته و قال:

"مدرستي هي بيتي.. عند أبلة شهيرة."

زفر الرجل و سلم أمره لله ثم انطلق.

***

الفصل السادس و العشرون

"ما هذا الذي تقول ؟!"

قالتها مديحة و الذهول يغمرها من أعلاها إلى أسفلها. وقفتها ارتبكت و أخذت تلوح بذراعيها أمام شاكر.

"لا تتصنعي الغباء يا مديحة! أحذرك! كيف أخذه آدم؟!"

نظرت للحظات غير مصدقة. ربما من الفرح.. بشيء من الأمل. هل فعلها؟!

نظرت بسرعة نحو ليلى و السؤال على وجهها لا يحتاج إلى تلفظ.

بدورها كانت ليلى متعجبة لما تسمعه. متى حدث ذلك؟!

قالت و الارتباك في صوتها:

"لقد أخبرتك يا مديحة.. لقد سافر إلى مسقط رأسه. لا أعلم شيئا آخر."

على إثر قولها نظر شاكر إليها نظرة متفحصة صامتة ثم سألها:

"إذن أنت زوجته.. ليلى، أليس كذلك؟"

لم ترد.

أكمل:

"هكذا الأمر أسهل بكثير."

أشار برأسه إلى نديم فدخل و أغلق الباب خلفه.

نظرت ليلى بقلق إلى نديم الذي وقف عاقدا ساعديه أمام صدره متكئا على الباب. لكنها قالت بصوت عال:

"ما هذا؟! هل جننتما؟! افتح الباب يا هذا!"

لم يرمش نديم.

وضع شاكر حذاءه على مقعد الكرسي، و اتكأ بذقنه على كفه و ذراعه قائم على ركبته

و أخذ ينظر مليا إلى ليلى.

"أين آدم يا مدام؟"

كان قلبها يدق بعنف. صمتت تحدوها رغبة التحدي المشوبة بالخوف.

نظر إليها بنظراته النفاذة ثم أجاب على نفسه:

"ذهب إلى مسقط رأسه كما قلتِ"

صمت ثم عاود:

"السؤال هو أين مسقط رأسه ذلك؟"

ما زالت صامتة.

قال:

"إذن اتصلي به."

"يغلق هاتفه عندما يكون في سفره ذلك."

بصوت أجش أمرها:

"جربي."

"قلت لك..."

لم تستطع إكمالها لأنه صرخ منتفضا:

"جربي!!"

و فعلت.

و كما هو متوقع، لم يجبها أحد غير الرسالة الآلية: " الهاتف الذي طلبته قد يكون..."

نظرت إليه في صمت بليغ و قبل أن تخبره أخذ منها هاتفها في عنف و أخذ يستمع إلى باقي الرسالة.

مسح وجهه بكفه و قال:

"ممتاز يا مدام. لقد جربنا قبلك و اتصلنا به. لم أكن أعلم أنه ينفصل عن كل المقربين منه هكذا. قدرت أن لك وسيلة خاصة للاتصال به. هل لديك؟"

لوحت برأسها يمينا و يسارا.

"طيب."

قالها ثم أعاد إليها هاتفها و سأل بكلمة واحدة:

"العنوان؟"

نظرت إلى مديحة كأنها تسألها المعونة. هي أعلم به منها. بالتأكيد تعرف كيف تتصرف معه. إلا أن الوجه الحائر المشفق كان ينظر إليها في صمت.

ضغط شاكر على جفني عينيه بإصبعيه في تعب ثم قال:

"نديم سيسهل الأمور عليك أكثر."

فور أن قالها اعتدل نديم و انفرج الباب خلفه مفتوحا عن فرجة صغيرة. توجه نحو ليلى ببطء و ملامحه ثابتة على حيادها.

تراجعت ليلى إلى الخلف بعنف و ذعر. صرخت و قالت:

"إياك أن تقترب مني سـ..."

و لم تدر ما تقول.

كأن مديحة أفاقت فهرولت نحوها و واجهت نديم جاعلة ليلى خلفها كأنها تحميها.

لم يفرق ذلك مع نديم أو شاكر في شيء . و قبل أن يمد نديم يده إلى ليلى خلف مديحة متجاهلا إياها، كانت الأخيرة تطلق صرخة مدوية:

"الحقونا."

***

بنات صغيرات و فتيات و نساء و عجائز. كلهن كان هدفهن واحدا.

عبور باب غرفة مديحة.

ببساطة لأن من التقطت الصرخة هي المرأة التي كادت تغمر ليلى بالمياه القذرة؛ فقد

كانت تعبر بالقرب من مسكن مديحة. فور أن سمعتها انطلقت حنجرتها النسائية الجبارة بنداءات و صيحات مدوية تكاد توقظ من سقطوا في غيبوبة.

"يا أم سعدية.. يا منال.. يا حميدة.. يا وردة.. يا سعاد.. يا خديجة.. يا بطة.. يا أم..."

في ثوان معدودات كانت قد نادت على ما يقرب من ثلاثين اسما بادئة بأم سعدية التي تشاجرت معها منذ قليل.

و السبب قالته بصوتها الرنان و هي تعبر مدخل عمارة مديحة:

"مديحة تستغيث!"

و لبين النداء فورا. كن يخرجن من بيوتهن سراعا. عشرون واحدة على الأقل وصلن تباعا.

كانت المرأة المنادية أول من دفع الباب فاصطدم بعنف بالجدار. رأت نديم و يده ثابتة في الهواء فوق رأس ليلى بالضبط، و مديحة تنظر إليها في ارتياح من وجد النجدة، و نديم أدار رأسه هو ينظر إلى الوافدة بعينيه الناعستين.

صرخ فيها شاكر قائلا:

"هشش.. اخرجي يا امرأة."

كان ردها أن انحنت و خلعت نعلها و مضت نحو نديم.

ثوان فقط و دخلت الجحافل. و تلقائيا خلعت كل منهن نعلها. و منهن فتيات خلعن النعلين. و...

و بدأ الضرب.

من يمكنه أن يواجه تلك القوى النسائية العاتية بصيحاتها الجبارة و بالأخص إن كانا رجلين فقط؟!

دفع نديم المرأة القائدة فوجد أخرى تنزل على رأسه بنعلها. أحس بنعل آخر في بطنه.

أما شاكر فقد تراجع حقا نحو الحائط عندما رأى السيل قادما.

و اختلط الحابل بالنابل. و تراجعت ليلى و مديحة نحو الحائط ملتصقتين به تماما فقد غصت الحجرة بمن فيها.

"أتتهجمان على امرأتين ضعيفتين يا كلب أنت و هو؟!"

"خذ يا مجرم! يا نذل! يا سَقْطَ الرجال!"

"اضربي بقوة يا بنت! ضعي نعلك في فمه، ذلك الرجل النائم على روحه!"

و كانت مأساة! أو ملهاة!

ثياب الرجلين أخذت تتمزق و الضرب مستمر عليهما بلا هوادة! مطحنة فعلية!

مطحنة تسللت منها كل من ليلى و مديحة بصعوبة متفاديتين النعال التي تتوق إلى جسد تهبط عليه. خرجتا و أخذتا تعبان الهواء عبا.

و باب الغرفة أغلق. و من ينجيك من أيديهن غير ربك فادعه.. لعله يستجيب.

خمس دقائق كاملة مرت على الضحيتين كأنها خمس ساعات مستمرة من الضرب بالنعال.

كانا كلما يريدان الخروج يجدان مقاومة عنيفة تدفعهما دائما إلى الداخل. حتى تمكنا أخيرا بعد عذاب من الزحف هما الاثنان خارج الغرفة و تدحرجا على السلم، ثم أخذ نديم يعاون شاكر في النهوض و الفرار و مضيا مترنحين في الزقاق يتبعهما الجيش الجرار.

و هذا هو مآل من يستقوي على امرأتين ضعيفتين مسكينتين، إحداهما اسمها ليلى و الأخرى اسمها مديحة.

***

في الساعة العاشرة بالضبط ذلك المساء كان آدم يدلف إلى شقته، و قبل أن يغلق بابها توجه نحو ليلى التي قامت تستقبله و على وجهها ابتسامة مرتبكة. احتضن رأسها بشدة و قبله قائلا:

"أنا آسف. سألقن الوغدين درسا لن ينسياه.. فقط انتظري و سترين."

رفعت وجهها نحوه و قالت باطمئنان أكبر و بنغمة لم تخل من بعض المرح:

"لا بأس. لقد قامت النساء بالواجب و زيادة."

ابتسم و جلسا و أخذ يستمع منها إلى التفاصيل كاملة.

بعد أن انتهت سألته:

"ما رأيك؟"

عقد حاجبيه في تفكير و هو يتمعن بعينيه في لا شيء ثم قال:

"عجيب! هل يمكن أن يكون الرجل المجهول قد تصرف بنفسه؟! خطف حسام؟!"

لكن الإجابة عن سؤاله لم تطل لأن الطارق على باب الشقة بعد ثوان من سؤاله كان عنده الخبر اليقين.

فتح الباب. نظر مأخوذا للحظة ثم سأل:

"أستاذة شهيرة؟! أهلا ما الذي..."

لكنه لم يكمل السؤال غير اللبق و ما لبث أن قال:

"تفضلي."

و بعد الترحيب و التعريف جلس الثلاثة في حجرة الجلوس. بادرتها ليلى سائلة:

"هل بعثك شاكر جاد؟"

ابتسمت شهيرة ابتسامة حرج و قالت:

"أنا آسفة عما حدث! شاكر متهور. أرجوك اعذريه. إنه ابنه الوحيد."

سألها آدم بهدوء:

"لماذا أنت هنا يا أستاذة شهيرة؟ فقط للاعتذار؟!"

قالت دون إجابة مباشرة:

"حسام ترك المنزل الذي كان فيه مع نديم بنفسه. ركب سيارة أجرة و أتى إليّ في المدرسة. بالتأكيد لا أصف لك كم الدهشة التي تملكتني. كان شاكر قد تجاهل حتى أن يخبرني بمكانه بعدما أخذه. حسام راوغ نديم و هرب. لم يكن أحد يتوقع مثل ذلك

التصرف!"

انتبهت حواس آدم. قال و هو يضغط على الحروف:

"هرب إليك أنت بالذات؟! إذن فهو يحبك. ربما يعتبرك كأمه. أليس كذلك؟"

قالت:

"أنا أحبه أيضا كابني. لا تتخيل فرحتي عندما شاهدته يدخل عليّ مكتبي!"

سأل بلهجة حازمة:

"أين حسام الآن يا أستاذة شهيرة؟!"

ابتلعت ريقها و صمتت ربع دقيقة وهي تنظر إلى الأرض، ثم رفعت عينيها و قالت:

"عند أبيه."

أشاح آدم بوجهه في ضيق. يا للأسف! ضاعت الفرصة مرة أخرى!

"أين بالضبط؟"

لكن هذا السؤال لن ينال عليه إجابة قط. و كما توقع فالصمت التام هو الرد.

"ما الداعي إذن لمجيئك؟! ماذا تريدين؟!"

"أريد أن أعرف. لماذا تبحث عن حسام بكل ذلك الإصرار؟"

"و هل يهمك ذلك!"

قالت بحدة أكبر:

"نعم! أرجوك أخبرني.. لماذا؟"

تبادل آدم و ليلى النظرات الصامتة ثم قال و هو يزفر:

"لأن أمه وكلتني بالبحث عنه."

لاحظ كلاهما انتفاضتها الخفيفة. ملامح وجهها تعبر بالضبط عن توقعها لهذه الإجابة و أنها لم تكن تريدها أبدا أن تأتي على هذا النحو.

صمتت دقيقة كاملة كان وجهها يفضح الصراع بداخلها.

رفعت عينيها إليه و سألته:

"أين هي؟"

اعتدل آدم و قال:

"لماذا؟! هل تظنين أن تذهبي و تعتذري إليها و تكوني قد أرضيت ضميرك؟! عجيب أمرك يا أستاذة!"

على الجرح بالضبط جاء كلام آدم الموجع. نهضت بآلية و هي تكابد البكاء و توجهت نحو باب الشقة. قبل أن تخرج أتاها آدم و هو يزفر بهَمّ قائلا:

"انتظري. ليست بعيدة عن هنا."

و ألقى إليها بالعنوان.

***

كن قد انصرفن تباعا و بقى معها أقرب سكان الزقاق إليها معرفة. المتشاكستان. أم سعدية و المرأة صاحبة نداء الحرب.

عندما كانت النساء يسألنها عن الرجلين كانت تجيب بصدق:

"صاحب مصنع كنت أعمل فيه. يتهمني بسرقته."

عندما تأخذ شيئا لك فيه النصف و قد منعك عنه شريكك فهل تعتبر سرقة؟!

و السارق الحقيقي يتهم شريكه المسكين بالسرقة! هكذا أحيانا تسير الأمور!

كانت سمعت كلاما من قبيل:

" قطع لسانه!"

"ألم يجد غير أنزه واحدة عرفناها ليتهمها؟!"

"كلاب.. كلاب!"

"تلاقيه هو سارق للملايين. لكنه بيه. الناس تحترمه حتى لو سرق! لكننا نحن القمامة و الحثالة!"

لكن مديحة تعلم أن شاكر لم يسرق الملايين أبدا. فلم إذن يسرق منها من هو أغلى بكثير؟!

"ربنا يسامحه."

و عندما قامت لتودع أم سعدية و الأخرى بعدما تبادلن القبلات قالت الشابة:

"لا عليك يا مديحة.. تباتين نارا تصبحين رمادا."

و أخذت مديحة تراقبهما من على باب غرفتها و المرأة الشابة تسند أم سعدية عندما تعثرت. نظرت فرأت امرأة يبدو أنها ميسورة الحال تنظر إليها في إمعان. و عندما لاحظت أنها لاحظتها توجهت نحوها.

تنحنحت سائلة:

"عفوا. هل هذا بيت... بيت..."

و خانتها شجاعتها. قالت:

"فوزية؟"

سألتها مديحة بخفوت:

"فوزية المصيلحي؟"

أجابتها بخفوت أكبر:

"نعم."

أشارت مديحة بذراع كليلة و وجه متعب و قالت:

"أول الزقاق يا هانم."

مضت شهيرة تجر أذيال الخيبة تشيعها نظرات مديحة البائسة.

***

الفصل السابع و العشرون

"أخبروني أنه قد جاء.. هل أتعامل معه؟"

"لا لا. أدخله يا نديم. أدخله."

اعتدل شاكر جاد في مقعده و هو يتأوه و يتحسس مواضع الألم في جسمه داخل مكتبه في شركته التي هي خلية نحل لا تهدأ، و انتظر القادم باهتمام بالغ.

فتح نديم باب المكتب و أشار ففتح الساعي باب المكتب الخارجي و انكشف عن الرجل.

و كأن نديم ينظر في مرآة! على الأقل من ناحية تعابير الوجه.

كان القادم يحاكي تماما نظرة عيني نديم الناعستين و وجهه المحايد. و كان يضع يديه في جيبيه كما اعتاد.

العين في العين تنظر مباشرة وصاحبها يمضي قدما نحو نديم بخطوات رزينة. حتى عندما اقترب جدا منه و بدا أن نديم سيظل واقفا في مكانه معترضا القادم حتى يوقفه للحظات لم يتوقف. و كان احتكاك الكتف بالكتف المواجه قويا و نديا! لكن كتفا مضروبة بالنعال فقط من الأمس صعب أن تقاوم كتفا متحدية؛ فجرفه القادم بالقوة ليفسح الطريق رغما عنه.

"واااا صديقي اللدود!"

قالها شاكر مرحبا بآدم راسما ابتسامة واسعة و واقفا و عظامه تئن مادا يده بالسلام.

تجاهل آدم اليد الممدودة و ما زال يحاكي نديم في تعابيره.

"أعلم يا صديقي أنك تغلي من ناحيتي.. و لكن اعذرني.. أرجوك.. إنه ابني!"

قالها بنفس الابتسامة.

جاء صوت آدم عميقا كأنه من بئر سحيق:

"و هل اطمأننت الآن؟"

جلس شاكر و أشار إلى آدم و قال:

"اجلس من فضلك. أرجوك تقبل خالص اعتذاري. أبلغ المدام تأسفي الشديد. لم يكن الموضوع شخصيا أبدا."

رفض آدم الجلوس و إن كان كف عن محاكاة وجه نديم. قال:

"سمعت أن كرامتيكما قد تبعثرت و ذهبت أدراج الرياح بالأمس بيد مجموعة من الجنس اللطيف."

ضحك شاكر و قال:

"لطيف؟! يا لطيف يا رب!"

ظهر تعبير التهكم على استحياء على وجه آدم و قال:

"كان من الأفضل أن تستأجر حراسا شخصيين. أم أنك لا تريد أحدا أن يعلم بحسام؟"

زفر شاكر و قال:

"كل ذلك من أجله و أفعل ما هو أكثر! أنت أب و تعرف."

"يا سلام! حلال عليك حرام على مديحة!"

"لا تعدنا إلى ذلك الحديث مرة أخرى يا صديقي. مرة أخرى انقل للمدام أسفي الكبير. لكن لعلمك نديم لم يلمسها قط. اسأل مديحة."

مصوبا قال آدم:

"لم يستطع أن يلمسها."

أشار شاكر برأسه موافقا:

"كما تريد. اطلب أي ترضية."

نفث آدم من أنفه و هو يبتسم استهانة.

"أعلم.. أعلم. إذن اقبل اعتذاري يا رجل."

و نهض مادا يده إلى آدم بالسلام.

نظر إليها آدم للحظات ثم أخرج يده من جيبه ببطء و راقب وجه شاكر الذي انفرجت ابتسامته أكثر...

ثم أعطاها له خاطفة.

لكمه لكمة في فكه السفلي جعلته يسقط على مقعده و يرجع به إلى الوراء ليصطدم بالحائط.

فور أن حدث ذلك كان نديم المتفاجئ مثل شاكر قد أفاق و أمسك بذراع آدم و هم أن يدخل معه في عراك، إلا أن صيحة شاكر أوقفته:

"نديم!"

فخلص آدم ذراعه من يد نديم بعنف و هو ينظر إليه مقطبا بشدة.

قال شاكر و هو يعتدل على الكرسي متحسسا فكه:

"حقك.. حقك."

التفت له آدم و قال معيدا عبارة شاكر:

"لا تأخذها بمأخذ شخصي."

ثم وضع يديه في جيبيه و مضى خارجا بهدوء.

"شاكر بيه.. اتركني عليه!"

"اجلس. اجلس يا نديم. اهدأ. لو كنتُ في مكانه لفعلتُ أكثر من ذلك. هذا الرجل مختلف عن الكثيرين ممن تعاملتُ و تعاملت أنت معهم في حياتك. أليس كذلك؟ قدره حق قدره يا نديم."

جلس نديم مرغما و هو ينظر نظرة جريحة لم تلبث أن اختفت بعد دقيقة.

***

بعد أن مضى نديم جلس شاكر وحيدا في مكتبه يتحسس فكه و يحركه، ثم وضع يديه خلف رأسه و طفق يفكر.

في نفسه كان يقول:

"لقد جعلت ظهري للحائط يا حسام. لم أكن أتخيل أن نصل إلى هذه الدرجة. الآن يا بني أنت تملي عليَّ ما يجب أن أفعله. لكن لا بأس. لقد أكدت لي الطريق الذي يجب عليّ المضي فيه بلا مزيد من التفكير. و آه منك يا مديحة! و أنت بشخصك ضعيفة لا حول لك و لا قوة تكادين تهزمينني! تكادين تضيعين أملي في ابني و تفسدين عمل السنين!"

رن هاتفه في تلك اللحظة فنظر فيه، و عندما علم من المتصل ارتسمت على وجهه ابتسامة سخرية و مقت في آن واحد. قال بصوت مسموع لنفسه:

"أنت! أنت من بِعتني! لكن لا بأس. أنا أيضا على وشك. لقد كنت سأترك لك ما يعينك.. لكنني الآن لن أرحمك! أبدا!"

و فتح الخط و زادت ابتسامته و هو يقول بحماس:

"صديقي العزيز!"

***

فتح الباب و دخل في شقة الطابق الثاني. مر على الجالسين حول الطاولة دون أن يسلم عليهم و لو بكلمة.

ناداه أحد الأربعة حول الطاولة و هم يلعبون بأوراق اللعب:

"يا باشا! ما بال مزاجك؟ ألن تنضم إلينا؟"

تجاهل نديم نداءه و مضى نحو الشرفة. فتحها و جلس على المقعد و أخذ يتطلع إلى ضوء الإنارة في الليل.

قال آخر للأول:

"اذهب و اسأله ماذا يريد أن يشرب."

قال الأول بتشكك:

"لو كان يريد لطلب!"

غضب الآخر و قال:

"و هل تدفع من جيبك؟! كله من ماله هو! أم تريد منه أن يطردنا؟!"

أكل و شرب و سهر على حساب نديم باشا كل يوم.. و هم عنده لا بمنزلة الأصدقاء و لا بمنزلة الأتباع. بَيْن بَيْن. هو لا يستطيع تكوين صداقات.. و في نفس الوقت لا يرغب أن يكون كل من يعرفه ينظر له على أنه السيد. و هؤلاء الأربعة و غيرهم على شاكلتهم هم نتاج ذلك.

نهض الغاضب عندما ظل الأول متقاعسا و ذهب إلى نديم قائلا:

"ماذا تطلب يا باشا؟"

"اتركني و أكملوا لعبكم."

"يا باشا..."

"اسمع الكلام!"

ففعل دون نقاش.

و نديم يجلس محاولا الاسترخاء و صوتهم يصل إليه في خلفية عقله دون أن يفهم كلامهم. و هذا ما كان يريده.

لقد كانت تلك اللكمة التي أعطاها آدم لشاكر موجهة له هو. هو أحس بهذا. كأن آدم يستحقره و يقول له: أنت لا تستحق ضربتي.. بل ضربت سيدك و أنا رجل واحد، فهل كنت حريصا على حمايته منتبها أم قصرت في واجبك؟ ها هو نديم العظيم أصبح كالطفل الصغير لا حول له و لا قوة. لم يعد يمكنك الوثوق فيه يا شاكر.

لكمة معنوية رهيبة!

كان عليه الانتباه أكثر!

و خبط بيده بقوة على المنضدة بجواره و هو يجز على أسنانه. نظر الأربعة نحوه للحظة ثم مضوا في لعبهم و أيديهم تدور على أطباق الفاكهة المنتشرة أمامهم.

يتذكر جيدا ذلك الفتى الصغير في الثانية عشرة الذي هرب من منزل أبيه لسوء المعاملة التي زادت بعد وفاة أمه و زواجه من أخرى؛ فعاش حياة التشرد. أطفال الشوارع، سرقة مقتنيات الناس، التسول. تزعمه لثلاثة سرقوا معا فيلا. أراد أن يأخذ وحده النصف فلم يستطيعوا أخذ إبرة زيادة منه.

قال لهم:

"لكم النصف غدا. ألا يعجب ذلك أحد؟"

فظلوا صامتين.

و اليوم التالي عندما أعطاهم نصيبهم في الصباح و ذهب لينام تحت الجسر كما اعتاد استيقظ ليجد الضابط على رأسه.

أبلغ الثلاثة عنه و وقفوا خلف الضابط و الجنود شامتين. أمسك به الضابط من تلابيبه و قال:

"يا أولاد الكلاب! متى نتخلص منكم؟!"

"بِعتوني يا أنذال؟!"

عندما مد جندي يده ليفتشه قاوم. ضرب اليد. فلكمه الجندي، و آخر ثم ركله الضابط.

"إيه يا جربوع؟! هل تريد الرئيس بنفسه ليأتي و يفتشك؟!"

أخذ يقاوم دون أن يصرخ و لو صرخة واحدة. استخلصوا الأشياء من بين ملابسه بصعوبة. نقود و مجوهرات. أخذ الضابط يعاينها ثم ابتسم و بصق عليه.

فبصق هو الآخر عليه.

و قبل أن ينفجر فيه الضابط جاءت الصرخة من خلفهم:

"إياك!"

و شاهد الشاب ذا الهندام و الملابس الفاخرة يترجل من سيارته و معه سائقه.

قال الشاب و هو يتوجه نحوهم:

"لقد رأينا كل شيء. من أول أن جئتم."

ابتسم الضابط في سخرية و قال:

"الحقيني يا أمي!"

ثم قال:

"هل تريد أن تلبس أنت التهمة؟ لا مانع عندي."

نظر الشاب خلفه و ابتسم بأريحية عندما رأى ضابطا أعلى برتبة واحدة يأتي من بعيد نحوهم. نظر الشاب إلى الضابط الفاسد و أشار إلى خلف ظهره بإبهامه و هو يغمز للضابط أمامه بعينه.

نظر الضابط و معه الجنود و زاغت عيناه و أعينهم.

اقترب الضابط منهم و سأل الضابط الآخر:

"ماذا تفعلون؟"

أجاب الشاب:

"يلبسون الأمر كله للفتى الشجاع."

و نظر إلى الفتى نظرات إعجاب و قال:

"لكنه صامد! مقاتل حتى آخر رمق! رجل صغير!"

"يا فندم..."

"و لا كلمة."

أشار الشاب مرة أخرى و هو يغمز بعينه:

"ابن عمي. و للأسف فعنده ضمير و يقوم بواجبه. لا تحاول."

كان الفتى ينظر للشاب كأخ أكبر انتشله من مأزق رهيب. كان امتنانه له لا يوصف.

عندما خرج من إصلاحية الأحداث وجده يستقبله. مضى إليه و كاد يقبل يديه إلا أن الشاب أمسك بالفتى من كتفه و عَدَل انحناءه و قال:

"لم أر كثيرا في مثل شجاعتك يا صديقي! هل تعمل معي؟"

و هل كان السؤال يحتاج إلى إجابة!

يتذكر ذلك الفتى جيدا.. و لم لا؟

فذلك الفتى هو نديم نفسه.

و ذلك الشاب هو شاكر بعينه.

***

الفصل الثامن و العشرون

و لا يريد أن يتركه في حاله!

مر طيف أمام عينيه الغائبتين في الخيال، و لم يركز في ملامح ذلك الطيف إلا بعد أن توقف أمامه تحت عمود النور بالضبط.

اهتز جسد نديم للحظة. بقدميه جاء. يراه بكل وضوح من الطابق الثاني و هو يتطلع إليه من الأسفل. و في منطقة هادئة كتلك يمكنك أن تسمع من يكلمك بالأسفل بوضوح و أنت على سطح مبنى من أربعة طوابق.

على الرصيف الآخر وقف آدم ذراعاه مبسوطتان إلى الأسفل و عيناه مصوبتان للأعلى و وجهه جامد.

كيف علم ذلك الكلب بهذه الشقة؟! تبعه إذن. تبا! لماذا أتى أصلا؟! ليشمت به؟!

عود نفسه منذ زمن ألا يفاجئه شيء و ألا يسمح للعواطف أن تسيطر عليه، لكنها لحظات نادرة تلك التي يغلي فيها بالحنق و الغيظ.

اهتز من على الكرسي بقوة و أراد أن ينزل إليه ليشتبك معه في شجار عنيف.

لكنه عاد و فكر ثم أشاح ببصره بعيدا بقوة خرافية، و كأن وجود آدم لا يعني له شيئا.

كأنه كم مهمل. كشخص لم تره مرة في حياتك من قبل و لا تتوقع أن تراه مرة أخرى.

لقد حُسم الأمر بالفعل، و هذا الرجل بالأسفل لن يراه هو أبدا بعد اليوم.

"لا يمكنك أن تتجاهلني."

قالها آدم لكن نديم لم يلتفت إليه و إن كان يصغى بملء أذنيه رغما عنه.

"أريد فقط أن أسألك سؤالا واحدا."

فليحاول و ليتعب نفسه فهو لن يشفي غليله.

"لماذا تفعل ذلك مع شاكر؟! لماذا أنت مثل الخاتم في إصبعه؟!"

هاه!

"و لو كان له مليون فضل عليك! أنت تقترب حثيثا من غضب الله قربانا إلى شاكر هذا! أفق يا نديم، أنت ترتكب جرما فظيعا!"

لا حياة لمن ينادي.

أخذ آدم يتنفس بصوت مسموع غيظا و هو ينظر إلى ذلك المعرض عنه ثم قال بحدة:

"هل لديك قلب ينبض بالمشاعر مثلنا يا هذا؟! اكسر تلك الحجارة من على وجهك و انفعل كما ينفعل الناس!"

لم يجبه.

"حس بآلام الناس لعلها تمحو عنك آلامك!"

كان صوت آدم العالي مزعجا فمد نديم يده خلفه و أغلق باب الشرفة بقوة حتى لا يسأل من بالداخل.

لكن حتى لو سألوا فماذا يهم؟ الأمر محسوم.

زفر آدم و قال بصوت فيه بعض الرجاء:

"إنها فرصتك الأخيرة يا نديم. لا تضيعها. أين حسام؟"

لكن يبدو أن حرث البحر أسهل.

دقيقة كاملة من الصمت، و الهدوء، و الرجاء، و الإعراض. لا نتيجة سوى كلمة واحدة نطق بها أخيرا دون أن ينظر إليه:

"انس."

ظل آدم ينظر إليه لثوان، ثم نظر إلى البدر فوقهما و النجوم المتلألئة.

وضع يديه في جيبيه و مضى بتثاقل من حيث جاء.

تابع نديم ظهره حتى اختفى في الظلام، ثم قام ليعود إلى منزله فغدا عمل هام و كثير.

مر على الجمع دون أن يلقي كلمة أو سلاما. تجاهل النداءات المتكررة عليه بالمشاركة. هبط السلم و عندما مر على باب شقة صاحب البيت و كان مفتوحا لمحه

الرجل فأتى مهرولا و قال:

"نديم بيه! أصحابك هؤلاء يثيرون ضجة كل يوم!"

فوضع نديم يده في جيبه و أخرج رزمة و رماها له على طاولة بجوار الباب. قال و هو يكمل هبوطه:

"عندما ينتهي الشهر غيِّر رتاج الباب."

توجه الرجل نحو حاجز السلم و هو يتابع نديم المستأجر السخي معتذرا:

"هل أغضبتك؟! أنا آسف. هل ستترك الشقة؟!"

لم يرد عليه و هو يهبط. بالفعل سيتركها.

لأن الأمر قد حسم.

***

صباح جديد، و مهمة حتمية يجب أن يقوم بها آدم.

في التاسعة كان يقترب من باب مدرسة شهيرة. قبل أن يتمكن من عبور البوابة انتبه الحارس الذي أخرجه أول مرة إلى شخصيته. قال:

"أنت! ممنوع!"

و مد يده أمام صدر آدم يحجزه. نادى على زميل له:

"يا مرسي.. تعال هنا!"

قال آدم بهدوء:

"اسألها أولا."

قال الحارس:

"ألم تعنفك الأستاذة من قبل؟! ماذا تريد؟!"

"الأمور تغيرت."

قالها و دفع ذراع الحارس المقاومة ببطء.

أتى حينها مرسي فساعد زميله. أمسك بكتف آدم. كبلاه معا.

"إذا لم ترحل سنطلب الشرطة!"

"اسألها!"

قالها آدم بغضب بدأ يكشف عن نفسه.

و عندما دفعاه إلى الخارج صرخ و نادى:

"أستاذة شهيراااا."

لمحها و هما يدفعانه بقوة أكبر تخرج من مكتبها مهرولة. وقفت تنظر من الأعلى بدهشة صامتة.

"اطلب له الشرطة يا مرسي!"

قالها الحارس الأول.

"ها هي أمامك.. اسألها يا هذا!"

نظر الحارسان نظرة خاطفة إلى شهيرة الواقفة كالتمثال، و لما لم يجدا منها كلمة أخذا يدفعان آدم بعنف.

إلا أنه نفض أيديهما بقوة و انفلت منطلقا كالسهم إلى الداخل.

فوجئ الرجلان حتى إنهما وقفا عاجزين لثوان ثم انطلقا خلفه.

عندما أصبح أمام شهيرة بالأسفل كانا قد وصلا إليه و نجحوا في القبض عليه.

إلا أنها تكلمت أخيرا و قالت:

"اتركاه."

صوتها ليس كما اعتاداه. فيه قلق. وَهْن. تعجبا لثوان ثم تركاه و هم يلهثون جميعا.

"اذهبا إلى عملكما."

بينما كانا يعودان إلى البوابة كان آدم يعدل من هندامه الذي تبعثر.

قالت شهيرة و كأنها تترجاه:

"حسام ليس هنا!"

نظر إليها نظرة جافة و هو يعدل ياقة قميصه ثم قال:

"لم آت متوقعا وجوده."

ثم مضى إلى مبني الفصول تتبعه نظراتها القلقة.

أخذ يبحث عنه في فصول السنة الأولى المعدودة حتى وجده. لوح له و هو يبتسم. قال إنه سينتظره ريثما تنتهي الحصة.

و فور انتهائها كان قد خرج قبل الجميع.

"عمو!"

ابتسم آدم و هو يستقبله و قال:

"كيف حالك يا حسن؟"

مد الصغير يده و هو يسلم على آدم بحرارة كأنه صديق حميم.

"أين أنت يا عمو؟ هل كنت في السجن؟"

اتسعت ابتسامة آدم و قال:

"لا لا لا. ربنا لا يأتي بِشَرٍّ كهذا. فقط كنت مشغولا."

رفعه آدم و أجلسه على حاجز الطابق الأرضي و سأله:

"هل ما زلت تذكر طلبي؟"

رد حسن بسرعة:

"لم أجده يا عمو. كان قد ذهب."

"أعلم يا حسن. هل عرفته؟"

"نعم عرفته. سألت عنه حتى وجدت من يعرفه. وجدت أول صديق له هنا."

"هل يمكنك أن تأخذني إليه؟"

هبط حسن من تلقاء نفسه و أمسك بيد آدم و قال و هو يأخذه من يده:

"بالتأكيد."

قبل أن يمضي آدم معه لمح شهيرة و هي تقف على مبعدة و تنظر إليه بوجه القلق و الأسى. تجاهلها و مضى مع الصغير.

"ها هو أحمد يا أستاذ."

مد آدم يده إلى الصغير الذي كان يكتب في كراسته و قال:

"كيف حالك يا أحمد؟"

فنظر الصغير إليه متسائلا. تطوع حسن:

"أستاذ آدم يسأل عن حسام."

"حسام الذي مضى منذ فترة؟"

أجاب آدم:

"نعم. اسمه حسام شاكر جاد أليس كذلك؟"

أجاب الصغير:

"بلى. كان صديقي. غاب و لم نعد نراه منذ فترة، ثم أتى من يومين تقريبا. سلم علينا و كأننا لن نراه مرة أخرى."

عبس آدم ساعتها بشدة. قال:

"ألم يقل أين كان؟!"

"لا."

" طيب. و لا إلى أين سيذهب؟"

لوح أحمد برأسه نافيا أيضا.

نظر آدم إلى لوحة الكتابة في أول الفصل في تجهم.

عاد و سأل:

"هل يمكنك أن تصفه لي يا أحمد؟"

قال الصغير و هو يقدح زناد فكره:

"يعني.. أطول قليلا و... آه."

أشار إلى عظمة الوجنة في وجهه هو أسفل عينه اليسرى و قال بانتصار:
"هناك حسنة واضحة لديه في هذا المكان."
أخذ قلب آدم يدق بقوة. انفرج عبوسه قليلا.
قال:
"هل أنت متأكد يا أحمد؟!"
أجاب الصغير في استنكار:
"طبعا يا أستاذ.. لقد كنت صديقه الأول."
نظر آدم إلى خارج الفصل صامتا لثوان ثم قال بابتسامة باهتة:
"شكرا جزيلا يا أحمد."
و التفت إلى حسن و قال:
"ألف شكر يا حسن. لقد قدمت لي معروفا كبيرا."
"و لكنه رحل يا أستاذ كما يقول أحمد!"
وضع آدم كفه على كتفه الصغيرة و قال:
"يا بني، أن تعرف قليلا أفضل من ألا تعرف مطلقا. إنه الخيط."
و لم يفته أن يلحظ شهيرة تنظر إليه من بعيد.

***

الفصل التاسع و العشرون

لا مفر من تلك الخطوة!

قبل أن يستقل سيارة الأجرة اتصل بمديحة و قال لها:

"لا يوجد أمامنا حل آخر. سأمر عليك و نذهب معا إلى الشرطة."

سكتت مقرة على مضض.

و الآن و هو يجلس في سيارة الأجرة أغمض عينيه و أسند رأسه إلى الخلف و قال في نفسه:

"لقد انتهى دورك يا آدم. فلتبدأ بالبحث عن عمل جدي."

لكن عندما رن هاتفه و نظر إلى شاشته علم أن هناك المزيد.

"ماذا تريد؟"

قالها لأول مرة بصوت جاف مع هذا المتصل بالذات!

أجابه الصوت الآتي من بعيد بنبرة أقرب إلى الحسرة:

"أريد أن أخرب بيتك كما ستخرب بيتي!"

ازداد صوت آدم قسوة و هو يقول:

"ألن نكف عن الحيل و الألعاب؟ من أنت؟"

بدا صوت الرجل و كأن اليأس قد هده.

"ما الفارق؟! ما الفارق؟!"

بدأ آدم يهتم و يقول:

"أخبرني عن مصلحتك في عودة حسام إلى أمه. بَصِّرني يا أخي! ساعدني لكي أساعدك!"

أجابه بحرف استهزاء:

"هه!"

ود آدم لو يغلق الخط في وجهه. بالتأكيد سيتصل به مرة أخرى . كلام عن خراب بيته لم يستطع كبحه يشي بأن الرجل مصلحته كبيرة جدا. ما زال هناك بعض الأمل. لا يريد أن يرمي به بنفسه في وجه الريح لتذروه. قرر أن يصبر.

"لماذا تتصل بي الآن؟"

تنهيدة طويلة أطلقها الرجل على الطرف الآخر صمت بعدها لثوان ثم ألقى بالقنبلة في وجهه عبر الهاتف:

"نديم سيَفِر بحسام إلى الخارج!"

انعقد حاجبا آدم بقوة و بصوت عال أفزع السائق بجواره سأل:

"ماذا؟!"

"إما أن تلحق به أو لا تلحق!"

"متى و كيف؟!"

" اليوم! بالقطار. شاكر سيستقله معهم ليودعهم إلى المطار."

"اليوم؟! ألن يسافر معهم؟!"

زفر الرجل على الطرف الآخر و قال:

"ليس بعد."

صمت لحظة ثم قال بنبرة الأسى:

"لديه ما يفعله قبل ذلك!"

صمت آدم مصدوما بتلك الأخبار الجديدة. عاد ليقول:

"سأذهب إلى الشرطة!"

"لن ينفعك ذلك. أقول لك اليوم يطير الطائر خارج القفص و لن تستطيع إعادته بعدها!"

"متى ينطلق القطار و إلى أين؟!"

أعطاه الرجل المعلومات ثم قال:

"بيني و بينك.. لا أعتقد أنك ستفعل شيئا. لقد خاب أملي فيك. لكن ما بيدي حيلة. حلاوة الروح!"

"أخبرني من أنت!"

"من خربت بيته!"

***

لم يكد الرجل يغلق الخط قبل أن يلقي آدم كلمة أخرى حتى رن هاتفه مرة أخرى.

رقم غريب.

"سلامو عليكو."

الصوت الذي رد عليه لم يكن غريبا. و مع أنه صوت يبدو فيه أثر البكاء لكنه تعرفه بسرعة.

"حسام سيسافر إلى الخارج."

قبض آدم بشدة على حشية الكرسي الذي يجلس عليه و هو يسمع صوت شهيرة.

عادت لتقول:

"اليوم."

و نهنهات البكاء ما تزال تتردد.

لم يستغرق وقتا طويلا في الاندهاش لتغير موقفها. سأل بسرعة:

"كيف؟"

"لا أدري. فقط أخبرني شاكر بهذا و لم يزد. سيسافر مع نديم."

"هل سيذهب شاكر معهما؟"

ابتلعت ريقها و قالت و هي تحبس نفسها عن البكاء:

"لا أدري. لم يخبرني بغير ما أخبرتك إياه. قال إننا سنسافر إليه في غضون أسابيع."

"ستسافرين معه؟! بأي صفة؟!"

قالت و البكاء يخنق صوتها:

"كنت! الحق حسام يا أستاذ آدم!"

أخبرها عن الرجل المجهول الذي يتصل به و عن القطار.

قالت:

"لا أدري عنه شيئا!"

أخذ نفسا و قال بسرعة:

"أستاذة شهيرة، أنت ذات قلب من ذهب. أرجوك أكملي جميلك. سأمر عليك و آخذك. أنت تعرفين شكله جيدا. أنت و مديحة، و ربما ليلى زوجتي تأتي معنا. هل توافقين؟"

صمتت ثوان و قالت:

"كما تطلب."

بعدما أخبرها بميعاد قدومه أغلقت الهاتف و ذهبت إلى غرفة نومها و أخذت تبكي.

***

و لماذا لا يرغب في أن يتمسك بأمل و لو ضعيف في نجاح آدم؟

لماذا فقد الطاقة و الحماس؟

هل سلم بالأمر الواقع؟

هل أقر بينه و بين نفسه بغلبة شاكر عليه؟

إذن لماذا لا يلعب معه على المكشوف؟

ما الذي يمكن أن يخسره أكثر مما خسره؟

لكنه لا يستطيع.

ما زال يرجو أن يتفهم شاكر موقفه. ما زال يتعشم في أن يغفر له ما فعل.
لا يريد أن يواجهه.
فلتظل الأمور بالإيماءات و التلميحات دون التصريح الكامل.
لا يريد أن ينهدم الجسر بينه و بين شاكر.
في ذلك ضياع له.
أما شاكر فلن يتأثر.
و لقد فعل لشاكر الكثير من قبل.
أفلا يحفظ الجميل؟
لكن لا جمائل في العمل.
هو بنفسه من علم شاكر ذلك و أكد عليه.
و التلميذ يطبق ما تعلمه من أستاذه. هذا يثبت أنه تلميذ نجيب. فلِمَ يشكو الأستاذ؟!
أغمض عينيه ليحاول أن يغفو قليلا.
قبل أن يذهب إلى شاكر.

***

الفصل الثلاثون

رجل عجوز يقود، و آخر شاب بجواره في نصف عمره، و زوجته تجلس بالخلف، و شهيرة و مديحة.

هكذا بدأ السباق مع القطار و هو متأخر عنهم أصلا حتى الآن في الثالثة عصرا بعد أن جمعهم آدم.

لم يكن يرغب بالمجازفة. لا يدري ما في جعبة شاكر هذه المرة إذا ذهب رأسا إلى محطة القطار قبل أن ينطلق. لربما وجد نديم ينتظره هناك بمفرده. غير مستبعد على الإطلاق. شاكر يقاتل بكل قوته و لن يترك ثغرة. الحذر واجب بشدة الآن. لكن ما يحيره هو كيف يعرف الرجل المجهول كل ذلك!

بالتأكيد مقرب جدا إلى شاكر، فلماذا يعمل إذن ضد مصلحته؟!

لا وقت الآن للتفكير في الإجابات.

رأى آدم أن أسلم طريقة أن يسبق القطار إلى محطة لا يتوقف بعدها لمسافة كافية ليصعدوا إليه، و عندما يطمئنون إلى حركته يمكنهم بسهولة أن يفتشوا عن حسام دون خشية أن يهرب به أحد من قطار مسرع.

إلا لو فكر شاكر في طائرة عمودية تسير بالتوازي مع القطار تحسبا لأي طارئ!

عندما مر الخاطر في ذهن آدم لم يتمالك نفسه إلا و ابتسم قليلا.

رجل مثل شاكر يفعلها. كهذا فكر آدم.

كانت مديحة في المنتصف بين ليلى و شهيرة.

كانت كل عشر دقائق تقريبا تسألها عن حسام.

شكله. ماذا يحب و ماذا يكره. ماذا يعلم عنها أمه. هل يذكرها و لو لمرة. ماذا يفعل. ماذا يأكل. هل هو متفوق في دراسته. هل هو شقي. هل.. هل.. هل..

و شهيرة بمسحة الحزن على وجهها تجيبها بلا كلل أو ملل.

و آدم ينظر في المرآة كل فترة و أخرى إلى وجه شهيرة.

و ليلى تسرح في حال المرأة المسكينة، و يحدوها الأمل في أن تقر عينها أخيرا و تجد ابنها و ترتاح.

و عم جمال يستمع في صمت و هو يقود دون أن يتدخل في الحديث.

بمحاذاة شريط القطار يقود. مر قطاران عليهم. في المرتين كانت أبصار الأربعة ترنو نحو القطار الهادر في قلق، لكن لم يكن من بينهما القطار ذو الرقم المنشود و الحمد لله.

"هل بقى كثير يا عم جمال؟!"

"على وصول يا أستاذ آدم. لا تقلق، سنصل قبله بإذن الله. نعم هذه السيارة عتيقة لكننا نسبقه بساعة على الأقل. نصف ساعة فقط و نصل إلى محطة 15."

التفت آدم إلى الخلف و توجه بالكلام إلى مديحة. قال:

"عندما نصعد إلى القطار إن شاء الله سأذهب أنا و الأستاذة شهيرة لنفتش عنه. تبقين أنت مع ليلى في آخر القطار. اتفقنا؟"

أومأت برأسها بسرعة.

نظر آدم إلى ليلى فابتسمت مشجعة. أخذ نفسا عميقا و نظر إلى الأفق، ثم إلى ساعته ثم إلى عداد السيارة.

مرت ربع الساعة في صمت لم يقطعه إلا بضعة أسئلة من مديحة و إجابات موجزة من شهيرة.

بعدها سمعوا صوت الصافرة يأتي خلفهم من بعيد.

دقت قلوبهم. نظر آدم في ساعته في قلق ثم نظر إلى الخلف. بدأ قطار يظهر من بعيد.

الأمنية الوحيدة لكل منهم الآن هو ألا يكون القطار المنشود. لم يصلوا بعد!

لكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه!

اقترب القطار بسرعة ضعف سرعة السيارة التي يستقلونها على الأقل. تقلصت المسافة

بينهما بسرعة.

"هل هو؟!"

سألت مديحة بجزع.

لم يجبها آدم مع أنه عرف. حاذاهم القطار و استطاع رؤية الرقم بوضوح.

و عندما أسرع القطار متخطيا السيارة رأت مديحة الرقم و سقط قلبها بين قدميها.

كانت تنقل بصرها بين نوافذه في لهفة لعلها تلمح أصحاب الشأن. لعلها تلمحه فتعرفه بقلبها.

لكن القطار لم يفصح عن مكنونه للأسف.

نظر آدم إلى العم جمال و نظر إليه الرجل. ما باليد حيلة. السيارة تسير بسرعتها القصوى.

القطار يهرب أمام أعينهم بسرعة و هم يجاهدون للحاق به!

"أسرع! أسرع يا عم جمال!"

قالتها مديحة بلهفة.

اعتدل الرجل و مال إلى الأمام على مِقوَد سيارته و كأنه بذلك يعطيها دفعة أكبر.

قال:

"سنلحق.. سنلحق بإذن الله. خمس دقائق فقط.. و القطار سينتظر قليلا في المحطة. لا تقلقي يا بنيتي."

دقيقتان مرتا ثم سمعوا صوتا من السيارة.

و تباطأت رغما عنهم.

أخذ عم جمال يعاتب سيارته العتيقة و يقول:

"الآن؟! تخذلينني الآن؟!"

و تدريجيا لكن بسرعة أخذت وقتها نحو التوقف التام.

كان القلق يعصف بالكل عندما بركت.

محاولات عم جمال لإدارة المفتاح لم تأت بأي نتيجة.

نظر آدم عبر الزجاج إلى المحطة التي تبدو من بعيد! قدر بسرعة أن المسافة ربما لا تتجاوز الكيلومترين!

سينقطع نفسه لكن لا مفر!

نظر إلى شهيرة نظرة معبرة.

إنه يحتاجها.

لكن ما باليد حيلة. في ثوان كان يفتح الباب بقوة و يهبط بادئا فورا الجري.

"سألحق به عَدْوا، الحقوا بي!"

قالها و قد ابتعد أمتارا.

***

في مطعم القطار جالسا.

أخذ يرشف الشاي ببطء و هو يلوك مخبوزات خفيفة.

كانت قد بقيت ربع الساعة قبل أن يصل القطار إلى محطة 15.

تركه في المقصورة و جاء إلى هنا لينفرد بنفسه.

أخذ يحدث نفسه في عقله و هو يبتسم بسخرية:

"ترى متى و كيف تصل إلينا هنا يا صديقي؟ هل أنت معنا بالقطار بالفعل؟ فلم إذن لم تأت حتى الآن؟ هل تنتظر لحظة مناسبة؟ أم يا ترى فشلت لأول مرة؟ ستخيب أملي جدا لو فشلت يا آدم. أرجوك لا تفشل. أنا أنتظرك.. لنسدل الستار و يصفق الجمهور."

أخذ يراقب الطريق من النافذة و هو يرشف باستمتاع.

و عندما لمح تلك السيارة العتيقة بنظرة عابرة و القطار يتخطاها، كانت هناك لحظات كافية ليلمح من بداخلها.

ذهل تماما و هو يسأل لا أحد بصوت عال:
"ما هذا؟! لماذا هذا؟!"

***

عندما بدأ آدم عَدْوه لم ينظر قط خلفه.
ربما أفاده قليلا بدؤه ممارسة الرياضة، لكنه ما زال بعيدا عن قوة التحمل المعهودة لـدى الرياضيين.
أخذ يلهث بشدة لكنه لم يخفف من سرعته. عندما مر فتى بجانبه على دراجته و سبقه قليلا اتخذه آدم هدفا قريبا.
لا بد له أن يسبقه. شد على نفسه.
انتبه الفتى. قال:
"أتريد أن تسبقني؟!"
و بدل بسرعة أكبر و هو ينظر خلفه إلى آدم القريب منه بنظرات خاطفة.
كاد آدم أن يبتسم و هو يركض. ازداد إصرارا.
الفتى يبتعد تدريجيا عنه و المسافة تطول بينهما.
باب المحطة ظهر لعينيه أخيرا لكنه ما زال بعيدا عنه.
ابتعد الفتى و هو يقول من بعيد:
"لا تحاول."
طويل هو سور المحطة. قصير أصبح نفسه. و الباب بعيييد.
ثم سمع صوت الصافرة قريبا منه. القطار يتحرك!
ازداد توتره.. و تعبه.. و غضبه!
صوت العجلات على القضبان يهز قلبه و هو في منتصف السور نحو الباب.

ما العمل ؟!
فكِّر فكِّر!
استرعى انتباهه أنبوبة المياه الضخمة الممتدة على طول السور.
و لم يفكر أكثر من ذلك.
قال في نفسه بشيء من السخرية:
"إنه تخصصك."
فورا نحو السور حول اتجاهه، و استغل قوة الدفع التي يركض بها...
و هوووووووب.
قفز على الماسورة و منها إلى أعلى السور دون أن يضيع ثانية واحدة.
لمح القطار و هو يبتعد.
انزلق بسرعة و جلد ذراعيه يتسلخ من الاحتكاك بالسور و هو يهبط.
تفاجأ الركاب بذلك المقتحم عليهم من السور محطة قطار مفتوحة أصلا للجماهير كلها. عندما هبط خانته قدماه فسقط، إلا أنه تابع ببصره القطار الذي يبتعد من بين الزحام.
قام بسرعة يترنح مخترقا الحشود المغادرة بصعوبة. يعيقون حركته بشدة!
ذهب إلى حافة الرصيف و هبط على القضبان.
مؤخرة القطار أمامه تبتعد ببطء.
المسافة بينهما عدة أمتار لا أكثر.
و القطار لا يتعب.
و هو تعب.
تعب بشدة!

***

الفصل الحادي و الثلاثون

في رأسه تداعت أفكار و عتاب.

عيب.. عيب عليك!

آتيك فتذهب؟!

فقط انتظر ثوان لألحق بك!

طيب، ثانيتين فقط!

ثانية واحدة!

لكن القطار لا يستجيب.

آخر خيط بين آدم و حسام يتمدد يتمدد و يتمدد، حتى يكاد ينقطع!

أنَّى له وصله بعد ذلك؟!

صعب عليه أن تكون تلك هي النتيجة النهائية و المراد على مرمى بصره.

دفعه ذلك إلى الحد الأقصى مما يستطيع جسده أن يبذله.

كآلة تدور بسرعتها العالية.. كصاروخ ينطلق متجاوزا حدود السماء الدنيا.. كفهد الشيتا عندما يطلق لنفسه العنان فلا يستطيع مخلوق على سطح الأرض أن يلحق به.

قوة لم يعهدها في نفسه من قبل تدفعه. اعتقد أنه لا يشعر بآلامه. كل همه هو العربة الخلفية.

وجد نفسه على مرمى قدم.

"يا رب."

هيا هيا.

القطار يسرع و هو يسرع.

يتباعد ثم يتقارب.

ثم ظهر الوجه خلف زجاج العربة الخلفية!

فتح صاحبه الباب.

المحصل.

أمسك بحاجز العربة في قوة و صرخ في آدم:

"ماذا تفعل؟! ارجع!"

لكن آدم مد يده إليه دون أن يستطيع الحديث.

"ارجع يا مجنون! لا يمكنك الصعود الآن! ستؤذي نفسك.. ارجع!"

نظرة أمل و رجاء، و يد ما زالت ممدودة.

يد الآخر قريبة جدا و بعيدة جدا في نفس الوقت.

المحصل ذو بنية قوية و جسد ضخم. يمكنه أن يرفع آدم. لكنه يخاف المجازفة.

مد يده في قلق ليلمس بأصابعه أصابع آدم.

النظرة من آدم أبلغ من ألف كلمة. يكاد يقول:

"هيا ارفعني. أرجوك."

لكن الرجل متردد.

و آدم على وشك الانهيار.

بل انهار بالفعل.

تعثر فجأة فاصطدم كفه بكف الرجل

و سريعا، و بلمح البصر تم الأمر.

قبل أن يسقط آدم كان الرجل قد حسم أمره و هو يرى آدم يكاد يسقط؛ فأمسك بكفه بقوة و رفعه بذراع واحدة مستنفرا عضلاته بشدة.

و وجد آدم نفسه يطير أو يجذب إلى مغناطيس بشري، و يقع على أرضية العربة الخلفية.

حقا لقد أصبح بالداخل!

***

غير مصدق لنفسه جلس متهالكا.

أخذ ينظر إلى آدم الراقد على الأرض على جانبه و ذراعه ممتد تحت جسمه، و آخر فوق جنبه بلا حراك إلا حركة تنفسه الشرهة.

أخذ المحصل يتكلم و يسأل:

"ما هذا الذي يدفعك إلى ما فعلت؟!"

لكن عقل آدم كان بين غيبة و حضور. كل ما كان يريده هو أن يتنفس و يرتاح.

يرتاح من التعب العضوي، و مؤقتا من العبء النفسي الذي كان عليه.

من حقه أن يفخر بنفسه أمام نفسه. هذا جزاء المثابرين.

انقلب ببطء على ظهره و نظر للمحصل و قال بنفس متقطع:

" شـ..هه..هه شكرا.. جز.. هه.. هه.. جزيلـ..هه."

أخذ الرجل يقول كلاما لم يلتفت إليه آدم فهو يحاول تنظيم أفكاره الآن.

و تدريجيا أخذ تنفسه ينتظم و أخذ يحرك جسده على الأرض و يرفع ساقيه و يخفضهما، ثم استند بيده على جدار العربة و اعتدل و أسند ظهره عليه بجوار الرجل.

نظر آدم إليه و قد بدا أن الرجل يستفهم عن شيء و ينتظر إجابة.

سأله آدم:

"ماذا قلت؟"

و بدأ الرجل في الحديث و لم يستطع آدم التركيز معه فسرح مرة أخرى بأفكاره نحو هدفه.

اعتدل و هو يترنح حتى قام أخيرا، و لما انتبه إلى أن الرجل كان ينتظر إجابة منه لم يجد غير ابتسامة باهتة يعطيها إياه و هو يمضى داخل القطار بتمهل و تعب و يقول:

" شكرا. ألف شكر."

و ترك الرجل خلفه يضرب أخماسا في أسداس!

***

جالسا قبالة من يبدو كوالده بدا شاكر إلى حد ما مصدوما. مال عليه ذلك الرجل و سأله:

"ما بك يا شاكر؟"

نظر إلى خارج القطار و أجاب ببرود:

"لا شيء."

"لماذا أصررت أن آتي معك؟"

ببرود أيضا أجاب دون أن ينظر إليه:

"لأخبرك."

"تخبرني؟! بم؟!"

نظر إليه و قال بابتسامة تكلفها:

"بمدى عبقريتي يا صديقي!"

و لم يطل حديثهما أكثر من ذلك إذ لمح شاكر آدم يأتي مترنحا ينظر في وجوه الركاب دون أن يلمحه هو.

صاح شاكر في مرح و هو يشير و ينادي عليه:

"هنا.. هنا يا صديقي."

نظر آدم إليه من مبعدة و غاص قلبه!

لم ير أثرا لحسام! أقبل متوجسا!

قام شاكر يستقبله و مد يده ليسلم على آدم المرتبك بحرارة. قال:

"أهلا أهلا، صديقي اللدود. لماذا تأخرت يا رجل؟ هل ستصدقني إن قلت لك إنني خشيت ألا تأتي؟"

أخ. ما اللعبة هذه المرة يا شاكر؟!

سأله:

"أين حسام؟"

بحركة استعراضية قال و هو يبتسم ابتسامة واسعة و يشير إلى باقي القطار:

"قل له بابا يسلم عليك."

زادت دقات قلب آدم من الخوف.

"بالمناسبة.. كيف حال شهيرة؟"

صدمة أخرى لآدم. لم يمهله فسأله:

"فقط أريد أن أعلم كيف استطعت إقناعها أن تخبرك."

"أين حسام يا شاكر؟"

"أخبرني و أخبرك."

"أستفعل؟!"

"خذه وعدا مني."

ثم قال:

"آه.. نسيت أن أعرفك."

و أشار إلى الجالس و قال و هو ينظر إليه لا آدم نظرة غريبة:

"فؤاد بيه. في مقام والدي و شريكي."

مد آدم يده، و مد الآخر يده و شد عليها بقوة لم يجد آدم مبررا لها. أحس أن ذلك العجوز ينظر إليه نظرة خاصة.

"اجلس.. اجلس يا صديقي. ماذا أطلب لك؟"

فعل آدم بآلية و قال:

"ماذا تريد يا شاكر؟"

"أخبرني بإجابة سؤالي و أخبرك بإجابة سؤالك."

تشكك آدم للحظات ثم انفرج فمه و قال:

"هي التي أخبرتني من تلقاء نفسها. عادت إلى رشدها.. لم ترغب أن تحرم أما من ولدها. أنبل و أعظم منك يا شاكر!"

اختفت الابتسامة من على وجه شاكر و بدا أنه يحاول الظهور متماسكا لكن داخله يتفكك.

"هل أخبرتها عن مديحة؟"

"هي أيضا التي جاءت و سألتني لماذا أبحث عن حسام."

صمت لحظة ثم أكمل:

"لأن لها قلبا ليس لك."

نظر شاكر إلى سقف القطار في خيبة أمل و قال في نفسه:

"آه يا شهيرة.. كنت أخشى ذلك. لوددت أن أكون مخطئا.. لكن للأسف!"

لكنه سحب نفسا و قال لآدم:

"عندما لمحتها بينكم في السيارة و القطار يمر عليها أصابتني صدمة خيبة الأمل. شهيرة عاطفية.. لكن أتعرف؟ أنا أعذرها. خفيفة القلب.. لهذا لم أخبرها بالتفاصيل."

"بل طيبة القلب و أنت تعلم. أين حسام؟"

نظر شاكر إليه و ابتسم بشدة و قال:

"أستاذ آدم.. أقدم لك الشخصية التي تتحرق شوقا لمعرفتها."

و أشار إلى الجالس قُبالتهما و قال و هو ينظر أمامه في عيني الرجل بنهم:

" أقدم لك بكل فخر.. و لي كل الشرف.. الرجل الذي حيرك.. المتصل المجهول!"

***

الفصل الثاني و الثلاثون

لم تكن دهشة العجوز فؤاد بأقل من دهشة آدم فكلاهما فغر فمه ذهولا!

بالنسبة لآدم فالأمر ملتبس بشدة!

ها هو الرجل الخفي. المتصل المجهول الذي كان يساعده ضد شاكر. فمن الذي يقدمه له و يعرفه به؟! إنه شاكر!

ما أحلى المنطق!

لعبة أم حق؟!

ذهول و صمت.

أما بالنسبة للآخر فلم يطل تعجبه. نعم فوجئ تماما كآدم إلا أنه استعاد بعضا من رباط جأشه أسرع.

غاص شاكر في مقعده و وضع قدميه على المقعد أمامه بجوار فؤاد و بابتسامة واسعة شامتة سأله:

"أليس كذلك يا شريكي؟"

ابتسم العجوز و قال:

"لقد كنت أعلم أنه لا فائدة. لكنها حلاوة الروح كما أخبرته."

و أشار إلى آدم.

كان آدم ينقل بصره بينهما و هو يحاول استيعاب أي شيء.

ظل شاكر ناظرا إلى شريكه كبير السن لثوان خفتت فيها ابتسامته و قال بعدها:

"يا خسارة يا فؤاد!"

"خسارة بخسارة يا بني."

صرخ فيه شاكر فجأة و قال:

"لا تقلها! بني؟!"

احتد العجوز و قال:

"أنت الذي دفعتني لهذا! أنت الذي تريد أن تدمرني!"

استفزه رده فبدأ وجهه ينطق بالاستنكار الشديد. قال:

"ماذا تقول؟! أنا؟! بعد كل تلك السنين؟! بعد أن أنقذك أبي من الإفلاس؟! أهذا رد الجميل؟!"

علا صوت آدم و قال:

"فليفهمني أحد ماذا يجري."

قطع صوته حبل التعاتب الشديد بينهما. زفر شاكر و نظر إلى الخارج و صمت فؤاد تماما و الوجوم على وجهه.

دقيقة من الصمت مرت كان آدم ينظر فيها إلى الاثنين مرددا بين الفينة و الأخرى تساؤله.

أخيرا بدأ شاكر يتكلم. قال:

"هذا الذي يجلس أمامك يا صديقي كان صديق أبي! كان صديقي! لكنه خان!"

رد الآخر:

"وجهات نظر."

أكمل شاكر كأنه لم يسمعه:

"أبي رحمة الله عليه كان هو و هذا صاحِبَيْ أكبر شركتين متنافستين في صناعة القطن. يوما ما بدأت شركته تخسر تدريجيا و أبي شركته تكسب أكثر و أكثر. عرض عليه شراءها و أنقذه من الإفلاس."

حدجه الآخر بنظرة نارية و قال:

"بثمن بخس!"

"شركتك كانت على المحك. كان يجدر عليك أن تُقبِّل يد أبي لما فعله."

أكمل:

"بل و أعطاه حصة معتبرة في أسهمها."

"لأنه يعلم أنني من أعلم كيفية إدارتها. شركتي يا شاكر!"

"فلماذا كنت تخسر؟"

"أبوك كان يعجزني أمام المشترين بأسعاره."

"وجهات نظر. أنت كنت جشعا."

قاطعهما آدم بحدة:

"ثم؟"

رد شاكر:

"الأرباح عادت إلى الشركة بأضعاف سابقاتها. و هكذا كانت الشراكة بينه و أبي هي الأفضل."

صمت لحظة ثم سأل العجوز بلهجة عتاب حارة:

" أليس كذلك؟!"

أجاب فؤاد:

"رحم الله أباك. لقد كان يفهم كثيرا عنك."

تجاهل شاكر الإهانة و أكمل:

"مات أبي و ترك لي شركاته.. و شركاءه. اسأله و هو يخبرك كم ربح طوال توليّ المسؤولية. اسأله و لا تفزع من الرقم."

قال الرجل:

"و ماذا عن الآن يا شاكر؟! لماذا تريد تصفية أعمالك هنا؟!"

"هذا شأني يا صديق أبي. أنا حر. ليست مشكلتي أنك كبرت و شخت و لم تعد تقدر على تحمل مسؤوليات الإدارة. ترغب في تشغيلي حمارا عندك يجلب لك النقود، فقط

لتنفقها. أخبرني إن كان هناك شيء آخر غير ذلك."

بلهجة عتاب تطلب الشفقة قال فؤاد:

"لقد كنا على أحسن حال يا شاكر! ما الذي تغير؟!"

لم يجب شاكر مباشرة. بعد ثوان قال:

"أنت تعلم و لا تريد أن تعذرني. المال عندك أهم."

لم يرغب آدم في الاسترسال في سماع عتاب الشركاء. قال بقوة:

"ما علاقة ذلك بحسام؟!"

بشبه ابتسامة أشار شاكر إلى فؤاد و قال:

"ببساطة، لأنه هو الذي قدم لي الحل منذ أكثر من ست سنوات عندما علمت بحمل مديحة."

آه هكذا تتضح الأمور.

أخذ آدم يربط الخيوط ببعضها في ذهنه. الآن يعلم سر إصراره الغريب على مساعدته و إخفائه لهويته.

قال آدم مكملا الحل:

"إذا وجدت مديحة ابنها فلن يكون هناك مبرر لسفرك و تصفية أعمالك هنا نهائيا يا شاكر. و بهذا يربح الجميع، أليس كذلك؟"

قال شاكر بقسوة:

"نعم. الكل يربح. هو و أنا بل و مديحة الذي حل لي مشكلتها قبل ذلك و ها هو يعمل في جانبها ضدي الآن!"

صمت لحظة ثم قال:

"الخاسر الوحيد هو أهم أطراف القضية. ابني.. حسام!"

ثم صمت و عاد ليقول:

"و هذا ما لن أسمح به مطلقا و لو حاربت العالم كله!"

تداعت الأفكار في ذهن آدم و نهض بسرعة يبحث عن حسام إلا أن صوت شاكر من خلفه أعاده:

"لا تتعب نفسك. حسام ليس على متن القطار."

صدم آدم. التفت إليه متشككا. أشار شاكر إلى الأمام و قال:

"خذ وقتك و ابحث كما تحب. لكنك ستتعب نفسك سدى."

صمت ثم قال و هو ينظر إلى شريك أبيه:

"لم أكن لأجازف بذلك مطلقا."

منطقية كلامه أعادت آدم ليجلس بخيبة أمل مكانه مرة أخرى.

قال شاكر:

"عندما علمت بتوصلك إلى مدرسة حسام أول مرة كدت أجن. لم يتطرق الشك من ناحيتي تجاه شريك أبي أبدا."

عاد ليقول:

"لكن كل المؤشرات كانت تقول أنه هو الذي كشف لك عن مكانه. خاصة و أنت كنت تقول أن من يتصل بك يرغب في عدم كشف هويته."

صمت و عاد:

"و هكذا رويدا رويدا أفهم و يدخل الشك قلبي. ثم أخذ يتأكد عندما قدمت مع مديحة إلى الفيلا. لقد وقع في الفخ."

و أشار إلى فؤاد الذي بدا حانقا جدا.

"أخبرته بالمشكلة التي سببتها لي و سألته أين أذهب بحسام. فأخبرك. لم يكن لديه خيار آخر. و هكذا تأكدت تماما أنه هو."

عاد شاكر ليقول:

"و لم يبق إلا أن نشهد معا نهاية الفصل الأخير.. و لأقول لصديق أبي الذي وثقت فيه: أنت خائن يا عمي!"

كان آدم صامتا تماما. كان له تفسير آخر.

العجوز يشرب من كأس سقاها من قبل لمديحة.

هذه هي نهاية القصة.

حاول العجوز أن يستعطف. قال:

"شاكر.. أرجوك.. إنني..."

بحسم و بعينين متقدتين بالكراهية قال:

"اخرس. انتهى كل شيء. لا أريد أن أراك مرة أخرى. المحامي سينهي كل الإجراءات."

كان القطار يخفف سرعته تدريجيا ليدخل المحطة. و عندما استقر بها لم يكن العجوز ليحتاج كلاما آخر ليمضي إلى حال سبيله.

قام من مقعده و مضى نحو باب الهبوط ببطء.

عندما مر على نافذتهما و نظر نحوهما، أشاح شاكر ببصره عنه و سمع فقط ما قاله لآدم:

"إنها حلاوة الروح."

***

الفصل الثالث و الثلاثون

مرت ربع الساعة على سير القطار و كلٌّ من آدم و شاكر يجلسان متجاورين يسرح كل منهما في أفكاره و رؤاه الخاصة.

"و هكذا يا صديقي قد شهدت انتصاري على الكل. لا أقصد إهانتك فأنا أشهد لك بكفاءة عظيمة و مثابرة هائلة. كنت أود لو تكون في معسكري. لكن لا بأس. لقد انتهت المشكلة. لو تكبح أحاسيسك المرهفة يا رجل لصنعت لنفسك مستقبلا باهرا."

نظر إليه آدم في وجوم صامت.

نظر الرجل في ساعته و قال في مرح:

"لقد اقتربنا. سننزل المحطة القادمة. قلت لنديم أن يكون جاهزا على التحرك نحو المطار فور أن نصل إلى الشاليه."

فكر آدم. لماذا استخدم صيغة الجمع؟!

"هل ستريني إياه؟!"

ابتسم شاكر و قال:

"ليس لهذه الدرجة يا صديقي. أصدقك القول.. ما زلت أخاف منك. لا أدري ما بداخل جرابك. فقط سأجعلك ترى السيارة من على سطح الشاليه و هي تنطلق مبتعدة بحسام."

"أتريد أن تزهو بانتصارك أمامي؟!"

"الحقيقة؟ نعم يا صديقي. يقولون أنني استعراضي بعض الشيء."

سكت مبتسما ثم قال:

"لكنهم يكذبون.. أنا استعراضي بضراوة!"

و ضحك بشدة.

لم يدر آدم ماذا يقول له. بدا له أنها النهاية بالفعل. غرق في مشاعر مرارة و حزن.

انتشله شاكر منها عندما وجده آدم واقفا يسأله:

"هل ستأتي؟"

كان القطار قد توقف و الركاب يأخذون في التحرك نحو الأبواب. نهض آدم بآلية و تبع شاكر بصمت تام.

***

عندما أقلهم أحد سائقي شاكر الذي انتظره بالسيارة في محطة القطار لم يكن يسمع ما يقوله.

كل ما كان يشغل فكره هو كيف يتصرف في هذا الوقت العصيب.

بدا له الرجل الذي يتكلم بحماس دون أن يعي كلامه غير مستعد أبدا لسماع كلام عن الرحمة و الشفقة بقلب أم كسير.

لكن ما بيده حيلة.

"ماذا رأيت في وجه مديحة؟"

سأله آدم السؤال مقاطعا إياه. توقف شاكر و نظر إلى آدم بجواره في صمت، ثم ابتسم ابتسامة انتصار خفيفة و هو يقول:

"رأيت عهدا بائدا يريد أن يرجع ليخنق أحلام المستقبل المشرق. عهد أناني لا يراعي مصلحة أبنائه."

ثم سأله:

"ما رأيك في هذا الرد البليغ؟"

لا فائدة.

"انزل."

نظر آدم حوله فوجد شاليها على طراز ما اعتاد أن يرى شاكر ممتلكا إياه. واحد من أفخم ما رأته عيناه.

في المجلات طبعا.

أخذ يبحث بعينيه إلا أن شاكر قال و هو يدفعه خارجا:

"من الأعلى تجد ما تبحث عنه."

نزلا و صرف شاكر السائق على أن يعود إليه بعد ثلاث ساعات.

***

على امتداد البصر و حتى تلتقي السماء بالأرض بعيدا في الأفق، كانت أشعة الشمس الذهبية تغمر البحر. كانت تتلألأ على صفحة المياه مكونة مجموعة من الشموس الصغيرة التي تضيء و تنطفئ في لحظات، لتولد من جديد، ثم تموت، ثم تولد، و تموت و تولد، ثم تموت.. إلى أن يشاء الله.

كانا أعلى سلم الشاليه الخارجي. شاكر يمشي بثقة يتبعه آدم بقلق. نظر الأخير إلى الشرفة المتسعة التي انتهى إليها السلم.

مضيا. وقف شاكر معتمدا على حاجزها بيديه، مغلقا عينيه، يستمتع بهواء البحر و رائحته، مبتسما و راضيا كل الرضى.

نظر آدم فوجد مِقْفَزا ممتدا من أسفل حاجز الشرفة إلى البحر بأسفل منهما مباشرة. تطلع آدم إلى الأسفل. المياه رائعة. الشمس جميلة، لا قوية و لا ذابلة.

من ارتفاع ثلاثة طوابق يرى ما حوله بكل وضوح. سيارة هنا و أخرى هناك، و ثالثة بعيدة و رابعة قريبة، و غيرها و غيرها.

ترى في أي واحدة يجلس نديم الآن و معه حسام استعدادا لأمر شاكر بالتوجه نحو المطار، استعدادا للفرار؟

أفاقه شاكر من شروده و هو يقول دافعا إياه بيده إلى الخلف:

"حذار أن تسقط. حتى إذا كنت تجيد السباحة مثلي فلن تخرج من الماء بسهولة. انظر إلى القاعدة بالأسفل. كما ترى، انحدارها الشديد لا يسمح لأحد بالصعود من الماء إلا عبر ذلك الباب المغلق."

قالها ثم قفز عبر الحاجز إلى المِقْفَز المرن و أخذ يهتز به لهوا صعودا و هبوطا، ممسكا بيديه من خلفه بحاجز الشرفة.

راقبه آدم لثوان ثم نظر إلى السيارات من حوله مرة أخرى.

رن هاتف آدم لحظتها فوجد ليلى. نظر إليه شاكر و هو يفتح الخط و يتكلم.

"سلامو عليكو.

نعم يا ليلى أين أنتم؟"

"أنا مع شاكر في شاليه خاص به."

ابتلع ريقه بصعوبة ثم قال ليرد على السؤال الأصعب:

"لا للأسف."

قالها و هو ينظر في عيني شاكر، و كذلك فعل الآخر الذي توقف عن اللهو.

لحظات صمت مرت ثم توجه آدم إلى شاكر بالكلام:

"مديحة تريد أن تكلمك."

ابتسم شاكر استهتارا و قال:

"قل لها لا فائدة."

صمت آدم لحظة ثم بَلَّغ الإجابة ببطء. عاد إلى شاكر و قال:

"ترجوك."

اختفت ابتسامة الاستهتار و حل محلها تعبير جامد. قال الرجل و هو يؤكد و يهز رأسه يمنة و يسرة:

"لا فائدة."

فتح آدم السمَّاعة و أخذ يستمع مع شاكر إلى الصوت المكلوم.
رجاءات، و توسلات، و استعطاف، و بكاء، قطعوا قلب آدم و ظل وجه شاكر جامدا.
تحشرج صوت مديحة و اختنق بالبكاء، و اختفى تماما.
قال شاكر بصوت فيه بعض الضعف:
"هل انتهيت؟"
أغلق آدم الهاتف أسفا. بدأ شاكر في الاهتزاز مرة أخرى لكن بحماس أضعف بكثير.
قال آدم:
"حرام يا شاكر!"
لم يجب الرجل. ثوان مرت و سأل:
"هل تريد استعادة مليون من الذين استخلصهم نديم منك؟"
كان تساؤل آدم واضحا على وجهه. و عندما فتح فمه ليعترض قاطعه شاكر بقوة و قال مشيرا:
"أسابقك حتى تلك العلامات. أنا سباح ماهر. إذا سبقتني تأخذ مني مليونا. إذا سبقتك تشهد ببراعتي ألفا من المرات. اتفقنا؟"
"ما هذا العبث؟!"
"إنه للاحتفال يا صديقي. ألا تريد أن تحتفل معي بانتصاري؟"
" انتصرت على نفسك للأسف يا شاكر. أنت فائز و مهزوم في نفس الوقت."
حرك شاكر لسانه بصوت واضح في نفي و قال:
"تؤ تؤ تؤ. قلبك الرهيف هو من سيضيعك يوما ما يا صديقي. خذها مني كلمة."
سكت ثم سأل:
"هاه؟ ما رأيك؟"
انطلقت سيارة فتحول آدم نحوها تلقائيا بسرعة.
ضحك شاكر و قال:

"ليست هي. إذن نلعب لعبة أخرى. في مرة واحدة، هل يمكنك أن تعرف أي سيارة بها حسام؟ إذا فعلت لك مليونان لا مليون واحد."

قال آدم و قلبه يدق بقوة:

"إذا فعلت أحصل على حسام!"

ضحك شاكر بصوت مرتفع و قال:

"لا لا يا صديقي! حتى إذا وعدتك فلا تضمني في ذلك الوعد أبدا. أنا صادق معك.. هذا الوعد إن وعدته لك فلا أنوي الوفاء به مطلقا."

و أخذ يقفز بحماس أشد.

***

الفصل الرابع و الثلاثون

جالسا في السيارة ينتظر.

بعد قليل سيودع حياته في هذا البلد و يعيش حياة جديدة.

هل سيتزوج و يكون له أبناء بدلا من حياته التي عاشها على الهامش؟ ربما.. و لم لا؟

في المقعد الخلفي يجلس حسام و عيناه تنظران إلى عمق البحر.

سأل مرة أخرى نديم:

"ماذا ننتظر؟!"

أجابه نديم نفس الإجابة:

"ننتظر أمر شاكر بيه والدك."

سكت حسام على مضض وتوقف عن كسر الملل بإلقاء السؤال الذي يعرف إجابته مرة أخرى.

نظر نديم في مرآة سيارته إلى الشاليه البعيد من خلفه.

لمح للمرة العشرين آدم و هو يتحدث إلى شاكر.

ذلك الرجل يشعر نحوه بمقت شديد. هو أول من يشعر بالعجز أمامه منذ زمن بعيد.

ألذلك يريد أن يهرب؟

ثارت نفسه. قالت له:

"لا لا! و من هو ليدفعك إلى الهرب؟! إنه حشرة! لم و لن يصل إلى مبتغاه أبدا! أنت و شاكر غلبتماه بالفعل ."

بذل أقصى جهده ليمنع نفسه من النظر في المرآة مرة أخرى. يريد أن ينسى وجوده تماما.

***

"لماذا أتيت بي إلى هنا يا شاكر؟!"

محتدا قالها آدم.

ابتسم الآخر و قال:

"لتعترف بتفوقي عليك يا صديقي."

"ما هذا العبث؟!"

"سمه ما شئت، لكن الواقع يقول إنك فشلت أمامي. حتى مع قرب من تبحث عنه منك جدا الآن، فهو بعيد عنك في نفس الوقت و أنت لا تستطيع فعل أي شيء حيال ذلك. اعترف بسيطرتي تماما على كل الأمور."

طعم المرارة بدأ يغزو حلق آدم لكنه أخذ نفسا عميقا و لم يقل شيئا.

"اعترف و خذ ثلاثة ملايين؟"

بدأ الغضب يغزو ملامح آدم.

ضحك شاكر و قال:

"لا بأس لا بأس. ربما تريد أن تكسبها بعرق جبينك. اعترف بطريقة أخرى."

سكت ثم أشار إلى البحر أمامه و قال:

"تسابقني إلى تلك العلامات.. إذا سبقتني أعطيك النقود. و إذا سبقتك تعترف بفشلك مرتين. الأولى هنا أمامي وحدي و الثانية أمام فؤاد و مديحة و شهيرة. ما رأيك؟"

أخذ آدم ينفخ من الغيظ إلا أن شاكر لم يعر غيظه اهتماما. قال:

"و أحذرك.. أنا سباح ماهر."

و أشار إلى الأسفل و قال:

"كل تلك المياه مملكتي التي أصول فيها و أجول بلا منافس. لكنني أشفق عليك و أترك لك فرصة أخيرة لمكسب ما."

و ابتسم ابتسامة مستفزة تجعل الرزين أهوج.

ابتلع آدم ريقه و ظل على غضبه الصامت.

و مرت الدقائق و الحال باق على ما هو عليه.

"لا فائدة يا صديقي؟"

لم يرد آدم.

فأوماً شاكر عدة مرات و هو يضم شفتيه أسفا. أخرج هاتفه و طلب رقما ثم قال و هو ينظر لآدم:

"تحرك يا نديم."

نظر آدم نحو الطريق بحدة.

تلك السيارة قرب آخر الطريق تسير بهدوء و نعومة. بعيدة عنه جدا. أمسك بالحاجز في قوة و هو يريد أن يطير نحوها.

شاكر أخذ يراقبه باستمتاع و هو يهتز بالمقفز. قال:

"نظراتك هذه اعتراف ضمني يا صديقي. عذرا. أنا لم أعتد الخسارة من قبل."

السيارة تتهادى أمام عيني آدم و تأخذ طريقها بسرعة أكبر و أكبر ثم تصل إلى نهاية الطريق.

لم تمض إلا لحظات طويلة على آدم حتى أخذت المنحنى و اختفت تماما عن ناظريه خلف المباني.

ثوان معدودة كانت الحسرة فيها تأكل قلب آدم و تسري في عروقه كالبركان، ثم رأى تلك السيارة و هي تأتي مسرعة خلف سيارة نديم بالضبط و تختفي على إثرها خلف المباني، ثم سمعا معا صوت اصطدام مروع!

حتى مع تلك المسافة البعيدة نسبيا!

***

الفصل الخامس و الثلاثون

لوهلة تجمد شاكر في مكانه بعد سماع الصوت الرهيب. توقف عن الاهتزاز. آدم كان مثله مذهولا.

أخرج شاكر هاتفه بسرعة طالبا رقم نديم.

لحظات صعبة مرت عليه و هو يسمع رنين الجرس.

"أجب! أجب يا نديم!"

لكن تمر الثواني و لا مجيب.

ينظر بلهفة نحو المنحنى حيث خلفه بالضبط وقع الحادث.

"أجب عليك اللعنة!"

لا مجيب.

فزع شديد أصاب شاكر و هو يوازن نفسه حتى لا يسقط في الماء، بينما يحاول القفز متعجلا على حاجز الشرفة إلى الداخل.

لم يكن آدم أقل فزعا أو قلقا منه، لكنه وجد أن تصرفه الذي فعله لحظتها هو التصرف الأمثل في هذا الموقف العصيب.

انطلق يجري نحو شاكر!

لو أراد الناظر إليهما أن يراهما بالحركة البطيئة لما فهم لماذا يجري آدم نحو شاكر.

لكن لأن هذه الأمور في الحقيقة تأخذ لحظات فسيفهم الناظر إلى المشهد كل شيء بعد ثوان.

بقوة و عزم اتجه آدم نحو شاكر و في رأسه جملته:

"أنا سباح ماهر."

و أيضا في رأسه جملة له هو:

"إذن فلن يضرك هذا يا شاكر."

فوجئ شاكر و قد أوشك على عبور الحاجز بالذي يصطدم بكتفه بقوة!

و عندما اختل توازنه فعلا، كان آخر ما يراه قبل أن يسقط نحو الماء هو وجه آدم المذهول!

***

اصطدم شاكر بالماء البارد نوعا. غاص لثوان ثم طفا.

"تف.. أي.. أيها المخب.. المخبول!"

أخذ يصرخ بالأسفل و هو يرى آدم يطل عليه.

"ما هذا أيها المجـ .. تف.. المجـ .. تف تف.."

لم ينتظر آدم طويلا ليسمع الباقي.

أسرع هابطا السلم بقفزات طويلة. أخذ طريقه إلى مكان الحادث جريا يلاحقه صوت شاكر المتوعد بأقذع الشتائم.

لا يدري كيف خطرت على ذهنه بتلك السرعة، لكنه يرى و خيوط تفكيره يكتمل نسيجها أنه كان يجب عليه فعل ذلك.

أن ينحي شاكر جانبا و ليتسلم زمام الأمر من هنا، و ليواجه الواقع أيا كانت نتيجته والتي سيطالعها بعينيه عما قليل.

الآن سيتضح كل شيء.. و يا للأسي بحادث!

أخذ في نفسه يدعو و يقول:

"يا رب.. يا رب."

اقترب من المنحنى بسرعة و قلبه لا يقل سرعة في دقاته عن حركة قدميه.

لف أخيرا. غاص قلبه بين قدميه و هو يرى المشهد!

تجمد للحظة، ثم نظر إلى مسافة أبعد، ثم هرول نحو السيارة.

مد رأسه لاهثا و هو يحاول أن يرى من بداخلها.

أخذ يصرخ و هو يدق على الزجاج و يسأل هذا الذي يرجع رأسه إلى الخلف مغمض العينين:

"هل أنت بخير؟! هل تسمعني؟! أجبني! هل أنت بخير؟!"

و أخذ يدق بقوة!

***

الفصل السادس و الثلاثون

كان عليه أن يرجع.

واضعا يديه في جيبي معطفه أخذ يقطع الطريق عائدا إلى الشاليه و في رأسه تدور أسئلة.

ماذا يقول له و بم يجيب عن أسئلته؟ كيف يدير حوارا معه موزونا بميزان الذهب؟

وصلت إلى مسامعه صرخات التوعد و السباب.

نظر آدم إليه في الماء على مبعدة و هو يدخل الشاليه. رآه في حالة هياج حركي زادت عندما لمحه.

"أيها المعتوه! ماذا فعلت؟! أين حسام؟! ماذا حدث له ؟!"

لم يجبه بشيء. اتجه بهدوء نحو الباب المغلق المفضي إلى البحر.

على عتبته وجد سلما صغيرا متصلا بالأرض، ينفرد إلى الأسفل و يجمع إلى الأعلى مرة أخرى في حال الانتهاء من استخدامه.

هذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكن لمن في الماء أن يصعد إلى الأعلى.

كان شاكر قد سبح نحو الباب و أخذ يرغي و يزبد و يقول:

"افتح الباب أيها المجنون و أخرجني! أين حسام أيها المخبول؟!"

سأله آدم من خلفه:

"أين مفتاحه؟"

بصرخات قوية أخبره شاكر بمكانه داخل الشاليه. أخذ الأمر من آدم دقيقتين حتى أحضره و فتح الباب ليطالعه الوجه الثائر.

مد شاكر يده و قال آمرا:

"أنزل السلم!"

إلا أن آدم لم يستجب، بل مضى إلى الأمام و هبط جالسا القرفصاء ناظرا إلى شاكر أسفل منه بالضبط.

"هل سمعتني يا أبله؟!"

قال آدم بهدوء:

"لن ينفعك الصراخ."

رد عليه و هو يضرب الماء من حوله بقبضته:

"انتظر حتى أضع يدي عليك! سأكسحك! أين حسام ؟! هل أصابه مكروه؟!"

أخذ آدم نفسا عميقا و هو ينظر إلى عرض البحر دون أن يجيبه.

"هل أنت أصم؟!"

لم يكن صراخ شاكر هو ما دفعه للإجابة عليه، لكنه بدأ لعبة الشد و الجذب الآن. قال:

"حسام من؟"

زاد اكفهرار وجه شاكر و هو يصرخ و يقول:

" حسام ابني! هل أنت معتوه؟!"

كلمات قاسية ستخرج من فم آدم لكنه مجبر على قولها. نظر في عيني شاكر مباشرة و قال:

"انس أن لك ابنا اسمه حسام!"

ألجمت الجملة فم شاكر. أحس بقبضة قوية تعتصر قلبه. ذهول يملأ ملامحه. عيناه تدوران في محجريهما يكاد لا يصدق.

وجد صوته فقال:

"ماذا أصابه؟! هل.. مـ.. هل مات؟! حسام مات؟!"

كان الشجن يغزو قلب آدم لما هو مضطر لفعله. هو أب أيضا و يعلم قسوة شعور كذلك على أي قلب. لكن ما باليد حيلة.

نظر مرة أخرى إلى عرض البحر و لم يجب.

ثوان قاسية مرت على الاثنين.

سمع آدم تهانف شاكر.

بصوت مضطرب فيه رنة الحزن سأله:

"حسام مات يا آدم؟!"

أحاطت بعيني آدم غلالة الدموع و هو يجيب بسؤال عجيب:

"بم تحس الآن؟"

"أجبني يا آدم.. هل مات؟!"

"كل نفس ذائقة الموت."

تهدل كتفا شاكر في الماء و الذهول لا يفارق عينيه المتطلعتين للأعلى حيث آدم الناظر بعيدا.

"أقبل قدميك يا آدم! أخرجني!"

"و ما الفائدة؟"

باستنكارية وحشية صرخ شاكر و قال:

"أريد أن أراه! أليس لك قلب؟!"

أجاب آدم:

"فاقد الشيء لا يستنكر على الناس فقدهم له. لا تعظني يا شاكر."

إجابة أوقفت عقل شاكر عن أي تفكير آخر سوى في تلك العبارة.

و أعاده إلى العالم رنين بالأعلى.

***

رفع الاثنان رأسيهما بحدة.
رجع آدم بالذاكرة إلى الخلف لدقائق.
عندما دفع شاكر بكتفه سقط هاتفه بالداخل.. لم يسقط معه في الماء.
استمر الرنين.
نظر آدم إلى شاكر و نظر الأخير إليه في صمت الصدمة.
سأل شاكر سؤالا لا معنى له. قال و كأن آدم يعلم:
"من هذا؟!"
بشدة تمنى آدم هوية المتصل لدرجة أنه نهض بقوة و أخذ يجري نحو السلم.
صعد قفزا و هرول نحو الهاتف الرابض على الأرض.
قبل أن يصل إليه توقف عن الرنين. لكنه عندما وصل عاود. مد يده و قلبه يدق بشدة و طالع هوية المتصل.
فور أن رأى الاسم أحس بموجة ارتياح عارمة تغمره.
أطلق زفره قوية سمعها شاكر بالأسفل؛ فأخذت حركته تزداد و أخذ يسأله بإلحاح:
"من؟! من؟!"
أخذ آدم طريقه إلى الأسفل بهدوء و الهاتف في يمينه و رنينه يتردد.
فرصة نهائية جاءت على غير موعد، وفرت عليه جهدا كبيرا. هذه هي لحظة الحسم.
هذه و لا توجد أخرى غيرها.
وصل إلى الأسفل و توجه نحو شاكر.
وقف ينظر له بالأسفل و أخذ نفسا عميقا.
كان الآخر بدافع غريزي عنيف يرغب بشدة في معرفه هوية المتصل.
"من هذا يا آدم؟! أخرجني لأرد!"
"قبل أن تعرف، سؤال واحد."

تنهد و سأل على وقع الرنين المتصل:

"هل أحسست بمرارة فقد فلذة كبدك؟"

"ما هذا الكلام؟! من يتصل؟!"

تجاهل آدم نبرته التي أخذت في التصاعد.

"هل تذوقت الطعم المر الذي أذقته لأم ابنك؟"

"ماذا تقول؟! إن..."

قاطعه آدم و هو يهبط ليجلس القرفصاء و يمد يده بالهاتف إليه ليريه اسم المتصل. قال جملة بسيطة:

"قل له أن يرجع."

عندما طالع شاكر الاسم انبعثت في عروقه قوة جبارة. حماس دافق. أمل عنيف.

أخذ يضرب الماء بقوة حتى رش آدم به.

مسح آدم الماء عن وجهه.

"نديم؟! نديم؟! هل هو نديم؟!"

"مره أن يرجع."

"حسام.. حسام! هل هو بخير؟!"

تنهد آدم و قال:

"بخير حال بإذن الله. نفذ يا شاكر."

بوجه مذهول من الفرحة أخذ شاكر يتوسل:

"أخرجني أرجوك! بل اقذف الهاتف إلي! أريد أن أسمع صوته! أريد أن أسمع صوت حسام!"

"نعم. و كذلك أمه.. مديحة."

ألجمت العبارة فم شاكر و أخذ يتفكر. ربما بصورة جديدة لأول مرة.

و قبل أن يتحدث شاكر فتح آدم الخط و وضعه على أذنه دون حديث.

سمع صوت نديم و هو يسأل بقلق:

"شاكر بيه؟! شاكر بيه؟! هل تسمعني؟! آلو!"

كانت شذرات من الصوت تصل إلى مسامع شاكر. قال بلهفة:

"ضعه على السمَّاعة يا آدم! لأجل كل عزيز لديك افعل! لأجل الله افعل!"

بقوة أخذ آدم يسيطر على نفسه ليقول بهدوء:

"مره أن يرجع."

رفع شاكر رأسه إلى الأفق البعيد. تهدلت كتفاه في الماء ثانية و بدا أنه قد كبر عشرات السنين.

لحظتها فتح آدم السمَّاعة و سمعا معا صوت نديم:

"شاكر بيه! لماذا لا ترد؟! آلو! آلو!"

التفت شاكر بحدة و ابتلع ريقه بصعوبة و نظر إلى صفحة الماء الذي يسبح فيه، ثم تنحنح و هو ينظر إلى آدم و يقول بصوت عجوز:

"ارجع يا نديم. ارجع بحسام."

و تنفس آدم الصعداء.

تنفسها بقوة.

***

الفصل السابع و الثلاثون

حظ سيء يا آدم، لكن هذه هي الدنيا: غالب و مغلوب.

هكذا فكر نديم و هو يقود السيارة مبتعدا بحسام فور أن تلقى الأمر من شاكر.

كان يشعر بالرضا تماما، و للمرة التي أصبح عدها بلا قيمة راقب آدم في مرآة السيارة و هو يقف مع شاكر بلا حيلة.

و عندما لم يعد بإمكانه رؤيته، و عندما أخذ المنحنى و انطلق في الطريق الواسع، اعتبر نفسه انتقل إلى حياة جديدة.

حتى إن نشوة الانتصار أسكرت عقله فلم يشعر بالاصطدام الذي حدث خلفه بعد ثوان من دورانه.

سيارة أخرى فقد صاحبها السيطرة عليها و كاد أن يصطدم بسيارة نديم، إلا أن الأولى كانت قد تخطت بالكاد مسار اندفاع تلك السيارة لتصطدم بالمبني الأسمنتي بقوة نسبية.

أدار حسام لحظتها جسمه إلى الخلف بفزع و رأى حقيبة بيضاء تنتشر من عجلة القيادة في وجه السائق الذي يبدو أنه لم يكن مرتديا حزام الأمان؛ فارتد إلى الأعلى و اصطدم رأسه بسقف سيارته.

ما كان يصل إلى عقل نديم السارح هو صوت قوي في الخلفية لم يشغل نفسه بتبينه.

و بالتأكيد صوت الهاتف بجواره لم يلق أدني اهتمام من عقله المنتشي.

كان حسام يناديه لدقيقة كاملة، و لا استجابة. سكت الصغير حينا ثم عاود مناداته لكن نديم كان في عالم آخر؛ فوقف و أخذ يهزه من الخلف و يقول:

"نديم.. نديم!"

انتفض انتفاضة خفيفة و أفاق من حلم يقظة جميل.

ليبدأ الدخول في كابوس!

نبهه حسام إلى الهاتف الذي صمت منذ مدة.

نظر إلى المتصل نظرة سريعة. عندما وجده شاكر ضغط زر الاتصال فورا.

لا مجيب.

استمر حتى نهاية الرنين.

ربما كان في الحمام.

واصل القيادة نحو المطار. انتظر دقيقة و عاود الاتصال.

لا رد.

لم يتعود من شاكر على ذلك.

مَرَّة، فمرة، فمرة.

لا استجابة.

عقد حاجبيه!

نظر إلى حسام في المرآة خلفه.

انتقل القلق إلى الصغير. سأل:

"ماذا؟!"

لم يرد.

بعزم أكبر سأل:

"قلت لك: ماذا؟! من اتصل بك؟! أبي؟!"

قال ليسكته:

"لا."

ماذا حدث؟!

***

لكنه الآن يفهم.

عندما تلقى استجابة هذه المرة و فُتح الخط أخيرا بلا رد، ثم سمع صوت شاكر بعدها يطلب منه الرجوع الرجوع بحسام صدم.

ماذا حدث؟!

"هل أنت بخير يا شاكر بيه؟!"

توتر حسام خلفه و هو يستمع.

أجابه صوت شاكر المهدود:

"نعم يا نديم. عد فورا."

"ما هذا الكلام يا شاكر بيه؟! ماذا حدث؟! أما زلت مع ذلك المأفون في الشاليه؟!"

أخدت الحدة تجد طريقها إلى صوت شاكر و هو يقول:

"أتستجوبني يا نديم؟! أقول لك ارجع!"

"لماذا؟!"

"انتهى الأمر يا نديم.. لن نسافر."

"ماذا؟!"

كانت دهشته لا توصف. ما هذا العبث؟!

لأول مرة في حياته يأخذ هذا المنحنى غير المطيع بسرعة لرئيسه.

بدأ يأخذ و يرد في جدال.

ما الذي طرأ ليغير شاكر عزمه؟!

أهو ذلك الشيطان؟!

اتقدت عينا نديم بالغضب!

"ماذا قال لك ذلك المخبول يا شاكر بيه؟ هل حرضك علي؟"

صرخ شاكر من الغضب و هو يتحرك بعصبية في الماء:

"ما هذا التخريف الذي تقوله يا نديم؟! ألم تسمعني جيدا؟! ارجع!"

عقد آدم حاجبيه.

و سمع حسام الكلمة الأخيرة بوضوح.

"و العمل يا شاكر بيه؟! لقد رتبنا كل شيء!"

قالها باستنكار شديد. يشعر بالغدر!

كان شاكر مع خفوت قوته غاضبا بشدة لتلك النغمة الجديدة التي يتكلم بها نديم.

فقد أعصابه و قال:

"كيف تتكلم هكذا؟! هل تراجعني؟! آمرك أن ترجع!"

إلا أن العناد أصبح حاضرا.

قال بعصبية لم يعهدها هو في نفسه:

"أفهم أولا! لماذا؟!"

"سيبقى عملنا هنا يا نديم! سيرجع كل شيء كما كان!"

"و مديحة؟!"

كان غضب شاكر لا يقل عن غضب نديم لا يقل عن قلق متزايد لآدم من حوار بقواعد جديدة بين رئيس و مرؤوس يعرفهما عن قرب.

"ما شأنك أنت بمديحة؟! عليك اللعنة! ارجع يا أحمق!"

توقف نديم عن القيادة و أخذ يستوعب موقفه الجديد.

تظهر لي في البخت يا آدم!

تظهر فتفسد كل شيء!

ملعون شيطانك!

بل أنت شيطان فوق شيطانك!

أخذ القلق يستبد بحسام و هو يرى وجه نديم المتجهم بشدة على غير عادته.

قال بتردد:

"ارجع كما قال أبي!"

نظر إليه نديم فجأة بوجهه العابس فتراجع الصغير في فزع.
"أعطني حسام على الهاتف! أعطني و إلا خربت بيتك!"
هل أصبحت إرادته ملكه لأول مرة؟
هل يطيع سيده أم يرفض لكرامته؟
هل؟
هل؟
نظر إلى الأفق لثوان و وجهه العابس يعود تدريجيا إلى حياده.
و ما المانع؟
لن يغادر مسكنه الذي عاش فيه حياة طويلة.
هذه طبيعته التي جُبِلَ عليها و ليس لديه عزم ليغيرها.
آمال كبيرة تهاوت و هو سيتركها تغرق.
لا بل كانت نزوة.
لا تستحق منه أي أسف.
مرحبا بعودتك يا نديم إلى أصلك.
قال ببطء و هدوء كما تعود دائما:
"تحت أمرك."
ملعون أنت يا صديقي آدم.

***

الفصل الثامن و الثلاثون

وقف ينظر إلى أول الطريق ينتظر ظهور السيارة بفارغ الصبر.

و خلفه جثا شاكر على ركبتيه و يديه و قطرات الماء تنز من ثيابه بعدما أخرجه آدم من الماء، يلتقط أنفاسه و يلهث من التعب. ثم ما لبث أن استلقى على ظهره ينظر إلى السماء.

أخذ آدم ينقل بصره بين ساعته و بين الطريق في قلق.

نظر إلى شاكر خلفه و سأله باحثا عن طمأنة:

"هل تأخر؟!"

مال شاكر برأسه و نظر نحوه و قال في قلق مماثل:

"لقد عرفت نديما جديدا هذا اليوم! لا تقلقني معك!"

لكنه لم يخيب أملهما فما لبث أن ظهرت السيارة من بعيد.

نشوة غامرة ملأت روح آدم و هو يتابعها تقترب.

بدت له بطيئة لكنها بالفعل تقترب.

مضى نحوها و اعتدل شاكر.

توقفت على بعد أمتار. أسرع آدم.

فُتح الباب الخلفي و هبط.

و رآه آدم أخيرا لأول مرة بعد عناء كبير.

بالحسنة على وجنته و بوجهه الطفولي البريء القلق.

نزل حسام مهرولا و هو ينظر إلى آدم القادم نحوه، ثم إلى خلفه حيث قام أبوه و بدأ يتحرك هو الآخر.

"حسام!"

كان نداء آدم أسبق من نداء شاكر.

توقف حسام تلقائيا في عدم فهم. أخذ ينظر إلى الرجل الغريب المبتسم كأنه وجد كنزا و هو يفتح ذراعيه له.

لكنه تجاهله عندما نادى هو أباه و مر بجوار آدم مسرعا نحوه.

نظر آدم نحوه و هو يندفع في حضن أبيه الذي جثا ليتلقفه و الدموع فعلا في عينيه.

لحظات رائعة من المشاعر الدافقة عبرت جسد آدم. ارتياح، و أمل، و حب، و تأثر.

أخذ هاتفه و طلب الرقم. ردت ليلى فابتسم و قال:

"بشريها يا عزيزتي. حسام معي."

شهقت ليلى و هي تسأل:

"أحقا؟!"

أجابها أن نعم، ثم سمع الشهقة الأخرى من الأم.

و أخبر ليلى بعنوان المكان و قلبه يبتسم أكثر من وجهه.

***

"ستقابل ماما يا حسام. ماما حية لم تمت."

أخذ آدم يراقب شاكر و هو يقول ذلك لحسام، ثم نقل بصره نحو نديم الذي خرج من السيارة و استند على بابها الخلفي عاقدا يديه معطيا ظهره إياهم دون أن ينظر نحوهم.

"ماذا تقول يا بابا؟!!"

"حقا يا بني."

الدهشة البالغة غيرت ملامحه البريئة نوعا. سأل:

"و لكن أنت قلت..."

قاطعه أبوه بقوة قائلا:

" لقد أخطأت!"

و أشار إلى آدم قائلا:

"لقد وجدها الأستاذ آدم."

و أشاح بوجهه عنه لكي لا يواجه عيني ابنه المتسائلتين و قال:

"اذهب إليه. سيأخذك إليها."

لا بأس بها كبداية. بالأحرى لقد وجده آدم. لكن كل شيء سيبين بالتدريج. لا بأس.

نظر حسام في قلق إلى آدم الذي ابتسم و قال:

"مرحبا. أنا آدم."

لحظتها ظهرت سيارة عم جمال و توقفت بغتة على بعد خمسين مترا.

قال آدم:

"يبدو أنها تعطلت مرة أخرى."

مد يده نحو حسام و قال:

"هل تريد أن ترى ماما؟"

وجهه الصغير الصامت كأنه يريد أن يسأله و يقول:

"حقا؟!"

لكن اللغز أكبر منه فمد يده و أمسك بيد آدم و قد انعقد لسانه.

و مضى آدم نحو السيارة و يد في جيب سترته و بالأخرى الصغير.

نزلت مديحة مهرولة و عندما وقع بصرها على الصغير في يد آدم شهقت في فرح طاغ و هي تهتف باسمه.

"حسام!!"

اقترب آدم بسرعة و وصلت إليه و سلمها ابنها.

لم تترك شبرا في جسده لم تقبله و هي تحتضنه بقوة. و الصغير لا حول له و لا قوة.

"ابني.. حبيبي! أخيرا! أخيرا!"

أنهار الدموع تسيل و تروي أراضي قاحلة فتظهر الحياة فيها لأول مرة.

تظهر الحياة في وجه مديحة.

ابتسم آدم في رضا. تحول بصره نحو شاكر الذي وقف جامد الوجه ينظر إلى مديحة و هي تفرغ حرمان السنين بتقبيل حسام و ضمه.

ثم نظر إلى نديم الذي كان يأخذ نظرات مختطفة إلى المشهد عاقدا ذراعيه محاولا التظاهر بأن ما يحدث لا يعنيه.

التقت نظراتهما لفترة معتبرة. العيون تتكلم أيضا.

لماذا لم تأت منك أولا؟

اذهب إلى الجحيم.

خفض آدم بصره و تحول إلى ليلى التي كان تأثرها بما رأته من لقاء يحدث لأول مرة بين أم و ابنها مجسدا في دموع عينيها.

أمسك بكفها يربت عليها. قالت له و هي تبتسم وسط الدموع:

"جدع!"

"أأنت ماما؟!"

ما أجمل وقع الكلمة.

كل عذابات السنين الماضية كأنها مسحت بجرة ممحاة واحدة فكأنها لم تكن عندما سمعتها منه.

شهقت و قالت بصوتها الباكي و هي تضمه بقوة:

"نعم.. نعم يا حبيب ماما!"

ما زال الصغير يحاول أن يستوعب.

هذه أمه! أيصدق أحد ذلك؟! أمه بشحمها و لحمها! لم تمت!

استغرقته المشاعر الفياضة التي تغمره بها أمه و بدأت نفسه تهيج و الدموع تلمع في عينيه.

رفعت مديحة عينيها إلى آدم و ما زالت ملتصقة بابنها و ابتسامتها الدامعة تملأ وجهها.

كانت تحرك رأسها دون كلام بمعنى أنها لا تجد ما يوفيه حقه من الشكر. أخيرا قالت:

"أنا مدينة لك بحياتي!"

قال آدم و هو يهز كتفيه:

"لقد أديت عملي الذي كلفت به."

"لا أعلم كيف أجزيك!"

"لا شيء. الاتفاق اتفاق."

كانت ابتسامتها الواسعة، مع دموع فرحتها الغزيرة، مع وجود حسام بجوارها هو الجزاء الذي يرضى به.

تقدم شاكر نحوها و تبادلا النظرات الصامتة.

"ماما اسمها مديحة يا حسام."

قالها شاكر و هو يضع يده على رأس ابنه.

***

لم يكن نديم وحده الذي يرقب ما يحدث و هو منفصل عنه.

أيضا هي الأخرى كانت تراقب الحالة العظيمة من على مسافة.

شاهدت شاكر و هو يتبادل كلمات متفرقة مع مديحة، ثم بدأ حبل الكلام في التمدد و أصبحت الكلمات تنتقل بين الأب و الأم و ابنهما حسام.

أسرة واحدة لا مكان لآخر بينها.

مسحت شهيرة دمعة فرت من عينها. التفتت و مضت بهدوء مبتعدة. لقد أرضت ضميرها و عليها أن تتعامل مع أحزانها.

إلا أن شاكر ناداها من خلفها:

"شهيرة! أين تذهبين؟!"

التفتت و هي لا تفهم.

قال و هو يتوجه نحوها:

"تعالي يا شهيرة. أنا عند وعدي."

ثم توقف و التفت نحو مديحة و قال:

"سأتزوج شهيرة."

قامت و هي تضم حسام قائلة و هي تنشج:

"مبارك."

ثم نظرت إلى ابنها و قالت:

"لا أريد شيئا آخر. حسام هو ما أعيش لأجله."

مضى آدم و ذراعه في ذراع ليلى و هو يقول:

"هيا بنا نتمشى على شاطئ البحر. الجو جميل أليس كذلك؟"

و عندما أجابته ليلى موافقة لم يفته أن يلقي نظرة على من يبدو أنه الخاسر الأكبر في هذا الموقف.

الذي يعطيهم ظهره، و يعقد ساعديه، و يلقي نظرات مختلَسة بين الفينة و الأخرى.

***

الفصل التاسع و الثلاثون

جلس على الأريكة مرتديا زيه الرياضي الجديد الذي اشتراه مؤخرا.

ناداه:

"هيا يا خالد.. سنتأخر. لقد سبقنا منصور و عم جمال."

أتى خالد مهرولا و هو يمسك بحذائه الرياضي و جلس بجوار أبيه و نظر إليه و سأله وهو غير ثابت:

"ما زلت لا أفهم يا بابا! تؤ.. كيف تفعل ذلك؟! لماذا رفضت أن تأخذ النقود التي عرضها الرجل عليك؟! مليون يا بابا! مليون!"

طرق آدم على رأس ابنه بأطراف أصابعه و قال له مبتسما:

"يا ولد!"

و تذكر الموقف الذي يقصده.

بعد أسبوع من ذلك اليوم حضر إليه شاكر في بيته. استقبله آدم مرحبا و عندما جلسا سأله آدم:

"كيف حال حسام؟"

ابتسم شاكر بهدوء و قال:

"بخير. إنه يستوعب."

و سكت و قال في هم:

"و أرجو أن يسامح."

أومأ آدم برأسه. لكن شاكر لم يسترسل و أخرج من جيبه إيصالا مصرفيا مد يده به إلى آدم قائلا:

"أجرك."

نظر آدم إلى الرقم المكتوب على الشيك دون أن يمد يده ليأخذه، ثم ابتسم و قال:

"ألم تخبرك..."

لم يدعه شاكر يكمل و قال:

"نعم.. مديحة أخبرتني أنك فعلتها بلا مقابل. لكنني أرغب في أن تأخذ هذا المليون."

ثم ابتسم و قال:

"نقود حلال هذه المرة يا رجل. أليس كذلك؟"

أومأ آدم مبتسما موافقا و قال:

"لكنك لست عميلي يا شاكر بيه. أجري وصلني."

تنهد شاكر و أرجع يده بجواره و قال:

"أنت تعجز عقلي دائما يا آدم و تجعله يتخبط في متاهات! لا أعلم كيف لك تلك المقدرة يا رجل!"

أخذ نفسا و قال و هو يقوم و يصافحه:

"لو احتجتني في أي شيء لا تتأخر عن السؤال."

مد آدم يده و صافحه بقوة و قال بابتسامة:

"بالتأكيد.. سلم لي على حسام."

عاد إلى الحاضر و رأى ليلى و هي تحمل الشاي و تأتي لتجلس أمامهما و تقول مبتسمة:

"لا تحاول مع أبيك.. سيغلبك يا خالد."

نقل الصغير بصره بينهما و قال:

"إذن.. لا تأخذها أنت. آخذها أنا منه. أريد أن أسافر وأرى الدنيا يا بابا. أحتاج نقودا كثيرة."

اعتدل آدم و أمسك الحذاء من يد ابنه و وضعه على الأرض و قال:

"اسمع يا خالد يا حبيبي.. كان يمكنني أن آخذ النقود بكل بساطة و لا لوم عليّ. لكن

المشكلة هي أنها لا يمكن أن تدخل تحت أي بند عندي."

"لكنك يا بابا أرجعت الولد لأمه و..."

قاطعه و قال:

"و لا تنس أنني اتفقت معها أنني سأفعل ذلك بلا مقابل."

"لكنك تعبت!"

" عملي يا بني و يجب أن أؤديه كما اتفقت عليه مع صاحبة الشأن."

قال خالد:

"مكافأة يا بابا. أنت لم تجبره على شيء!"

رد آدم:

"مكافأة على ماذا؟! لقد كنت أسعى ضد شاكر في هذه القضية.. هل آخذ مكافأة على مساعدتي في عودة صوابه إليه؟! هل هذا يُكافَأ عليه بالنقود؟! قل لي أنت يا خالد!"

سكت خالد و نظر إلى حذائه على الأرض.

قال آدم:

"لن أحترم نفسي بعدها."

بتردد مد خالد يده و أمسك حذاءه و أخذ يرتديه و هو يديرها في عقله الصغير.

ربت آدم على كتفه و قال:

"ستفهم عندما تكبر إن شاء الله."

ثم نظر إلى ليلى التي أخذت تصفق له و تقول:

"من يغلب منطقك يا آدم؟"

ثم سألت:

"هل ستخرجان؟"

تصنَّع الدهشة و قال:

"ألن تأتي معنا؟"

اندهشت هي حقيقة و سألت:

"أنا؟! أين؟! لم تقل لي!"

بدهشة مصطنعة أكبر سأل:

"أحقا لم أقل لك؟"

ابتسمت و قالت:

"آآآآآه هكذا إذن. لا يا خويا لم تقل."

قام و اتجه نحوها و هبط برأسه نحو خدها و قبله، و توجه نحو باب الخروج و هو يلتقط شيئا من على الأرض، و قال و هو يرى خالد قد وقف جاهزا:

"لا يبدو أنكِ في حال جاهزة للنزول الآن. أنت متعبة."

عقبت مبتسمة:

"نعم. و لو أعطيتني مليونا."

نظر آدم إلى خالد و أشار إلى ليلى و قال:

"أرأيت؟ أمك أيضا لها مبادِئُها."

ابتسم خالد رغما عنه و هو يحاول هضم كلام أبيه في ذهنه.

"خذ."

أفاق مستقبلا الكرة التي قذفها أبوه إليه.

أشار له آدم أن هيا فمضى منحيّا الموضوع عن ذهنه مؤقتا و سبق أباه ينزل السلم.

قبل أن ينزل آدم أطل من باب الشقة و قال:

"لدينا مباراة مؤجلة يا ستي. لدينا مباراة مع كريم."

و أغلق الباب.

***

(تمت بحمد الله)

www.muhammadzakzook.com